بين الممارسة والاستجابة

حين طلب إلينا أكثر من ناشر أن نعيد طباعة عدد « الوحدة العربية »، وعرض أكثر من متعهد أن يدفع الثمن سلفاً .. حينذاك فقط أيقنا بأن جهودنا في سبيل معالجة جدية للقضايا الملحة في الفكر والواقع العربيين ، قد بدأت تأخذ طريقها إلى جمهرة المثقفين ، وتلاقي منها الاستجابة الايجابية التي نتمنى ..

لم يطبع العدد طبعة ثانية بسبب عقبات نهضت قبلاً، غير أننا كنا التقطنا الاشارة الخضراء من وعي القراء بأننا معهم على الطريق الـــتي يريدون . وهكذا قررنا أن نمضي كما خططنا وصممنا ، ولكن بثقة أكبر هذه المرة . وعلى ذلك ،فإن هذا العدد يضم ملفاً عن دولة الاتحاد ، كان من حق كتابه وقرائه علينا أن نثبته في عدد الوحدة ؛ على تقدير أن تكون دولة الاتحاد وتطلعاتها ، وتطلعاتنا لهـــا أيضاً ، بمثابة الممارسة العملية لنظرية الوحدويين في الوحدة .. لو لا أن الدراسات عن الوحدة قد ازدحمت وزحمتنا فآثرنا تدبر الأمر بهذا الشكل حرصاً منا على أن نستوفي كل موضوع حقه من المعالجة ، ولو على مراحل .

وكنا قد وعدنا أيضاً بأن نجعل من هذه المجلة مجلة حوار ومعاصرة.. فأما المعاصرة فاننا نراها تتحقق في معالجة أهم القضايا التي تطرح نفسها على الفكر العربي ، وأما الحوار فيسعدنا أن نبدأ به منذ هذا العدد ، فنقدم نقداً لعدد النقد، آملين بأن يدور حوار جديد لايقتصر دائرته على الكتاب المعنيين وحدهم ، بل تتسع وتتسع حتى تشمل معظم من تهمهم مسائل الفكر والواقع. كما أننا نعد لنقد يقدمه كبار المفكرين عن عددي الوحدة والاتحاد ، وان كنا ندعو القراء إلى الاسهام من جديد في الموضوع الأساسي ، فضلاً عن التعليق عليه .

غير أن جهدنا لن يتوقف عند هذه الحدود ، بل سوف نسعى إلى تخطيها في أعدادنا القادمة عن « الكتاب العربي » و « السينما العربية » و « الفنون التشكيلية العربية » .. الخ ، وفاء منا لعهد قطعناه ، وتحقيقاً لمنهج رسمناه .

رئيس التحرير

أنطـون مقـدسي

حَول المؤتمر الثاني للمسيحيين من أجل فلسطين

المسيح لاجيء فلسطيني

سبع نتائج :

في كنتربري-عاصمة الكنيسة الانكليكانية-أعلن مائة وخمسون لاهوتي وعـالم وباحث واستاذ ، توافدوا من أطراف العالم الاربعة، أعلنوا :

أولاً ، شجبهم لتهويد القدس والأرض المحتلة تمارسه اسرائيل بمختلف وسائل العنف؛

ثانياً ، رفضهم القاطع للايديولوجيـا الصهيونية المستندة الى حجج كتابيةمزعومة؛

ثالثاً ، نزعهم كل صفة لاهوتية أو دينية عن المشكلة الفلسطينية التي هي مشكلة انسانية خالصة ، أي اجتماعية واقتصادية وسياسية ، تستلزم حلولاً تلائم خصائصها هذه .

رابعاً ، احتجاجهم الشديد على الطبيعة النازية للبنى السياسية التي أقامتها الصهيونية في فلسطين المحتلة ، تدوس بها حقوقاً هي حقوق الانسان ، حقوقاً أعلنتها هيئة الأمم المتحدة ، وأقرها البشر شرعة يجب أن تسود أرض البشر .

خامساً ، وضع الخطوط الكبرى لاعلام صادق ،يقوّم الصورة المزيفة التي استخدمتها الدعاية الامبريالية لتضلل الوجدان العالمي بعامة والمسيحي بخاصة .

سادساً ، اعترافهم بمنظمة التحرير الفلسطينية على أنها الهيئة السياسية المخولة وحدها بالتحدث باسم الفلسطينيين طالما أن هذا الشعب هو الذي أنشأها في انتخاب حر وسلمها زمام قيادته .

سابعاً ، تضامنهم الكلي مع الشعب العربي الفلسطيني في نضاله العادل ، ومناهضتهم للصهيونية ، ولكل أنواع التمييز العنصري والديني والثقافي ، أين وأنى وجدت .

وجاء في خاتمة بيانهم .

« نحن ، اذ نعي متطلبات الانجيل ، نستمد منها قناعاتنا ، لمصممون على دعم عملنا وتوسيعه داعين كافة المسيحيين الى الاسهام فيه »(١) .

كما أن « بيان كنتربري »ذكّر بما جاء في «نداء بيروت »من أن السلم العادل لا يتحقق إلا إذا أقيمت في فلسطين دولة علمانية ديموقراطية تحترم المعتقدات كلها ، فتتعايش فيها سلمياً الطوائف والاقوام وكافة المنظمات الشعبية التي تعيش على أرضها (٢) .

الطريق الى الحوار :

ثمة نقاط تماس ثلاث بين المؤتمر الاول العام لـ « الندوة العالمية للمسيحيين من أجل فلسطين » (بيروت ٧ — ١٠ أيار ١٩٧٠) والثاني (كنتربري ١١ — ١٦ أيلول ١٩٧٢) جعلت الحوار شاقاً هذه المرة ، وفي الوقت ذاته غزير الفائدة .

فالاول عقد في عاصمة عربية ، افتتحه الاستاذ شارل الحلو ، رئيس الجمهورية اللبنانية يومها ، وأسهمت في تنظيمه السلطات الدينية والمدنية ، واشترك فيه ممثلون عن المقاومة ، فكانت القاعة تغص كل جلسة

(١) راجع النص الكامل لبيان كنتربري في نهاية هذه الدراسة .
(٢) راجع بشأن مؤتمر بيروت جريدة الثورة العدد ٢٢٠٣ تاريخ ٢١/٥/١٩٥٠ .

بعثرات المستمعين ، تخفق قلوبهم مـع كل كلمة تقال .

أما الثاني فعقد في جامعة كنت بمدينة انكليزية صغيرة ، اشترك فيه عدد زهيد من الشخصيات السياسية غير الرسمية ، وافتتحه بالنيابة عن اسقف كنتر بري ، عميد الكنيسة الانكليكانية ، أحد مساعديه . وهذا لزم جانب الحياد ، فلم يعلق أحد من المؤتمرين على كلمته ، وكأنها لم تكن .

ويستعيد المؤتمرون في كنتر بري أهم المسائل التي عولجت في بيروت وأغلب النتائج التي استخلصت اذ ذاك لدراستها على ضوء الأحداث التي وقعت خلال سنتين زاخرتين بالمفاجآت الخطيرة ، فيقسمونها الى اربع ، هي المفاصل الكبرى للشكلة الفلسطينية في منظور الغرب المسيحي :

١ – الشعب الفلسطيني اليوم .

٢ – فضح تزييف الحجج الدينية الصهيونية .

٣ – الرأي العام ومسؤوليته تجاه الفلسطينيين .

٤ – نظرة مستقبلية الى مسؤولية المسيحيين .

ولكن طريقة المعالجة عدلت لتتلاءم مع العقل الغربي ، وبخاصة مع العقل الانكلو سكسوني، فاختزلت البحوث الطويلة واستعيض عنها ، مبدئياً بتقارير قصيرة محكمة، منها ما أعد سلفاً(التقرير اللاهوتي والتقرير عن حقوق الانسان) ومنها ماصيغ أثناء المؤتمر. فقد انقسم الاعضاء منذ اليوم الاول ، الى حلقات بحث درست كل منها مسألة من المسائل المذكورة ، وأضيفت حلقة خاصة بمدينة القدس. وكانت التقارير تعرض تباعاً على المؤتمرين ، فتناقش لتؤدي الى مقررات عملية ، أو الى نقاط انطلاق هي التي يجب أن تستند اليها في الممارسة ، اللجان التي انشئت في مؤتمر بيروت ، والتي مابرحت تعمل ، كل منها ، في بيئتها الخاصة(١) .

وتبدأ جلسات المؤتمر في جو صاف . فالنتائج السبع التي ذكرت بينة ، أقرها المؤتمرون ضمناً ، ومن ثم صراحة في بيانهم الأخير .

كانت السلطات البريطانية قد حجبت عن ممثلي المقاومة اجازة الدخول الى أرضها . ولكن عندما دخل ، عشية اليوم قبل الأخير ثلاثة من اشبالهم ، القاعة ، حياهم الجميع بعاصفة من التصفيق الحار، دلت على تضامنهم قلباً وقالباً مع عرب فلسطين ،

(١) راجع بشأن هذه اللجان (القضية الفلسطينية والغرب المسيحي) في مجلة المعرفة العدد (١١٠) نيسان ١٩٧١ .

ومع ذلك لم يكن الحوار بالأمر السهل ، كما كانت عليه الحال في بيروت . فالنكبات التي حلت بالفلسطينيين خلال سنتين داميتين ، وإن كانت قد استمالت الى جانبهم شطراً لا يستهان به من الرأي العام العالمي ، فقد عقدت المشكلة ، وجعلت الاستعمار وأنصاره وصحفه العديدة اكثر ضراوة وأشد تعنتاً ، وجعلت بالتالي مهمة المدافعين عن القضية العادلة أشق وأدق ، اذ اصبح على كل لجنة من اللجان الوطنية أن تجابه واقعاً يختلف عن الذي يجابه غيرها . ولهذا بدا الخلاف واضحاً ، لا على الهدف بل على السبل التي تتبع ويجب أن تتبع للوصول اليه ، اذ إن لكل من المؤتمرين مواقعه الايديولوجية والسياسية والجغرافية . وقد نشأ بين المسيحيين في الغرب كما في الشرق ، جيل جديد يرفض المهادنة — حتى ولو كانت تكتيكية — مع الخصم . فالثورة الفلسطينية في نظره جزء لا يتجزأ من الثورة العالمية على الاستعمار . وهذه عليها أن تقوض مواقع الخصم وقيمه وتنظيمه بحيث تجبره على التراجع الى أن يتحقق التحرر الكامل لكل الشعوب ، المستعمرة منها وغير المستعمرة . ولا يخفى أن الوسيلة ترتكس بشكل او بآخر على الغاية . أما الجيل السابق ، وإن كان يسلم بصحة رأي الاول ، فهو يرى أن القضية الفلسطينية بحاجة الى عمل أولي هو تحويل الرأي العام العالمي بأساليب تراعي متطلبات كل بيئة على حدة .

ويأخذ النقاش شكلاً حاداً عند وضع البيان النهائي الذي رجح بالنتيجة وجهة نظر الفئة الاولى على الثانية .

وأرى شخصياً أن كل حوار ينطوي على سؤال معلق قلما يعبر عنه المتحاورون . فالمسيحيون اختلفوا وسيختلفون دوماً حول العنف ، يظهر بصورة خاصة عند التحولات الاجتماعية الكبرى : حتى يصبح مشروعاً وكيف . فالمحبة عنيفة « ماجئت لالقي سلاماً بل ناراً ... ، جئت لأفرق » . ولكن ما الحد الفاصل بين العنف كحل استثنائي لوضع مستعص والعنف البيولوجي يستثير الغرائز البدائية فيردي الانسان باسم محبة الانسان ؟

سؤال يصفعك ، وأنت ترى الأحداث ، فيجبرك على تحمل مسؤولية الاجابة عليه في ممارستك اليومية .

وأرى ايضاً أن طرح المشكلة انطلاقاً من هذا الافق — اوسع الآفاق — وفي اطار المآسي الأخيرة ، ادى الى نتائج ايجابية أهمها :

اولاً ان الشعب العربي الفلسطيني الحاضر ـ الغائب في المؤتمر وفي العالم ، فرض وجوده على هذا العالم ، اذ أثبت في محنته ، وبسبب هذه المحنة ، انه جدير بالحياة ، دفع ثمنها بأغلى ما يمكن أن يدفع ثمن الحياة .

ومن ثم ان للمقاومة ركائز ، في مختلف أقطار العالم ، تتشكل تلقائياً تحت ضغط الاحداث ، ركائز بوسع الشعب العربي ، اذا ظل صامداً – وسيعمد – أن يستند اليها .

اخيراً ، ان مواقع الصهيونية ، أخذت تتزعزع ، دلل على ذلك صمت عميد الكنيسة الانكليكانية .

ويقول لي أحد الذين التقيت بهم في لندن بمرلا أشك في معرفتهم للرأي العام الانكليزي ، أن القوم هناك ضاقوا ذرعاً بالصهيونية ، فدهاؤها اصبح مكشوفاً لحد بعيد ، وكذلك سيطرتها على الصحف الكبرى . فالقارىء الانكليزي العادي لم يعد مطمئناً لما يقرأ في صحيفته اليومية .

شعب الشهادة :

ان حضور الفلسطينيين في المؤتمر بصيغة الغائب لآية تدل على واقع هذا الشعب وحقيقته :

واقعه ، انه في وطنه غريب ، على أرضه منفي ، شتت في ارجاء العالم ، يقاوم المغتصب أين وانى وجد الى ذلك سبيلا .

حقيقته ، انه اكد هويته العربية . فالقوانين العرفية ، وضعها المحتل ، عرضته لالوان الاضطهاد كلها (السجن والتعذيب) التشريد والجوع ، نسف البيوت وقتل الاطفال الخ) فلم تلن له عريكة ، بل ازداد تمسكا بشخصيته وايماناً بحقه .

درب الآلام هذا ، هو الذي قدم عنه الخطباء في اليوم الأول صورة تحليلية دقيقة ، رسمها كل منهم من وجهة نظر معينة بالاستناد الى أوثق المصادر ، في الماضي ، وفي الحاضر ، في الحاضر أكثر من الماضي .

كانت لجنة حقوق الانسان التي اجتمعت مسبقاً في لندن (٦ – ٩ ايلول) قد درست القرارات الدولية المتعلقة بفلسطين وبالحالات التي تشبهها لتثبت حقائق ثلاث لا يتطرق اليها الشك .

١ – ليس الفلسطينيون لاجئين ، أي ليسوا مجموعة أفراد ، بل هم شعب ، شأنه شأن كل شعب ، حقوقه لاينسخها تقادم الزمن (القرار ٢٥٣٥ الصادر عن الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بتاريخ ١٠ / ١٢ . ١٩٧٢

٢ – لهذا الشعب الحق أن يناضل من أجل استعادة ارضه ، وأن ينشىء لذاته على هذه الارض المؤسسات التي يختارها لنفسه ، أي له حق تقرير المصير (٢٢ قراراً صادرة عن هيئة الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٨ الى أيامنا) .

٣ – مشروعية المقاومة حق من حقوق الشعوب المستعمرة (ومنها الشعب الفلسطيني)

(قرار هيئة الامم تاريخ ٦/١٢/١٩٧١) وعدم مشروعية أي اجراء تعسفي (التعذيب الطرد ، الخ) يمارسه المستعمر ضد المقاومة (قرار لجنة حقوق الانسان التابعة لهيئة الامم في آذار ١٩٧٢) . وينتج عنه ان اتفاقية جنيف لعام ١٩٤٨ (المادة ٤ آ) بشأن اسرى الحرب يسري مفعولها على المقاومة الفلسطينية .

والواقع ان البحوث التي قدمت للجنة حقوق الانسان، جديرة بالاهتمام لأنها عالجت المسألة من آفاق مختلفة لم ترد في التقرير النهائي ، أخص بالذكر منها .

١ – بحث الاستاذ ماليسون ، رئيس قسم القانون الدولي في جامعة واشنطن الذي كان قد نشر ، قبلها ، دراسة ضافية عن لامشروعية القومية اليهودية والجنسية اليهودية والشعب اليهودي ، والذي أثبت شرعية المقاومة الفلسطينية في القانون الدولي بالشكل الذي تبنته اللجنة .

٢ – بحث الاستاذ جورج جبور (من مكتب الدراسات في القصر الجمهوري بسورية) الذي حلل الطبيعة العنصرية للاستعمار الاستيطاني ، فقارن بينه في فلسطين وجنوب افريقيا ، ليخلص الى نتيجة هامة ، وهي أننا في الطريق الى صياغة مفهوم جديد هو مجال واسع لدراسات قانونية تفضح الاستعمار الجديد إذ تحلل جانباً هاماً من جوانبه ، هو العنصرية الاستيطانية .

ويلقي الاستاذ هنري كتن في جلسة اليوم الأول ، بيانا يعدد فيه جرائم الصهيونية الأخيرة .

١ – تهجير سكان اقرط وكفر برعم وغيرهما من القرى العربية ونسف بيوتهم ومنعهم من الرجوع الى ديارهم .

٢ – قصف السكان المدنيين بالقنابل والصواريخ في حاصبيا وغيرها من مدن وقرى لبنان .

٣ – تهويد القدس ، بانشاء مدينة جديدة على أنقاض القديمة ، وقد نسفت هذه بالديناميت .

٤ – خطف الضباط السوريين واللبنانيين واحتجازهم ، الخ ، ليرى في كل ذلك خرقاً صريحاً للحق الدولي وانتهاكاً لحرمة القوانين وخروجاً وقحاً على قرارات هيئة الامم .

ويتلوه الاستاذ كلوفيس مقصود فيكشف عن الدلالة الانسانية للمعركة ، يراها ، من جهة الغرب في القاء التبعة على الآخر . فالغرب الذي ابتدع اللاسامية ومارسها خلال قرون ابتلي ، نتيجة فعله ، بعقدة الذنب ؛ وهذه أسقطها – وعملية الاسقاط معروفة في علم النفس التحليلي – على العرب ، جعل منهم كبش فداء . أما من جهة العرب فالمعركة هي مناهضة النازية الجديدة ، مناهضة ستحرر اليهود أنفسهم من استبداد الصهيونية . ويخلص الاستاذ مقصود الى

هذه النتيجة وهي أن المقاومة الفلسطينية ، على تعثرها ، حركة انسانية تلتقي متضامنة مع معارك التحرر في عالم اليوم .

وتلي الدلالة الانسانية الدلالة الروحية يقولها الأب سكريما في بيان لاهوتي سألخصه في الفقرة التالية ، بيان دقته العلمية بنسبة سموه المعنوي :

.. هذا الشعب ، كالناصري « لايملك حجراً يسند رأسه اليه .. هو الذي يشهد اليوم للحق ، فيدين في الحاضر الجماعة الاسرائيلية كما أدانها في الماضي أنبياؤها ، ومن ثم يسوع .

ويضيف الوفد السوري في اليوم الثالث موضحاً : ليس المسيح ما يسميه الغرب « المسيحية » ، بل هو القريب يسير على درب الجلجلة عارياً ، حاملاً صليبه ، وقد اتسعت هذه الدرب فشملت معظم اقطار العالم . ان الشعب الفلسطيني لايدين اسرائيل وحسب ، بل المسيحيين وكل الذين — حسنت نيتهم أم ساءت — يصلبون أو يسهمون في صلب الانسان .

* * *

وينتهي اليوم الأول بقراءة رسالة وجهها سيادة المطران نيقوديمس ، رئيس اساقفة لينينغراد ، رئيس « الندوة المسيحية من أجل السلم » يعرب فيها عن تضامنه مع المؤتمر وعن تمنياته بالنجاح ، ورسالة اخرى من المقاومة الفلسطينية .

ومن الجدير بالذكر ان اوربا الشرقية أسهمت في أعمال المؤتمر بوفدين من بلغاريا ومن هنغاريا .

ويوجه المؤتمرون رسالتين هامتين :

الواحدة الى « مؤتمر رؤساء الكنائس » المنعقد اذ ذاك في برمنغهام ، تذكرهم بمساندتهم في مؤتمرهم السابق (كنتر برى آب ١٩٦٩) لحق الشعب الفلسطيني بأرضه . وجاء في ختام الرسالة ما يلي :

« اننا ندعو المسيحيين في انكلترا الى مزيد من الاطلاع على حقيقة المشكلة الفلسطينية ، والى فهم طبيعة الصهيونية ، خصوصاً بعد أن سطت على القدس العربية ، كما ندعوهم الى العمل في سبيل سلم عادل يمكن المسلمين والمسيحيين واليهود من التعايش بوفاق فوق الارض المقدسة » .

الأخرى الى رؤساء الكنائس المسيحية في العالم كله ، ومما جاء فيها :

ان صمت السلطات الروحية العليا عن الظلم لشديد الخطورة على الجماعات المؤمنة وعلى العالم ، إذ قد يفسر على رأفة تواطؤ ، وهو لايطاق عندما يتخذ الظلم شكل قصف الأبرياء بالقنابل ..

أما الكلام المبين يكشف عن الحقيقة فهو فعل ..

ان كنيسة المسيح مسؤولة اذا لم تلتزم جانب الحقيقة ، خصوصاً تجاه ما يجري

اليوم في الهند الصينية وفلسطين وغيرها...

ولهـذا فمؤتمرنا يناشدكم ، باسم الشعب الذبيح ظلماً منذ سنوات ، كي تقولوا كلمة حق توقظ الوجدان العالمي من غفلته ... »

عندما يتحول اللاهوت الى ايديولوجيا :

كانت اللجنة اللاهوتية التي اجتمعت مسبقاً في لندن (٥ – ٨ ايلول) قد وضعت تقريراً مسهباً ، استخلصت فيه النتائج العملية المترقبة على ما جاء في تقرير بيروت النظري ، فتوجهت بكلامها :

أولاً ، الى الكهنة المسيحيين ترسم لهم الطريق الى ارشاد صحيح يفسر النصوص المقدسة في روحها لا في حرفيتها . فالعهد بين الله تعالى وابراهيم لا يعطي أي حق لأي شعب بأرض ما ، ولا يفضل شعباً على آخر ، بل هو وعـد بالخلاص يتوجه إلى كل الأمم والى كل الناس . فعلى المرشد أن يبدد الوهم القائم في أذهان بعض المسيحيين من قصيري النظر ، يرون في اغتصاب الأرض المقدسة تحقيقاً لنص كتابي ، هذا الوهم الذي تفيد منـه الصهيونية في دعايتها المغرضة فتشوه كلام الله تعالى لتسويغ ظلم لا تسوغه أية شريعـة ، لا أرضية ولا سماوية .

ثانياً : الى المسيحيين الغربيين لنقول لهم إن ملكوت الله ، وإن كان يتحقق انطلاقاً من سلوك الانسان في العالم ، فهو ليس من هذا العالم ، وبالتالي فان ادعاءات الصهيونية تخالف نصوص العهدين القديم والجديد . ويضيف التقرير بعبارة لبقة أن اللاسامية ظاهرة غربية خالصة استدعت بعد الحرب العالمية الثانية رد فعل معاكس كوَّن لدى المسيحيين عقدة الذنب التي شدد عليها المحاضرون في الجلسات السابقة ، عقـدة زيفت الوجدان الاجتماعي ، فجاءت تصرفاته متناقضة ، لا انسانية ، تخالف أوليات الأخلاق .

ثالثـاً ، الى اللاهوتيين من ذوي العقول الجامدة لتذكرهم بأن العلم الالهي ليس منظومة مفاهيم مغلقة وضعت مرة ولكل مرة ، فهذا من شأن الايديولوجيات النازية تفسر الحدث لتقحمه في المفهوم ، بل هو علم دلالة الأحداث يقرؤها العقل في خصوصيتها ليتميز ، جهد المستطاع ، ارادة الله تعـالى وتحققها عبر التاريخ في الانسان الحر المسؤول .

رابعاً ، الى اليهود الساعين الى الحقيقة ، يذكرهم بما جاء على لسان انبيائهم من أن تحقيق المشيئة الالهيـة يفترض من قبل الانسان ، شرطاً مسبقاً ، هو تحقيق العدالة والمحبة ، محبة الانسان للانسان ، فيها تتجلى محبة الله ، وان مزاعم اللاهوت الصهيـوني تنطوي على لعبة سياسية خطرة أوضحها نعوم جولدمان ، رئيس المؤتمر اليهودي السابق في مقال نشرته جريدة لوموند الفرنسية (عدد ١٩٧٠/٥/٢٨) وجاء فيه نصاً « ان غرض

الايديولوجيا الصهيونية منذ بدايتها هو أن تستميل الى جانبها الاكثرية الساحقة من اليهود ، إذ تفسر نصوص التوراة بشكل يجعلهم يعتقدون ان انشاء دولة اسرائيل في فلسطين شرط مسبق لتطبيق الناموس (١) الذي يحرصون على التقيد باحكامه .

ويستعيد الأب سكريا هذا التقرير في بيان دقيق يكشف عن أبعاد المسألة ، فيميز بين نوعين من اللاهوت: الواحد يطلق عليه اسم مذهبي ، والثاني اسم انتقادي .

الأول منظومة مغلقة من المفاهيم ، شأنها شأن المذهبيات كلها ، تدعي انها التعبير الناجز عن الواقع برمته ، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، حتى لكأن كل ما يقع قد توقعته نبوءة ما . انه ايديولوجيا تغلفها صوفية مزيفة . وتستخدمه سلطات اسرائيل الثيوقراطية لغرضين : تسويغ سلوكها الاستبدادي لدى الرأي العام ، من جهة ، ومن جهة أخرى تشريط الانسان ، بمعنى انسانيته ، اي اصطناع الشروط التي تجعل من رد فعل الانسان قبولاً للواقع الظالم ، ومن ثم اسهاماً فيه .

ويحلل الأب سكريا المفاهيم اللاهوتية الصهيونية (الوعد، أرض الميعاد، النبوءة، الخ ..) ليكشف عن لا عقلانيتها ، ويشدد على « القدس » حيث يبلغ التضليل ذروته فيصبح مفضوحاً ، أو بقول أدق كاشفاً عن تحول الايمان الى ايديولوجيا نازية . فربط الحياة الروحية بالارض كربط السياسة بالعرق ، كلاهما يلاشي الانسان – روحاً وبدناً – لحساب امبريالية ما .

ويضيف: ان القدس في الاسلام والمسيحية ، كما في العهد القديم ، معنى روحانياً ، أو معادياً (اذا استخدمنا التعابير اللاهوتية)، فهي تشير الى اليوم الاخير ، يوم الدين عندما تتجلى عدالة الله وملكوته .

ان التأمل في هذه المشكلة بالذات هو الذي يفجر اللاهوت القائم، ويجبره على أن يتخطى ذاته ، فيصبح :

١ – انتقادياً ، لانه لايقبل قراءة الحدث الا بعد تمحيصها وعرضها على محك العقل ليرسم لها حدودها .

٢ – منفتحاً لانه لقاء حر بين ارادة الله وارادة الانسان ، أو انه اصغاء لارادة الله تعبر عن ذاتها في الحدث ، حدث جديد ومتجدد باستمرار .

٣ – مسؤولاً ، لانه يلبسط أمر تنظيم الجماعة سياسياً واقتصادياً بالانسان .

٤ – اجرائياً ، لان العلم التزام بالواقع ،

(١) الناموس هو شريعة موسى كما وردت في نص التوراة الذي وصل الينا .

واللاهوت ، وان كانت غير السياسية ، فهو بعد من أبعادها .

وبتعبير مختصر فان المشكلة الفلسطينية تستلزم من اللاهوتيين اعادة نظر جذرية في كل مفاهيمهم، كما تستلزم من المسيحيين مزيداً من الوعي يمكنهم من فضح الصهيونية .

ويختم الأب سكريا بيانه قائلا : ان الشعب المشرد المعذب هو الذي يدين اسرائيل أمام التاريخ والله .

وأظن أني امين لفكر هذا المفكر الكبير اذا لخصت بيانه بكلمة :

حيث تتزيا الايديولوجيا بزي روحاني — صوفي ، هناك تكون النازية .

* * *

ويسائل المطران جورج خضر ، اسقف بيروت للارثوذوكس التاريخ ليحلل ، ويحل ثلاث مسائل شائكة طالما تذرعت بها الدعاية الصهيونية .

اولاها ، علاقة المسلمين بالمسيحيين . فيلاحظ أن الجيوش العربية عندما اقتربت من القدس ، طلب سوفرون بطريرك المدينة اذ ذاك ، ألا تدخلها قبل وصول الخليفة عمر ، ويلبي هذا الرغبة فيعقد اتفاقاً سامياً مع الرئيس الديني المسيحي ، كان من نتائجه أن تضافر العرب بمختلف أديانهم وطوائفهم على طرد الممثل البيزنطي لإقامة حكم عربي يسهم في ترسيخه المسيحيون مع المسلمين . ومن ثم فان عمر أبى يومها ، دخول كنيسة القيامة كي لايتذرع خلفاؤه بهذه الحجة ، فتتحول الى مسجد . واخيراً فان الاسلام ، على العكس من بيزنطة ومن المسيحية الغربية هو اول دين سماوي اعترف بالأديان الاخرى ، ووضع لمعتنقيها نظاماً تشريعياً ،

وعلى هذا فان المسيحيين الشرقيين ، برفضهم الدولة التيوقراطية (أو المبنية على الحق الإلهي) كانوا اول من علمن الدولة . وجاراهم في هذا الخط المسلمون ، فأنشأوا بتعاونهم اول دولة حديثة ، اي أول دولة تتعايش فيها الطوائف والامم والشعوب .

هذه الظاهرة لم يعرفها الغرب الا في عصور متأخرة ونجد لها مستنداً متيناً في سلوك النبي العربي الذي تزوج امرأتين الواحدة مسيحية والاخرى يهودية فلم يطلب من اي منها اعتناق دينه .

كما نجد لها ثلاثة مستندات في التاريخ الحديث .

١ — عرب فلسطين، أول شعب مستعمر قبل التعاون مع مغتصبي أرضه عندما طالبوا بانشاء دولة علمانية ديموقراطية تسهم في انشائها على قدم المساواة كل الطوائف والملل والزمر الاجتماعية الموجودة على ارض فلسطين .

٢ — رفض سلطان المغرب محمد الخامس، أثناء الحرب العالمية الثانية، تطبيق التشريعات

اللاسامية على رعــاياه من اليهود ، مع ان سلطات فيشي النازية حاولت ارغامه على ذلك .

٣ — رفض الفاتيكان الاعتراف باسرائيل لان كيانها السياسي ديني — عرقي .

أمافيايتعلق بالقدس،فقد رفض المسيحيون والمسلمون اعطاءها أي مركز سياسي مميز لانها آية روحية ويجب ان تبقى كذلك . فموقف الصهيونية يعود بنا القهقرى الى عصور بدائية تخطاها التفكير الانساني منذ زمن طويل .

ويختم المطران خضر بيــانه قائلاً : ان نضالنا . نحن المسيحيين الشرقيين ليس في سبيل فك الاستعمار عن أرض عربية وحسب ، بل يستهدف مرمى أبعد هو تهديم الروحانية المزيفة ليتجلى لنا وجه الله الواحد الاحــد في عدالته ، ورحمته ومحبته . ان عــاصمة اسرائيل ليست تل أبيب ولا القدس ، وانما نيويورك . وهذه تحاول طمس المشكلة الكلية بردها الى جزئياتها : مرة القدس ، وغيرها الأرض المقــدسة ، وبعــدها الصراع بين الطوائف ، الخ .

أمــا بالنسبة الينــا فالمسيح ، اليوم ، لاجىء فلسطيني .

اعلام هو انشاء :

ويأتي دور الاعلام ، فالجلسات المتوالية ليلاً نهــاراً ، غنية بالعبر . شملت شهادات حرة صادقة ، أدلى بهــا مؤتمرون من كل مناطق العالم ، وبيانات عن الاعــلام تفضح أساليبه وترسم الطرق لتقويمه ، ومناقشات تستخلص مايترتب على ذلك من نتائج .

بدأ المؤتمر بالاستماع الى عدد من برقيات التأييد ، ليست بالكثيرة ، ولكنها مشجعــة تدل على أن المتضامنين مع المقاومة الفلسطينية يتكاثرون يوماً اثر يوم ، أشير منهــا بشكل خاص الى برقيــة « المؤتمر المسيحي لنصرة فيتنــام » والى برقيــة الاستاذ كمال ناصر باسم منظمة التحرير .

واستمع المؤتمرون بعدهــا الى الرسائل التي ستوجه الى الهيئات الدينية والمدنية في العالم لشرح أهداف المؤتمر فناقشوها وأدخلوا عليها بعض التعديلات . أخص بالذكر منهــا رسالة الى اسقف كنتربري كانت بمثابــة رد لبق على موقفــه الملتبس ، وبرقية للسيد ياسر عرفات .

وتلي الشهــادات ، أكثرها دلالة شهــادة آثار قــام (من مكتب السيد رئيس جمهورية تنزانيا) حيث فيهــا العرب الذين أطلقوا على عاصمة بلادهم اسم «دار السلام» ، ثم بينت كيف خدع الاسرائيليون الافريقيين فتسللوا الى ديارهم خلسة منذ حوالي اثني عشر عاماً ، يوم لم تكن أية دولة افريقية ممثلة في هيئة الامم المتحدة .

وتضيف :

إذ ذاك قدموا أنفسهم على انهم من المناضلين ضد الامبريالية ، وان ـ بلدهم الزراعي الصغير تمكن من تحقيق أكمل نظام اشتراكي في هذا المجال . ويتسربون ، بواسطة خبرائهم الى المناطق الاستراتيجية فيلشئون فيها مشاريع تجارية ، ومن ثم الى الجيش والى أجهزة الامن ويستتب لهم الامر فيكشفون عن نواياهم . اغتالوا باتريس لومومبا ، وقلبوا حكومة نكروما ، وهاهم اليوم يقيمون بجوار الخرطوم ومقاديشو انظمة معادية لهذين البلدين . انهم يقاومون كل حركة تحررية في افريقيا ، وهم على اساس كل انقلاب عسكري استعماري .

ولكن عداء اسرائيل السافر للعرب هو الذي نبه الافريقيين - وبصورة خاصة تنزانيا - الى حقيقة الصهيونية أي الى كونها ركيزة أساسية من ركائز الاستعمار . ولهذا فالتضامن مع الثورة الفلسطينية جزء لايتجزأ من نضال افريقيا وهي في سبيلها الى التحرر .

وتخلص المحاضرة الى نتيجة أيدها ممثلو اميركا اللاتينية وهي ان الوضع متشابه في كل اقطار العالم غير المصنع . فثمة شعوب تنشد الحرية في الاشتراكية من جهة ، ومن جهة اخرى امبريالية اميركية تنشىء لذاتها صنائع هنا وهناك (اكثرهم خطراً اسرائيل) كي تحافظ على مصالحها . فالمعركة واحدة ، وعلى القوى أن تتحد . وعندما تطرد اسرائيل من افريقيا - وقد بدأ هذا فعلاً - تقتلع جذور أقوى قلعة امبريالية في القارة السوداء .

* * *

ويلقي بعدها الاستاذ جي بجوا من جامعة لوفان الكاثوليكية درساً (أجل انه درس !) في قراءة الصحف يكشف فيه عن آلية التزوير تستخدمها الايديولوجيا الامبريالية فتمهد بواسطتها التدخل المباشر في شؤون بلد آخر ، أو تنوب منابه اذا تعذر .

كانت لجنة مؤلفة من تسع من المؤتمرين قد عكفت ، خلال يومين ، باشراف الاستاذ بجوا ، على دراسة علمية لفاجعة ميونيخ ، كما سردتها تسع من امهات الصحف الانكليزية والفرنسية والبلجيكية ، اليسارية منها واليمينية على حد سواء .

وتستند الدراسة الى بعض اصول البنيوية فترى في الحدث دراما تستخدم الايديولوجيا في صنعها وتصنيعها كل الوسائل الدرامية لتشريط القارىء بحيث تتسرب الى كيانه ، دون أن يشعر ، كل ما يريدون منه ان يقوم به ، وهاك بعض هذه الآليات :

١ - التعريف بالشخوص : الفلسطيني مشرد ، مسكين ، ضعيف ، جائع ، صرعه قدر غاشم .. أما الفدائي فمصاب بجملة من العقد والامراض النفسية جعلت منه انساناً

موتوراً ، حقوداً ، فاقداً للارادة ، فهو مجنون يتلاعب بعقله هواة المغامرات . الاسرائيلي في وضع شاذ أيضاً ، ولكنه ليس ارهابياً . فثمة تاريخ طويل من المآسي يدفعه الى الانتقام .

٢ — التعريف بالفعل : الجماعة الانسانية تمارس عملا بريئاً ، شريفاً ، جميلا يزيد من انسانيتها ومن تضامنها . وعلى كل انسان ان يحترم تقاليده ونظمه . ولكن ها هو العنف يشوه كل هذه القيم النبيلة. عنف غير مشروع ، فقد كان على الفلسطينيين ان يكونوا عمليين الطرف صعب ، والمفاوضات أجدى ، اذ بواسطتها يحصلون على ما يمكن الحصول عليه. الشرعية هي الطريق التي يجب أن يسلكها كل انسان محب للعدالة .

٣ — التعريف بالاطار : الالعاب الاولمبية لها حرمتها ، كالمعابد والمتاحف وكل الامكنة ذات الطابع الروحي — الفني . وعلى الانسانية أن تصون كرامتها بكل الوسائل .

٤ — النقل من مستوى لآخر : الحدث سياسي فيجب الا يشار في السرد الى هذا الجانب ، بل ننقل الرواية الى مستوى آخر ، هو تارة المستوى الاخلاقي (من جهة الضحية البريئة ، ومن جهة أخرى السفاح) وطوراً الى مستوى القصة البوليسية (التآمر في الظلام تقوم به زمرة مجرمة تتاجر (بالمخدرات وتمارس الارهاب) . ويأخذ الحدث في بعض الصحف شكلا عرقياً (العرب يقتلون اليهود لانهم من عرق آخر) .

٥ — النقل في الزمان وفي المكان. يذكرون بالدورة الاولمبية السابقة كيف تمت بسلام فأدت الى رفع مستوى اخلاقية الانسان . يبكون على الماضي ، ويبشرون بمستقبل مظلم اذا تسامح الرأي العام او تناسى الفاجعة .

٦ — ربط الايديولوجيا بأخرى من مستوى أعلى ، هي احترام القريب. الاخوة السلم ، حرمة المعاهدات الدولية .

٧ — النتيجة العملية: يرسمون استراتيجية للعمل تنهي المأساة : محاصرة الارهابيين والقضاء عليهم بكل الوسائل ، انهاء وضع اللاجئين بتوطينهم في مكان ما وايجاد عمل شريف لكل منهم . ولما كان قد ثبت أن العرب واليهود عاجزين عن التفاوض فعلى الهيئات الدولية ان تقوم به عوضاً عنهم ، وان ترغمهم على القبول بالحل المناسب .

على هذا الشكل تتلاعب الايديولوجيا البورجوازية بعواطف البشر ، تارة تدفعهم الى التباكي على الاخلاق والشرعية ، وطوراً الى الاستنكار والى استصراخ العدالة ؛ تارة ترشد وتبشر ، وطوراً تدين بادانة قاطعة. وتتبدى براعتها في نقل القارىء ، دون أن يدري ، من الوجه الموضوعي للحدث الى الوجه الاخلاقي التقييمي.

وأتساءل مع العرب الذين استمعوا الى

هـذا التحليل العلمي : أين اعلامنا الفج يؤدي الى عكس ما نريد ، من هذا الاعلام البارع يجعـل من الضحيـة جذاراً ومن المظلوم سفاحاً ؟

★ ★ ★

كان على مندوبي سورية أن يستخلصوا نتائج هذه البحوث والتقارير والمناقشات ، وأن يوضحوا على ضوئهـا وجهة النظر العربية في الموضوع المطروح . فقد لاحظت شخصياً في الاحاديث التي كانت تدور بيني وبـين بعض المؤتمرين الاجـانب أن هؤلاء كثيراً ما كانوا يجهلون موقفنا ، حتى في أبـسط معطياته أحياناً .

ونتقـدم ببيان موجز يطرح المشكلة الفلسطينية في أبعادها الثلاثة ، كل منها كان بمثابة رد على اعتراض أساسي :

أولاً البعـد العربي ، أو بالاحرى بشكل أدق الوحـدة العربية التي كانت ومـا تزال موضع تساؤلات كثيرة لدى غـير العرب . وقد جاء في البيان السوري مـاخلاصته : ليست الوحـدة العربية أمراً يفرضه قطر عربي على آخر ، بـل هي شركة مصير ، يأخذ بها حراً كل من يعتقد أنها تضمن لهـا مزيداً من الانسنة .

والعروبة بعد ليستايديولوجيا ، كما ردد وكتب بعض علماء الاجتماع ، فعلى أرضنـا تصطرع وتتعايش نظم فكرية كثيرة ، أفضلها تلك التي يستجيب لهـا الشعب ، أو أكثريته السـاحقة غير المرتبطة بمصالح استعمارية . ان العروبة هي هويتنا نستعيدهـا في الحوار مع تاريخنا ومع بقية الامم ، كما أن اشادة دولة قوية تضم الاقطار العربية - كلها أو بعضها - في نظام ديموقراطي وعلماني ضمانة للسلم ، داخل الوطن العربي وخارجه ، فالتجزئة كيانات سياسية اصطنعها الاجنبي ، لسنوات قليلة خلت ، وقدمها للعالم على أنها طبيعية . ولا يمكننا أن نصمد للاستعمار الا اذا قـام بين فئاتنا تفاهم ودي .

ثانياً البعد الحلي او الفلسطيني ، وقد رأى بعض المؤتمرين ان نقبل بتقسيم الارض المحتلة حلاً توفيقياً ويجيب البيان مذكراً بقصة معروفة ترويها التوراة ، خلاصتها أن امرأتين اختصمتا على طفل ، كل منها تدعي أنـه ابنها الشرعي ، وتحتكمان الى سليمان الحكيم فيرتأي أن يقسم الولد الى شطرين . لكل امرأة شطر . وتجيب الام الام الحقيقية - : لا ! لا ! فلتأخذه هـذه شريطة أن يبقى حياً ، وبعدها يدبر الله ما يشاء .

وبقول آخر فان تقسيم الارض المحتلةهو فرض تجزئة مفتعلة على تاريخ موحد ، وتمهيد لاحتلال مناطق أخرى من وطننا ، مقدمة لمساومات لايعلم متى وكيف تنتهي الا الله .

البعد الثالث عالمي – إنساني . ويقول البيان العربي السوري : لانزال بحاجة للتذكير بما أجمع عليه المؤتمرون من أن المقاومة الفلسطينية مجال من المجالات التي تصطرع فيها القوى المحبة للسلم مع الاستعمار .. لهذا نطلب من أخواننا المسيحيين المجتمعين هنا أن يلقوا ، كل منهم ، على مواطنيه هذا السؤال البسيط : علام الحياد ، وهم يرون شعباً كاملاً يشتت ويذبح ويصفى جسدياً ؟ أو ليس الحياد اعادة لموقف بيلاطس ، عندما قدم له اليهود يسوع ليصلبه ، فغسل يديه قائلاً : أنا بريء من دم هذا الصديق . أو ليس تحيز البعض الآخر اعادة لموقف اليهود عندما أجابوا بيلاطس : أصلبه ! أصلبه !

أن المأساة الفلسطينية هي البقعة الأكثر سوداً في قلب الحداثة ، تستثير الغرائز البدائية ، وتغلفها بقشرة صوتية – لاهوتية زائفة . وهذه حقيقة النازية إذا كان لها ثمة حقيقة .

أن ماتطلبه ، نحن العرب ، من العالم هو : الانصاف ، الانصاف ولا شيء آخر ؟ والانصاف ، في لغة العلم ، هو الموضوعية ؟ والموضوعية هي الحقيقة ، وحدها تحرر

ان الاعلام الحديث قوة هائلة ، قوة تنشىء الانسان ، إذ تخلع عليه الصورة التي تريد ، فهل حاولنا ، نحن الذين ندعي محبة القريب ، هل حاولنا ، ولو لمرة واحدة ، أن نرى صورة اللاجىء ينخر جسمه الجوع ، أو صورة الفدائي يسعى وراء مأوى ، وآلة الموت الجهنمية فوق رأسه ترميه بالنابالم ؟

ان الاعلام هو اخبار ، ويجب أن يكون اخباراً عن الحقيقة . وهذه تستلزم شرطين :

الأول : هو تعرية الحادثة بحيث تتبدى في واقعيتها المرة عن حقيقتها ، حقيقة أبلغ من كل الخطب والتعليقات .

الثاني : وضع الحادثة في اطارها العام ، وعندئذ تفصح بذاتها عن دلالتها .

مثال :

قدمت الصحافة الغربية اسرائيل على أنها نموذج للديموقراطية .

ولكن الاحداث برهنت على أنها كيان عرقي – ثيوقراطي ، يستخدم النصوص المقدسة لاغراض تسلطية ، في حين أن المجتمع العربي هو الذي يمشي بخطى حثيثة نحو العلمنة والاشتراكية .

فالمشكلة اذاً ، كما لاحظ المؤتمرون ، سياسية واجتماعية ، تزيت بزي ديني هو نفي لكل ايمان .

ان نقطة انطلاق المسيحي ليست اللاهوت . فهذا علم له ما لكل العلوم ، وعليه ما عليها بل هي الانسان في انسانيته ، نحبه ، لنتعرف

عليه . وفي نسمة اللقاء هذه تتكشف لنا ، بنسبة صفاء نيتنا ، الارادة الالهية ، وفيه أيضاً يضع اللاهوت مفاهيمه .

وبقول مختصر : ان ما نطلبه من العالم هو الموضوعية ، يعرفهـا أصحاب النوايا الطيبة ويعرّفون بها . فكما أن الايمان لا يستقيم الا بوساطة العقل ، كذلك العدالة لا تتحقق الا اذا استندت الى الحقيقة .

ماذا بعد ؟..

لاأكتم القارىء أن بعض محدثيي ، أثناء المؤتمر وبعده ، لم يخفوا عني تشاؤمهم، أهم أسبابه .

١ - التعارضات التي أثيرت اليها ، تبدت في المناقشات فجعلتها بطيئة ، أحياناً تراوح في مكانها .

٢ - مؤامرة الصمت ، أحاطت بهـا الصحف الكبرى المؤتمر فحجبت حقيقته عن الرأي العام . ولم تشر بعضها اليه إلاعرضاً . وقد وضعت لجنة حقوق الانسان بتاريخ (١٩٧٢/٩/٦) بياناً صحفياً ردت فيه على مزاعم التايمز اللندنية بشأن فاجعة ميونيخ وارسلته الى الصحيفة المذكورة فلم تنشره هذه . واصدرت اللجنة ذاتها بياناً آخر حول التهديدات الاسرائيلية فاقتصرت وكالةالصحافة الفرنسية على نشر مقاطع منه . اما الاذاعة البريطانية فاقتصرت على اخبار هامشيةقليلة . ولم تذكر سوى رأي السيد غبريل حبيب بشأن نتائج مناقشات لجنة حقوق الانسان .

٣ - استنكاف عدد من المدعوين عن الحضور ، مرده على الارجح الجو الملتبس الذي احاطت به الصحافة فاجعة ميونيخ، والحركة الفدائية برمتها.فلم يسهم من الشخصيات الانكليزية المعروفة في أعمال المؤتمر سوى اللورد كارادون (وزير سابق ومندوب سابق لبريطانيا في هيئة الأمم) ، والسر جوفروي فرلونج (سفير سابق) والسيد جون ريدوي (المـدير التنفيذي لمجلس الصداقة العربية - البريطانية) وغيرهم بعدد قليل ، وكان من المتوقع ان يكونوا أكثر من ذلك بكثير . وترأس أغلب الجلسات الدكتور القور كرادان من الولايات المتحدة الاميركية ، (سابقاً من اللجنة التنفيذية لمجلس الكنائس العالمي) .

٤ - حياد الرأي العام الانكليزي ، فلم يكترث سكان كنتربري للمسيرة الصامتة ، نظمها المؤتمرون في شوارع مدينتهم احتجاجاً على موقف اسقفهم الملتبس . ورد هـذا بصلاة أقامها بعض مساعديه في الكاتدرائية التاريخية ، وحضرهـا المؤتمرون ، وكان مضمونها عاماً يدعو الى السلم في العالم أجمع .

ولست شخصياً بجانب المتشائمين ، اذ أن زمن الأسماء الكبيـرة ولى ؛ فالرأي العام ، اليوم ، بيـد الشباب ، رأيت منهم عدداً لا يستهان به ، وكانوا اكثر فعالية وأثقب نظراً من سابقيهم ، سناً وقدراً .

ومن ثم فان الحواريين اللاهوتيين الشرقيين (الأساقفة خضر ، هزيم ، حداد ، الخ) وزملائهم من الغربيين ، بدد ، الى جانب الوهم اللاهوتي ، وهماً آخر أدهى ، هو الطائفية . فقد تبين للجميع أن الوطن العربي الذي يصفي رواسب الماضي ، يقوم على المواطنة والولاء للوطن وحسب . ويؤدي الى نتيجة ذاتها الحوار بين المثقفين العرب (عمار بن ثومي من الجزائر ،جوزيف مغيزل ، كلوفيس مقصود ، سليم نصر ، الخ) وأندادهم من أقطار العالم .

واخيراً ، فما الذي نتوقعه نحن العرب ، من مؤتمر كهذا ؟

نتوقع :

أولاً ، أن يفضح التزييف الصهيوني للنصوص الكتابية ، فيبرهن على ان المشكلة الفلسطينية استعمارية وحسب .

ثانياً ، ان يقف صراحة الى جانبنا ، وان يعرب عن موقفه هذا في نصوص مكتوبة تنشر على الملأ .

ثالثاً ، أن يكون فسحة تعقل وصفاء ، في عالم أحاطه الاستعمار بالتعمية . وهذا ماحصل فعلا بفضل الجهود الجبارة ، بذلها منظمو المؤتمر ، وعلى رأسهم جورج مونتارون وغبريل حبيب . فالتعارضات التي اشرت اليها كانت حول خطة العمل . أما الأصل فالنقاط السبع التي عددتها في مطلع هذا البحث ا نقاط صيغت بدقة مبينة ، ووافق عليها المؤتمرون بالاجماع دون أي تردد .

ويجب الاعتراف بأن صحيفة جورج مونتارون (الشهادة المسيحية) وقفت الى جانب الحق العربي منذ عام ١٩٤٨ ، وما برحت تتعرض لكل انواع الاضطهاد ، هذه الصحيفة هي ركيزة أساسية من ركائز أعلامنا في الغرب .

وياليت صحفنا تترجم بعض ماتكتب هذه الصحيفة .

ياليت اعلامنا ينقل نصوص المؤتمر — بعضها ان لم يكن كلها — الى أهم اللغات الحية وينشرها في العالم . فهي وثائق حاسمة .

ياليت أننا نعقد لقاءات عالمية يناقش فيها مثقفونا مع زملائهم في العالم التساؤلات التي يطرحها هؤلاء علينا :

وحدتنا في معطياتها ومقوماتها ومراميها
اشتراكيتنا ومااتجزئه
طريقنا الى الديمقراطية ..

* * *

ومع ذلك أتساءل : ماذا بعد ؟

الجواب سهل ، أما الطريق اليه فعسيرة.

الجواب هو أن العالم معنا بنسبة تضامننا، بنسبة وحدتنا ، بنسبة الثمن ندفعه فنستحق الوحدة .

ان الفداء بمعناه القوي ، هو استعداد كل منا — فرداً وجماعة — لبذل ماله واولاده ونفسه فداء الوحدة .

الحقيقة هي التي تحرر

وحقيقتنا هي الوحدة ننالها اذ ندفع ثمنها

فالموت هو الطريق الى الحياة .

وبعد ... الأمر لمن بيده الأمر ، وهو يحرر ، ولكن على كل منا أن يتحمل مسؤولياته .

بيان كنتربري

منذ ان انعقد في بيروت – ايار (مايو) ١٩٧٠ – المؤتمر العالمي الأول للمسيحيين من اجل فلسطين . ووضع الشعب الفلسطيني يثقل الوجدان العالمي . ففي الارض التي احتلتها اسرائيل ازدادت سياسة الاضطهاد تصلباً ، تأخذ شكل تهجير السكان وطردم ، شكل التعذيب والاعتقال . ومن جهة اخرى طعنت المقاومة الفلسطينية بقسوة – خصوصاً في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، وتموز (يوليو) ١٩٧١ . ورغم الصعوبات الحقيقية التي تعاني هذه المقاومة منها ، فانها ، بوصفها تعبيراً نضالياً عن الشعب الفلسطيني ، تواصل معركتها من اجل التحرير .

ان المؤتمر الثاني العالمي للمسيحيين من أجل فلسطين ، المنعقد في كنتربري من ١١ الى ١٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢ ، والوضع على ما هو عليه ، ليذكر مسيحيي العالم أجمع بالنداء الذي اطلقه من بيروت ، ويضيف :

١ – أن حق الشعب الفلسطيني في وجوده القومي وفي تقرير مصيره الذاتي على أرضه ، ذلك الحق الذي جرد منه منذ اكثر من خمسة وعشرين عاماً ، بالرغم من اجراءات دولية ودبلوماسية مستمرة هذا الحق ليطلبه اليوم الشعب بنضال ذاتي يتخذ أشكالاً متنوعة .

لقد أدى الظلم المدبّر عمداً منذ عام ١٩٤٧ ضد الشعب الفلسطيني ، والعنف الذي أصبح من مقومات الدولة الصهيونية ، الى الوضع الراهن ، حيث العنف الثوري الشعبي هو الجواب على عنف دولة من نموذج استعماري .

ان الأحداث الدامية التي واكبت هذا النضال لتثير القلق لدى الرأي العام الدولي . فما يجب ألا ينساه المسيحيون في البلدان الغربية هو أن السلم الحقيقي ، في العالم كله ، لا يمكن أن يشاد الا على العدالة وعلى احترام حقوق الانسان وحقوق الشعوب المظلومة والمستغلة ، وبصورة خاصة حق الشعب الفلسطيني .

٢ — ان تضامننا مع الشعب الفلسطيني ومناهضتنا الكلية الصهيونية ليند رجان في أفق انساني أوسع ، الا وهو رفض كل تمييز عنصري او ديني أو ثقافي ؛ وبخاصة رفض كل الأشكال الصريحة او الخفية للاسامية وللعنصرية المناهضة للعرب .

ويطيب لنا، علاوة على ذلك، أن نحيي بشكل خاص اليهود الذين يدينون بشجاعة الصهيونية على أنها خطر مأسوي على اليهودية . فعملهم هذا ينضم الى الهدف الأساسي للمقاومة الفلسطينية ، ألا وهو انشاء دولة ديمقراطية وعلمانية ، في فلسطين ، يعيش فيها معاً ، على قدم المساواة ، مواطنون من كل المعتقدات .

٣ — على كنائسنا ان تعمل جاهدة ، أياً كانت المناسبة ، من أجل العدالة والسلم في الشرق الأوسط . فانجيل السلام ، اذ يعلن أن إله ابراهيم هو سيد البشر أجمع ، يحرر المرء من كل تفرقة كما يحطم الحواجز كلها بين البشر .

ونحن ، اذ نعي متطلبات الانجيل ، نستمد منها قناعتنا ، لمصممون على دعم عملنا وتوسيعه ، داعين كافة المسيحيين الى الاسهام فيه .

الدكتورة نجاح العطار

وصفي القرنفلي ... الرفيف والبركان !

« لقد توهج القرص . طلع من أفق الشروق وتصاعد ، ثم جنح الى الغروب » .

« أيها القرص المنحدر عن قوس السماء الأزرق ، ماذا يغريك في أفق الغروب ؟ »

الصمت أحياناً عقوق !

ولماذا الأحباء والأصدقاء والقراء صمتوا جميعاً ؟

كل الذين غناهم وصفي أو غنى من أجلهم صمتوا ..

كأن لم يكن يوماً حادي المسيرة وسامر الندي

لم يكتب عنه أحد ، ولم يحاضر محاضر ولم يقدم لديوانه صديق .

أما النقاد فخارج دائرة العتب .. وأين هم في حياتنا حتاً أو كلاماً ؟ من تحدث عن البدوي أو وصفي أو أمثالهما من قمم الشعر أو النثر ؟ من قيم أعمالهم وحدد مواضعهم ؟ من تناول بالدرس تلك المرحلة التي فيها عاشوا ، وكانت دون ريب مرحلة مخاض حقيقي ،هي الى كل سلبياتها ،نقطة حاسمة في تطور الفكر والفن في سورية ..

كان حظ وصفي كحظ أمثاله من الشعراء أو الكتاب ، ديواناً يقلب صفحاته بين حين وآخر قارىء عابر ، ثم يمضي ..

* * *

عرفت وصفي، أول ماعرفته، من خلال ديوانه ، حين اسهمت في الاشراف على طباعته . الشاعر مريض ولا يستطيع أن يتولى هذا الامر بنفسه. ولكنه يرسل ديوانه مع توصية ، يرفض فيها أن تمسح الرقابة بعض كلماته ، او تخفف من حدتها، كيا تجد سبيلها الى النشر . وتحاوره فيقول : لا ، ينشر الديوان أو لاينشر ، ولا مساومة ! ويبقى الديوان معلقاً ، سنة أو يزيد ، يتأرجح بين الرفض والقبول ، وبعد جهود كبيرة ، يرى النور ، يرى النور .. بضع كلمات منه تمسح، تجاوزاً بها ارادة الشاعر، وعفوه، في سبيل نشر الشعر .

وينشر الشعر. به يكون صباح ويكون شروق..ومع الشروق،بعده ،يميل قرص نحو الغروب .. أيها القرص المنحدر عن قوس السماء الازرق، ماذا يغريك في أفق الغروب ؟

لا جواب .. الشاعر لايجيب ، يستشرف اللا نهاية ولا يجيب ، يودعنا صامتاً وينوس عليلا كالسراج الذي أوشك زيته على النضوب. يظل وحيداً في مأساته كما كان وحيداً في حياته، كأنما قدر وحدته بداية ونهاية، وكأنما قدر وحدته بداية ونهاية ، وكأنما لم يكن ذاك الذي يرود للركب المجهول ، ويسبق قافلة العطاش .

كذلك تعم الاشياء في شرقنا . « الذين يمنحون الرؤية للناس » كما قال ايلوار ، لاتشملهم الرؤية ، تسدل عليهم ستاراً من النسيان ، وفي الظلمة تظل عطاءاتهم ، أما حياتهم ومنها شعرهم ، فقلما تكون موضع اهتمام .

ولو ان حياة وصفي القرنفلي كانت هي الموضوع ، لكانت بذاتها موضوعاً . انما اتكلم الآن ، فقط ، عن شعره .. عن عطاء هذا الذي ظل حياته موظف مساحة صغير ، يجوب الارض أشعث مغبرا وحيداً ، لا أهل ولا صحاب ولا رفيق ، يشتهي أن تشرق الشمس يوماً وهو في فراشه .. الغربة ملء نفسه ، واشواقه ابداً تتسامى ، وسيان أظلم الأفق أم أشرق، فهو لا يكف عن الغناء

بل عن الحداء ، النور من نفسه ينبع ، وظلمات الحاضر أتفه من أن تحجب عن عينيه المستقبل .

اتهموه بالكبرياء والصلف ، وفرط الحساسية ، ولقد كان في الحق متكبراً صلفاً كما يبدو من شعره واخباره ؛ مرهفاً الى حد المرض ، ولكنه الى ذلك ، كان محباً الى حد التفاني ، مرتبطاً بالشعب وبقضاياه وأرضه ارتباطاً ذاتياً اصيلا ونادراً .

لم يتعلم المساومة ، ولم يفهم منطق التنازلات ، وقد تعود أن يجابه الاحداث باعتداد البدوي الذي ينبع عنفوانه من ذاته بحكم طبيعة ظروفه .. يطل على الحياة من مستشرف ، أكبر مما حوله رغم تعاطفه مع ما حوله .

لمن عايشوا وصفي أن يتحدثوا عن حياته وتفاصيل مواقفه ، أما أنا فقد تبدى لي ، من خلال شعره ، رؤيا من الحنان والنضال ، ضمن اطار من الحب الكبير والتمرد الكبير ، عاشها باعنف مايعاش ، وجسدها في قصيده بكثير من الحرارة والبساطة ، وبايمان لايتهم بالانسان ، بالغد ، بالمستقبل .

« الليل يقسم لايحول
وتقسم الانسانية ان تشق الليل ، وتخط الصبح
والشعار واحد
في سبيل الحرية ، نحو غد أفضل
كم خطونا ؟
اننا نسير ، غداً نصل ..
آمنت بالانسان ، آمنت بالصبح »

تلك هي على مدى الديوان الرؤية التي عاشها ، ومنحنا إياها .

* * *

في بداية الاربعينات استقام لوصفي الشعر ، واستمر بعد ذلك ينشد الى مشارف الستينات وتلك مرحلة من حياة الادب في سورية يجب ان نستعيدها من منطلقها الخاص، وضمن اطار احداثها السياسية ، وتطوراتها الاجتماعية والثقافية ، وارتباطاتها التاريخية . قبل الاربعينات ، كانت المرحلة مزيجاً من امتداد الماضي في الحاضر ، مع محاولة لتخطيه ، تحمل في طياتها كل تلاوين المهادنة والخصام ؛ ومن الاستغراق في هذا الماضي الى مستوى العطالة تقريباً .. وقد خضعت حركة الادب والشعر بسل والفكر في معاتها العامة ، لسلطان شوقي وحافظ ، ومجلة «الرسالة» و«الثقافة»، وما شايعهما من التيارات التي نشأت وعاشت في مصر ، وبسطت نفوذها بعد ذلك ثقافياً في الاطار العربي الأوسع ، ومثلت الريادة بالنسبة لمعظم المعنيين بشؤون الكلمة .

أفق الابداع لم يكن أكثر من مخايل ، وسلطان التقليد ، بشكله الاكثر عفوية ، والاقل صنعة بالطبع – كان هو المهيمن ،

والعمل العبقري هو ذلك الذي يجسد «فصاحة» النتاج الكلاسيكي ، ويقرب بروعتـه من « النموذج » القـائم في ذهن المثقفين لشعر المتنبي وابي تمـام من قبل ، ولشعر شوقي وحافظ من بعد .

وحتى أولئك الثائرون على الماضي ، المتمردون عليـه ، لم يكن بمقدورهم ان يكسروا طوقه أو أن يتجاوزوه ، شتموه وعاشوا ضمنه في معظم أطره .. ولم يبلغ أبداً مدى الظن عندهم أو الوهم ، أن يغيروا جذرياً من آفاق الرؤيا ، وبالتالي من تلاوين النغم ، فالتعبير عن الحيـاة التقليدية لايمكن أن يكون إلا تقليدياً ، وأسار الماضي يظل أكثر سحراً ، في مثل تلك البيئة ، من حرية الانفلات وابداع الجديد ، وأقل عناء كذلك .

غير أن هذا الوضع السلبي الراكد ، على اعتاب التاريخ ، لم يكن قابلاً للاستمرار ، لأنه يخالف منطق الحياة ومنطق التاريخ أيضاً .. كان لابد للأجيال الـتي ولدت في معارك الاحتـلال والاستقلال ، وعاشت المأساة ، من أن يكون لها أكثر من رأي ، وأكثر من مطلب ، ومن أن تكون أيضـاً أكثر ايجاباً وتمرداً وثورة .

وفي الاربعينات غدت الأحداث أشد حسماً ، والتفاعل معها أوثق ، واتقد الجمر تحت الرماد . كانت النقلة جريئة والصورة رائعة ، والعراك على أشده في سبيل طرح المخلفات وتخطي البلادة ، وفتح الكوى . الحياة بدائية وساذجة ، ومن قلب السذاجة والبدائية ، من الأرض البكر ، ينبعث النداء ويهتز التاريخ . العالم كله يمور ، والحرب تيار جارف ، لاتجتاح أرضنا ولكنها تفجر فيها الف اعصار . الأجيال تشعر أنهـا في سباق ، والأرض مستعبدة ممزقة ، والفكر متخلف والحيـاة ضيقة سبلها ، والظلام الاجتماعي حالك ، والمؤسسات السياسيـة قاصرة ، والعداء أشد قهراً بين أبنـاء البلد الواحد ، ووصفي مع أقرانه ، مـع كل الطامحين الى التغيير ، يخوضون معركة ...

غير أن المعركة تظل أبداً غيرمتكافئة .. الثقافة اكثر من شحة ، كتاب من هنا وكتاب من هناك ، وفكرة من هنا ،وفكرة من هناك . تراجم سيئة لنتاج بدأ يتخلف، وطبعات أسوأ لبعض كتب التراث ، والهوى السياسي يلعب اكثر من دور ، وما يريده الاتباع يكون ، ومن خلال هذه المزق يجب أن يحدث التطور ..

لابأس..فالنزوع الى الحرية هوماسيكون سمة المرحلة في نتاجها الفكري والأدبي .. كل سيحمل مصباحه ، سينضج ثورته من اعماقه ، ومن تفاعله مع بعض ماقرأه خلال ذلك . صراخ في اكثر من اتجاه ، تلاق على الهدف وخلاف في الطريق ، الأرض تستلب ، والمعركة هزيمة ، وفلسطين لاجئون وخيام .

على اللوحة ألوان فاجعة ، والواقع يعبر عن نفسه باحداث انعطافية في الحياة السياسية والفكرية .

أما الخمسينات فاحزانها اكبر ، وخطوطها أوضح ، والتراث العالمي أقرب تناولا ، ومحاولات التخطي اكثر جدية .. بلادنا تتحضر والتعليم ينتشر ، والوعي يزداد ، لكن الأرض غير راسخة تحت الأقدام ، والمواقع تتبدل ، وكل ما يسهم في المعركة يبدو حائراً خلالها .

ويكون الشعر أشد حيرة .. هو في المعركة وليس فيها . يتحدث عن هند ودعد ، وهند ودعد امومة معذبة واحساس بالعار لاينتهي .. يتغنى على طريقة امرىء القيس والصحراء عاصفة تذهب بكل شيء ، يحاول ان يشق طريقاً جديدة واللحن لايهدر في صدور الجماهير ، القافية والخليل جزءان أساسيان من التراث ، من الحداء ، من الخطابة من نداء الحرب .. وبعض شعر الطلائع في مصر والعراق ولبنان ترف لم يفهمه الجمهور ، ولم يفتح له قلبه . أحبه الخاصة فقط ، ورأوا فيه مخايل المستقبل ، ولم يستجب له حتى المناضلون على الصعيد السياسي .. وكان للهزء والتظرف على أفواه معظم معلمي المدارس الذين لم يدركوا ابعاد التجربة الحقيقية ، ولم ترتسم في اذهانهم منها رؤى الواقع الصادق الذين يعانون ، بالوانه التي ما يزال التعبير قاصراً عن رسمها .

* * *

وفي حمص ، في بيئة ضيقة اقرب ماتكون الى الانغلاق ، كان شاعرنا يعيش ، في قلب المعركة وعلى تخومها ، بدويا في الصميم من صميمه ، في فكره ثورة ، وفي سلوكه تمرد ، لولا ان التاريخ على كاهله عبء والتخلف عبء والاستعمار عبء والتطلع الى الابعد الأبعد عبء .. وعليه كما على الآخرين ، ان يحمل هذه الاعباء ، ويحفر باظافره مسالك على الصخر .

وانها لمأساة كبيرة ان يعيش الانسان — والشاعر خاصة — في عهد الهزائم السود ، والارهاصات والتناقضات ، وانها كذلك لمأثرة . وتلك كانت في المعطى الحياتي والشعري ، مأساة وصفي ومأثرته .

واذا كنا نستطيع ، بالنسبة لكثير من شعرائنا الذين خطبوا شعرا ، وتناولوا ، من الخارج ، قضايانا ، ان نفصل الشاعر عن الانسان ، فان الأمر بالنسبة لوصفي ، جد مختلف ، وصفي استغرقته هموم النضال ، وعناه الانسان وطناً ومجتمعاً وقضية ، فرفض شعر العموميات التقليدية ، ولم يشأ ان يكون شاعر الرؤى الفائقة ، بل لم يكن بمقدوره ان يكون . هو مرتبط بالانسان والانسان عنده الاسمى . وهو ابن مخلص للحياة ، وجذوتها تتقد في رؤاه ، ومن هنا كانت عذاباته ، ومن هنا كانت عظمته ايضاً .

عاش الاشياء كلها في نهاياتها ، كبيرة قدر

ماهو كبير ، يستمد من ذاته ، ويستشف الوجود ، ويقارع الاحداث ، ويطلق بعد ذلك اغنياته .

في المعركة هو السلاح ، وفي الطبيعة هو عبق الارض ، وفي الحب هو وحده الذي يحيا في منطقة الشفق .

ومن تقاطع هذه الخطوط الثلاثة ، وفي اوج حدتها وكبريائها ، النضال والطبيعة والمرأة ، تبرز شخصية وصفي في ملامحها الاصيلة المميزة .

كل من يقرؤه يحس انه في اللهب يعيش ، يحرق ويحترق ، ولكنه يحس ايضاً انه ينطلق من قضايا اساسية واضحة في رؤاه ، والى ابعد حد . قد لاتأخذ شكل المنطق او الحوار الفكري ، ولكنها بصدقها وعفويتها ، وتمثيلها لمنازع الحرية . قوة تثق بقوتها ، وتخاطب ماهو صميمي ، وتوقد في الاعماق شعلة مقدسة .

ان وصفي المؤمن بالارض ، بالانسان ، وبالحب ، مؤمن ، والى مدى بعيد ، بالشعب ايضاً ، ومن هذا الشعب بكادحيه . وقضية النضال عنده لاتتجزأ ، الاحرار في كل مكان يناضلون من اجل الانسان ، والاحرار في كل بلد يناضلون من اجل حرية بلدهم وكرامته والمنطلق واحد ، والمعركة واحدة ، وبعدها الحقيقي هو انا وانت وابناء الانسانية جمعاء .

ولئن كان الواقع السيء ، يصدمه في احيان كثيرة ، فقد كان يرتكز على ارض صلبة ، ويعرف كيف يتخطى اليومي والزائل من الأحداث ، ليرى عبر الواقع الهزيل ، والهزائم المتواصلة ، ومن خلال احساسه بذاته ، وقدرته على استدعاء الماضي ، المستقبل الأصدق والأروع . انه يريد ممن حوله ان يتجاوزوا السطحي ، وان يعرفوا واقع امتهم الحقيقي ، وان يتلمسوا في اعماقهم المغلقة المظلمة ، اشراقات الاصالة ، كي تكون دعامة لهم في نضالهم . ولم لايكون الأمر كذلك ؟ ألسنا ، اذا أوجزنا تاريخنا ، بقايا السيف ؟ ألسنا الشآم ؟ وان صحراءنا شعر ، وامجادنا خمر ، ونحن الحياة الام والأبد . أما واقعنا المرير وتخلفنا القاسي فوضع عابر لايدوم ، وما منه نستمد روح الثورة .

وهكذا كان ارتباطه بالشعب عميقاً متأصلاً ، يستشعره وتتشكل منه رؤاه . الشعب عنده معنى الخلود ، وفيه معنى الكائن السرمدي ، وايمانه به يكاد يكون بلا حدود . بيده القياد ، وتطوير خطوط الحياة . بيده ان يصنع المعجزات ، وان يتخطى كل مارسم له من آفاق .

يبدع الشعب معجزات فيغضي

كل عرف ، ويؤمن المستحيل

واذا كان وصفي مرتبطاً بالشعب ، فان انتماءه الحقيقي هو ، كما اشرت ، للكادحين من ابنائه ، واقعاً لا كلاماً ولا تظرفاً ولا اجتراراً لعبارات يلوكها معظم الناس .

انا للكادحين منهم وفيهم
سل جبالا ذرعتها ، سل سهولا
بي من البؤس ما بهم ومكاني
بينهم حينا تولوا سبيلا
كلما انت الجراح هتفنا
دربنا الدرب أو نخط الوصولا

واذا كانت ايجابية النضال في الظروف العصيبة لا تتجلى في الاسهام الصغير باحداث سريعة عابرة ، يستلم بعدها « المناضلون » لاخيلة سوداء، تقنعهم انهم فعلوا ما لا يفعل، وانهم سيتربعون من بعد ، او يجب ان يتربعوا ، على عرش الخالدين ... فان الكادحين من الشعب هم الذين يمثلون ببساطتهم ونبلهم ، خط الكفاح الحقيقي الذي لا يهن ولا يكل ولا يمن .. الكادحون عند وصفي هم أبداً على الدرب «دربهم الدرب» لايكلون ولا يتململون .. انهم متعبون ، مثخنون ، جراحهم تئن، غير ان صورة الصباح القريب، تشرق في نفوسهم أبداً .. كل ما يريدون وطن حر وشعب آمن سعيد . القيود تحول بينهم وبين تحقيق ما يريدون ، غير ان الامل قريب بوثبة كبرى ، يطأ فيها الشعب قيوده ومستعبديه ، ويحقق مطامحه .

الشعب خصاب سخي الدم
الشعب تجسيد لمعنى الخلود
ان حد هذا القيد من شوطه
فالوثبة الكبرى غداً يا قيود

والسجن والتهديد به ، لا يمنع الاحرار من مواصلة النضال ..

الثورة عند الشاعر امر واقع، في الداخل، وفي الخارج ، في مناهضة الظلم وفي مناهضة الاستعمار ، في سبيل حياة اكرم لأمتنا ، وحياة أفضل للعالم .

الشعب لن يصمت طويلاً ، وقد أقسم فتياتنا الأحرار « الا يسيروا في لواء الظلام» وانه لطبيعي ان يتذكر الشعب، وان يثور.. وهو يحضه على ذلك ، فالذاكرة القصيرة في مجال النضال هزيمة .

الشعب لاينسى ، معاذ الحقد ، ياشعبي تذكر .

ولندع جانباً أولئك الذين آثروا وسادا في الظلال ، ولنسر مع الذين كشفوا للموت صدورهم ، وابتسموا للنبال .

على الارض موعد ، كما يقول وصفي ، وفي الشارع موعد ، ولنا مع الطغيان موعد.

لا فما شعبي بمستسلم
كلا ولا شعبي بمستعبد
أقوى من الموت تجاليدنا
إن يسجد الفولاذ لم نسجد

وإذا كان يؤمن بان الثورة واقعة لامحالة، فانه كان أحياناً يستبطىء المسيرة ، ويرى في الصمت العار . الذل اتخم الناس ، والتماسيح تجتر دماء الشعب ، ومن أجل ذلك يهتف بالشعب ان يثور بجلاده ، وأن يحطم قيوده

وات يتكتل وينهض ، ويفجر في الشرق الاعصار ، فقد تجاوزت «الأرباب» الحدود المحنت الرؤوس ، فسلبوها حتى الرغيف ، وجعلوا من الأحرار عبيداً لهم .

لاسبيل إلا الثورة ، ولا معنى الصبر إلا أن يكون جبناً . يحتج الناس بالضعف ؟ كلام مرفوض .

رب ضعف ، إذا تكتل في الأفراد ،
يرتد عاصفاً جباراً

الحكم للشعب ، وكل حكم ليس له دعي
لقد أزف الفجر ويجب أن يصحو النائمون..
وحنت الأرض السلام والطهر ويجب أن نغدو نحن المنار . . .

كان وصفي يؤمن بالشعب ، وبالغد ، ويبصر عبر الظلام خيوط النور ، غير أنه، الى ذلك ، كان يعرف مواطن الضعف ، وزوايا الانحلال ، وتؤلمه أشد ماتؤلمه التفاهات واللاأخلاقية التي تسهم في تزوير الحياة، وعرقلة النضال وكذلك نقيق المثقفين، والعنتريات التي تلد أبطالاً على الورق، وتدفن أبطالاً في الورق ..

أمة الكلام اتقنت صناعته ، وبئست من صناعة .

تب سحر البيان ينهض بالص فيجلوه
فاتحاً مغواراً

وثورة الشرق تراها تكون :
ثورة اللفظ طارت
صوراً حلوة ، وطابت بهارا؟

الشاعر يسأل تقولون ؟ ربما ، وربما يتنبأ أيضاً ، فما أكثر الأقنعة في كرنفال الأدعياء !

وسيكون الجواب على هذا السؤال عسيراً، وقد يظل عسيراً ، غير ان النضال وحده هو الذي يحمل معنى الحسم. ولئن سقط أحرار على الدرب ، فما يزال هناك احرار يقاتلون وقد نذروا أنفسهم لموعد قريب .

موعد نلتقي مع الصبح فيه
يوم ينقض شعبنا اعصارا

ولئن كان ثمة صمت ، فليس معنى ذلك انه الموت .

رب صمت تخاله الذل اغضى
كان صمتاً ، كتنف النارا ..

وليتغن بعد ذلك أولئك الذين شيد السوط مجدهم ماشاؤوا !

وليفتن سادة العروبة والتاريخ باللغو والتنميق والتزوير !

فقد شهد التاريخ من أمثالهم كثيرين ، وكان الشعب دوماً هو الأكبر والاقوى .

كان الشاعر في تلك المرحلة ، يعيش في جو عاصف . في الداخل معركة، وفي الخارج معارك، على الطغيان ثورة، وعلى الاستعمار ثورات، الاستعمار حلف، وشعوب الارض جميعاً

حلف .. والاحرار أينما كانوا ، طلائع ثورة وبشائرها.. أقسموا أن يردوا للانسان حريته، والهزيمة للاستعمار وظلامه الى الجلاء، وفتوح الدولار ستطوى .. الثورة ستدرك الظالم وترعد في الشرق .. ستمتد كالنار ، وتأتي على ملوك الدولار ، آلهة الارض ، على الذين كان عرق الشعب عطر لياليهم .

نضال الشعوب على اشده، في كل منعطف زئير ، ولهيب النفير كثر . والعرب ومنهم وصفي ، مادورهم في معارك التحرر ، وأين هي مواقعهم على درب النضال ؟

انهم في الطليعة ، انهم المنطلق ،
ومنطلق الاعصار ، ان م شعبنا
رويـد الاباء اليعربي يفجر

الشعب العربي لا يـذل ، والعبيد ليسوا منه . وهو لايسجد لطاغ بل يحمل الجراح وساماً ويتـابع المسير ، ويخسأ السوط ، والملوح به .. وتتقدم المسيرة ، ونكون أنى سرينا ، الحب والخصب والصبح ،

عرب نحن ، والعروبة انسان شريف ،
يستنكر العدوانا
كل تاريخنـا انتفاضة أحرار ، وشعر
يستصغر العبدانا
كلما هم فاتـح ، او غزانا
ضاع في السفح واستطالت ذرانا
لانبـالي حـكامنا والحواشي
نحن في الشعب . قد خزنّا قوانا

وفي الاطـار العربي ، ناضل وصفي ضد المعاهدات ، وهـاجم المؤامرات التي كانت تحاك لبلده، ودافع عن الشام التي أعيت على الغازين . انغمس في الحدث ، ولكنـه رأى وراءه البعد ، رأى الصورة الأصدق، صورة الأمة التي لا تستسلم ، ولا ترضخ ، بكل أصالتها وطيبتها وكبريائها ..

الغرب يحشد الجيوش ولكن النصر ليس له !
والدولار يلوح بالوعود ، وما أشبهه بالسيف يأتي الى النعجة فيحدثها عن مرجه الأخضر، عن الظـل والماء .. العرب لن يصدقوا ، سنحمي الحدود ، وندافع عن الارض، وننشر المحبة ... استصرخ وصفي العالم العربي، نادى لبنان والعراق ، ومصر والاردن .. دافع عن الاردن وبغداد ضـد الاحلاف ، هتف بكل حرارة العروبة .

عرب نحـن لن نكون لغـاز
أي غاز (واليوم) بعض الشهود..
لن نكون كذلك العملاء والمرتبطين
لسنا لبغداد ، بغداد السعيد ومـا
كان الاذلاء، في التاريخ، من عرب

وفي انتفاضة الاردن الاولى كان يغلي حماساً ، فقد تحول الناس من متسولين على الارصفة الى ثائرين ،
بانداء الرفاق يرعد في عمان ، طربا..
لولا قيود الحدود
ولثمنا جراحكم ، وعقدناها وساماً .
للمجد ، كالعنقود ..

الشعب تمرد وثار بالذين تربوا في معاهد الذل، والشداء على كل لسان : يا لثارات شعبنا ولعيفيه .. وكل ذلك بالنسبة لوصفي حلم اخضر يهزه من اعماقه :

نشوة في دمي . اذا قلت شعبي

وانتفاضات كبرياء قصيدي

الاردن يثور .. والعراق كذلك . كيف يظل اللصوص اسياداً للشعب ؟ حلف بغداد يقوض، وينتصر الاحرار، وتُغلّ الخيانة :

طلعت ثورة العراق صباحاً عربياً غضاً

نقي الظلال

وحدت ثورة العروبة في الشرق،

ومالت بالغرب نحو الزوال

وينحسر المد، ويقهر الاحرار اكثر من مرة، ويتساقطون على الدرب، وتنتاب وصفي موجات من اليأس والتشاؤم خلال ذلك، ويتصور الارض خالية من الكرماء الطيبين، ومن المصلحين الصادقين .. الكل يسعى وراء النفوذ والمال، والاصلاح سلاح في المعركة يسخر للمصلحة .. ويمعن به يأسه فيهجو، في لحظة عابرة، الناس جميعاً، ثم يعود بالملائمة على نفسه، لأنه عتب على غيره، ولم يعتب ؟ ولم يلوم ؟ هل يستطيع أن يسمع الحجارة ؟ سيطل من سمائه على العالم، وسيعرف كيف يرى الكبار صغاراً، ويشتط في الهجاء حتى يخرج عن حدود مثله، ويبلغ حد الانعزال عن العالم فيقول :

دنياي بي، وانا بها، مابيننا

وقد امتلأ موضع النـــاس

وما أغرب أن يقول وصفي هذا الكلام، وصفي الذي يتخطى في لحظات، كل الحواجز المفروضة، لينتصر للانسان، وليعتبر الارض الكبيرة وطنه الكبير .

وطني – ان سألت ماوطني – الانسان

والأرض، لاعروق ولا حد

الحب الكبير ترافقه خيبات كبيرة، وعلى قدر الايمان يكون أحياناً التشكك ..

ومن هنا نفهم بعض شك وصفي بالتاريخ، وهو الذي يؤمن باصالة العربي ايماناً كبيراً :

انا، يا كتب، كافر بك، بالتاريخ طراً

وبالأسانيد ساخر

اذا قسنا في نظره الماضي على الحاضر، والحاضر على الماضي، فلا سبيل للايمان بكل ما يقول التاريخ :

كم ترجم الزمان عظيماً

مثل الشبه لي عظيماً معاصر

الأزمة عميقة، واذا كان يتخطاها باستمرار، ويظل على ايمانه بالغد المشرق، فانه كان مصمماً على وجوب ابراز الاخطاء وتعرية الادعياء، وبشكل خاص، اولئك الذين يطلون على الناس في هالة من الكلم الجميل، ووشاح من الثقافة « البراقة » .

شد ما يذهله ، ويذهلنا معه ، ان تسقط الكلمة في سوق النخاسة ، وان تغدو سلعة ، تتهاوى على الأقدام وتتمسح بالاعتاب

ياويح للقلم الأجير ، وويح للأدب المزور

ياويحه عصراً فعصراً الى انقضاء العصور ،

والهتفة هنا ليست لعنة عاجزة ، انها ادانة، حكم في تاريخ الادب يبلغ في قوته مستوى الأحكام التي صدرت في التاريخ السياسي على الذين خانوا بلادهم وانفسهم. قصيدة وصفي ، «قلم للبيع» متفردة في شعرنا العربي ، قديمه وحديثه، وقد تكون كذلك، بموضوعها في الشعر العالمي . وما نزال نحن نتحسسها بجدة ، ما تزال معاصرة، منغمسة في صدور المثقفين المتاجرين ، تشهد عليهم ، وتلاحقهم ، وتلج بيوتهم !

من يشتري القلم المنضر ، حلو الرفيف ، تقول جوهر

فيه حبر من كل لون ، متقن كالأصل ، لا يشف عن زيف ، وفي سوق البيان هو المجلي ، أخضر كالربيع ان شئت ، وان شئت كان أحمر . حاضر البديهة ، يتقمص كل رأي .. ان لم ترد شراءه ، فبامكانك ان تستأجره ! وبمقدار ما تدفع يخصب ، وخبرته في الدعاية كبيرة ! يلوك اللفظ والافكار، ويمسح الخيانة بالبطولة، يخدر .. يخدر .. ويا ضيعة المخلصين المصدقين ، ويا ضيعة المضللين . الشباب هم مادة هذه اللعبة،

هل رأيت امة تضحي، واعية او غير واعية، بشبابها الجاد ، على مذبح التزييف ؟! ..

يا رحمتا لدم الشباب ، يحول ألفاظاً ، ويهدر ..

رسالة الكلمة الشريفة الصادقة ان تقف بالمرصاد للكلمة الدعية المنافقة ، ومهمة القلم المكافح المنغمس في جراح القلب ان يحارب القلم الاجير ، ويفضح زيفه . ووصفي هنا يحمل هذا العبء مستعيداً ايمانه بالصبح القريب .

السيل .. أنصت ، هل سمعت دويه ؟ السيل .. فاحذر

اني اراه ، كما اراك ، يجيش اعماقا ، ويزأر

وبكثير من اللهفة والحنان والاسى والقلق يهتف ؛

ياشعب ، ياشعبي.. وبعض القول، لايحكى فيضمر

وهذا الاسى وهذا القلق مبرران في اللهفة المعذبة لشاعر مناضل . ولن نزعم ان وصفي وحده كان هذا الشاعر المناضل ، ولكن الذي يميزه هو ان شاعريته وحماسته تتوازيان على مستوى الكلمة والشعور .. وبمقدار مايعمق احساسه بالاشياء، يصدق تعبيره عنها تعبيراً متوتراً مكهرباً ، يملك قدرة خارقة على خلق جو من المشاركة . واذا كانوا قد قالوا قديماً اعذب الشعر أكذبه ، فانني أجد،

من خلال وصفي ، ان اعذب الشعر أصدقه. النفوس تتعارف وتلتقي خلال كلمة تشف حتى تغدو شعاعاً، وكذلك كانت كلمات وصفي في عنجهيتها ، وبداوتها ، وتركيزها ، وفي طاقتها الكبيرة على رسم الصورة ، وسرد التاريخ، واستثارة الشعور، وفرض الموقف:

وتغنوا بمجدهم يالمجد
شيد السوط ركنه والجدارا
ايه ياشعر ! قل لهم . . رب قول
في فم الحر ، ينتضى بتارا ،
في ثنايا التاريخ ، منكم ، كثير
كم يضم التاريخ مجداً عارا

وما أكثر مايحدث السوط هنا من أحاديث، وما أكثر مايترك في نفوسنا من أصداء. والمجد العار ، قدرنا، أليس آهة كل فرد منا تحولت الى جزء من قصيد ؟

الفكرة وحدها لاتصنع الشعر ، والعاطفة كذلك لا تكفي، وشعر النضال قد يبقى شعر مناسبة ينتهي بانتهاء ظرفه . أما شعر وصفي فقد تخطى بقنبلته الحدث الزائل ، وارتبط شعورياً بمسارب الذات ، وتحول الى جزء من عاطفة أسمى، تمثل ارتباط الفرد بارضه وأهله ، وماضيه وحاضره وذكرياته، ورؤى مستقبله ، في بيان مشرق، منبعه الصحراء ببساطتها وأصالتها ورحابة آفاقها ، وبهاجرتها وقسوتها وقوة شكيمتها ايضاً .

رب صمت تخاله الذل اغضى
كان عمقا ، يكشف التيارا
ودجا الليل، لاترى قبساً،
وغاض الكلام ، الا سرارا . .
صبغوا بالبيان سود الدياجير ،
فحالت ـ اما تراها ؟ ـ نهاراً

وصفي وحده، قادر على أن يضع قارئه ضمن الصورة ، محاطاً بألوان الموقف ، متحسساً انفعالات الشاعر . الهمس يدور ، ونكاد نسمعه، والظلام يلفنا من كل جانب. تجربة الشاعر تنقلنا الى جوه . والبيان ، ياويح البيان ، يزور مرة أخرى ، ويحول بطلاوته ، الليل الى نهار .. والسخرية المرة، تنساب عبر تساؤل قلق عابر - أما تراها؟ - وتغيب في طوايا الكلمات ، حيث تستحيل الى موقف شعوري ذي أبعاد . والقوى المخلصة تعمل بصمت ، وتتجمع بصمت ، ودونما هدير ، يغدو التيار ، اشد كثافة ومجراه أكثر عمقاً ..

كان وصفي يخاطب بشعره جيلا لم يفسد بعد ، ويتحدث اليه حديث الرجال الى الرجال .. لم يكن يعنيه اولئك الذين يحملون ملامح الأنوثة في النظرة والحركة والاحساس ، فهؤلاء لن يكونوا من المناضلين .. ومن اجل ذلك كان يعبر بصراحة ، وقوة ، وبساطة ، وواقعية هي بنت التجربة الحية . لم يكن يزوق ولا

يحتال . يرسل شعره كلاماً مقطعاً ، مكثفاً ، متوتراً ، حاداً ، وكأنه الطلقات ، عبر رؤية مشرقة ، متكاملة ، مترابطة ، من البيت الأول الى البيت الأخير . وحين يضيق بـه الصدر ، ولا تستوعب الصورة المدلول كله ، ولا الشعور كله ، كان يلجأ الى الرمز ، لا يعني عنده حذلقة جمالية ، بل يعني كثافة في المعنى ، وكثافة في الشعور ، تنتقل الى القارىء عبر نغمات فيها البسالة وفيها الحنان .

وهل أجمل من هذا النداء ، واكثر ايحاء ، وأشد حرقة :

يا شعب ، ياشعبي ، وبعض القول لا يحكى ،
فيضمر ..
بل كل القول ، أحياناً ، لا يحكى ..
فيضمر !

العبارة المشحونة المكثفة ، والصور المتلاحقة المتتالية ، والكلمة التي توحي بأكثر من فكرة ، والمشهد المتكامل ، والعواطف التي تفيض بها النفس ، والألوان التي ينسرح معها البصر ، والخطوط التي تتقاطع ، ثم تتوازى ، وتعود فتتقاطع ، ترسم آفاقاً بلا حدود ، هي بعض ما يميز شعر وصفي النضالي ، وهي بعض ما يجعله الصق بالقارىء وأشد تأثيراً واثارة .

آجفل الصبح ، اذ تلمظت النار ، وكادت
تمسه ، اجفانا

م بالورد ، يلثم الورد ، اشفاقاً ، وضناً ،
ويحضن الريحانا
لاترع ، ياصباح ، باسم شعوب الارض ،
افرش دروبك اطمئنانا
نحن ياصبح للحضارة تذكيها ، وللارض ،
تستحيل جنانا
نحن ، للعلم ، والحياة وللاداب والفن ،
اشرقت ايمانا
غدنا المشرق ، الصبيح ، انطلاق يوقظ
الارض ، يطلق الامكانا

* * *

سل بنا الدرب ، هل سجدنا على الدرب
لطاغ ؟ وهل عرانا افول
قد حملنا الجراح ، فهي وسام ، لايسامى
والنور ، فهو الدليل
يخسأ السوط والملوح بالسوط ، يميناً
بشعبنا لانحول
ان مضينا ولم نذق فهنيئاً .. رب جيل
يبني ليسعد جيل ..

ونسأل مرة اخرى ، كيف استطاع وصفي ان يطرح في شعره همومنا ، وأن يكون لساننا وضميرنا ؟

والجواب واحد ، لاسبيل الى غيره : لانه كان صاحب قضية . ذلك ان الشاعرية وحدها لاتكفي ولا تفسر .. كانت لوصفي قضية هي قضية شعبه ، وكان صادقاً في ايمانه بها ، يعيشها ممارسة حارة عنيفة ، من

خلال واقع يومي بائس .. لم يكن نظاماً ، ولم يكن مغنياً .. كان انساناً ومناضلا وشاعراً ، همه أولا وأخيراً ، ان ينتصر للانسان ، وان ينطلق به اشواطاً على درب الحرية .. وقد فعل .

* * *

المرأة ، وقل نشيد الأناشيد هي . ليست لغزاً ، ولكنها في معجزة تنوع الخلق هي المعجزة . وفي الشعر ظلت فيضاً له فيض ، من الأزل والى مابعده ، أزلا أزلياً .

غير ان المرأة، وهذه صورتها في التنوع اللامتناهي، قد تبدت في شعر اكثرشعرائنا، صورة جاهزة ومحدودة ، الجنس تارة ، والعاطفة العامة تارة اخرى ، هي شكل للانوثة ، وأداة لدوام الحياة ، ومتعة ، أو هي قصة حب طويلة ، ومأساة حرمان ،هي بكلمة اخرى ، القديمة والغانية ، ولكنها ، على كل حال ، مادة شعرية ، غدت تقليداً يمارسه من تعنيه حقاً ومن لاتعنيه .

أما عند وصفي ، وكما يبدو لي ، فقد كانت نقطة الملتقى في المدى النفسي . هي الحياة ، وهي سر الوجود المحسوس ، هي الحدس والرؤيا ، ونيسان وأشواق الربيع، ورعشةالخلق.. هي الطبيعة والحلم ، والهداية والغواية،والاستمرار المشرق واقعاوتجريداً.

ومن وراء الصور الحسية في شعره، من وراء الصفات المادية المعرفة أحياناً في ماديتها ، ترتسم لوحة ، وتتجسد في هذه اللوحة خطوط وآفاق، بعض الوانهاالشفافية والصوفية والجنون ، والامومة فيها معنى وسر التكوين معنى ، والظمأ الانساني الذي لايرتوي ، عبر المسيرة الطويلة ، وومض سراب ، يلوح في كل خط ومع كل لون . الحياة والحب والطبيعة معان متداخلة في الحان الشاعر ، توقع نغماً واحداً ، يشتد فيكون نفيراً ، ويعذب فيكون غزلا ، أو يكون فيئاًوظلا وتراباً يحمل كلعبيرالأرض.

المرأة قدرالرجل .، هكذا يقول وصفي، وكل ما عداها يهون . تمجدت هي وتمجدت بها الحياة ..

مادون ، هذي كبرياء الشعر ، بين يديك ذلـه

عفت الرفاق ، وعفـت كأسي ، كلهم والكأس ، ابله

مازحلة السمراء ، ماوادي العرائش ، انت زحله

ماذا ؟ وراح الشعر يحلم فيك ، تفصيلا وجمله

تتحدث ، والزورق عبر الرؤى يستسلم، والحلم يبلغ مرحلة الوجد ، ويصغي .. وتتفتح المروج للفجر ، ويغسلها الندى . الصوت يأتي من البعيد..رنة جدول سكران، يغيب ويظهر في اعماق حقل أخضر، الكلمة،

حتى الكلمة ، لها لون، والأفق حولها نشوة.. هي معه دائماً ... « خيالها مطمئن في الأعماق من خياله » ...

والعمر يمضي ، والفـارس الذي يختزل الهوى سطراً ودرب الشعر سطراً.. يتساءل، بعد الأربعين، الا يتبدل الموقف ، الا يتغير الشعور ؟ والى متى ؟ ويضج القلب ، الى ان نلتهي .. وفي جنون الشعر ، وعفوية الاستجابة يختتم من قصائده ، قصيدة ،

ما دون ! اي ما دون ، ان عقل الهوى، حطمت عقله

غير ان هذا الجنون كله والتقديس كله ، لم يخرج الشاعر من حيرته أمام سؤال، ظل يحاور فيه نفسه .

هل يقول فيها الشعر ؟ هل يقال الشعر في الشعر ؟ المرأة في نظره شعر ...

ولم يخطر له انها وهي كذلك ، تغدو في الشعر امرأة اخرى ..

وقد يكون لوصفي بعض العذر ، فالمرأة مادة غير مطاوعة في الفن ، على كثرة ما كانت ، منذ كانت وكان الفن ، مادة أساسية ملهمة فيه . وامام هذه المادة ، وقف وصفي مرتبكاً ، حائراً ، لا يعرف كيف يصنع من مادته تمثاله الخاص .. يحبها حتى الجنون ، وتعجز ضربات الأزميل الشعرية عنده عن ان تنحت هذا التمثال الخاص . يظل تمثالاً عاماً ، رمزاً لمطلق ، وتظل المرأة ، كل امرأة في الشعر ...

المرأة حبيبة ، والمرأة أم، وكلاهما عند وصفي معنى أبعد لكائن اسمى ، وجراح الهوى ، وجراح الفجيعة فيض حنين شعري لا ينضب، وذكريات عزيزة تحتضن القلب.. الحبيبة والأم مطلق عزيز وغائم ،في صميمه يعيش ، الهاماً كبيراً ، وفجراً يتجدد أبداً.

يضاف الى ذلك ، موقف فكري ، يرى فيه ان الام رسالة في حياة الانسانية ، موكل اليها استمرار البقاء ، والدفاع عن الوجود ، وفي الأزمات يستصرخ الامهات بلهفة مؤمنة ، عن الخطر الأخطر حدث الأمهات .. أيقظ الأمهات .. على شفاههن وحدهن نداء الحياة ..

* * *

لي بعد ذلك ان أعاتب الشاعر على قصيدة يبدو انها كانت سقطة، وكان يمكن له – رغم التحدي – الا يقع فيها ، اعني قصيدة عتاب . هاجوه لأنه نظم في الغزل فكان رده تقليدياً وغير منسجم مع منطقه الخاص.. المرأة لا يمكن ان تكون متعة عابرة ، وليست زاداً على الدرب ، « تلك تهويمة الجراح استراحت » ؟ لا .. ايمكن ان يقول وصفي هذا الكلام ؟

ان للجسم يا أخا الدرب حقا

أنصف الجسم، لا تكن مستحيلا

لم يكن على كثرة اهتمامه بالوصف المادي يرى في المرأة عبثاً عابراً، أو وسيلة لانصاف الجسد ! ذاك حديث صديء ، والمرأة الجسد مفهوم لحياة اكثر بدائية ، ولشاعر أضعف استبصاراً ونفاذاً ، ثم لم كل هذا الاحساس بالذنب ، والاستحياء الشديد الشديد ، والامعان في الدفاع عن النفس ؟

سل رفاق الطريق ، هل خنت عهدا
والقوافي ، هل كنت شعراً ذليلا

الا يبدو ذلك مفارقة لا مبرر لها بالقياس الى مفاهيم وصفي كما تتبدى في شعره؟ كيف ينسى وصفي ان حب الحياة شكل من أشكال الكفاح ضد العدم وان المرأة والفروسية صنوان ؟

* * *

المرأة في قصيد وصفي همسة شعرية حلوة، تنتقل عبر كلمات مختزلة ، موقعة . ذات رفيف . اللفظ صورة ، والصورة لون بل ألوان ، واحساس بالمدى ، وتهويمة حالمة ضائعة ، شفق غريب ، في سماء غريبة . .

الهدب ؟ــ يانعس الهوى ، سكب البنفسج فيه كحله

. . . . .

عيناك كالحلم الطري عذوبة والليل عمقا
سرحا على شبه الذهول يموج بالاحلام زرقا

الصورة ليست ابداً بكماء، وليست حياة جافة للتأمل ، هي أخيلة وظلال ، عطر وأحلام ، واستغراق في أبد لا نهاية له ولا بداية . هي

شفق ســاج ولحن ناعم
ايقظا في غفوة الليل النهارا

في غزل وصفي ، لا يتــابع القارىء الصور بتفاصيلها فحسب ، بل يعايش رؤيا الشاعر ، تتسرب الى أعماقه انسراب اللحن، يعلو ويهبط ، يقسو ويرق ، يندلح دوائر تتسع وتتلاشى في امداء الاحساس ، لتكون هي ذاتها احساساً آخر ، خاصاً ، ذاتياً وآسراً في كل منا .. ثم يتوتر الشعر ليعود قليلين ، والقارىء محمول على أجنحة أحاسيسه الى امداء بعيدة ، بعيــدة ، من وحي الشعر هي ، ولكن من تصــوره هو ايضاً .

كيف نحدد سر الجمال في الهمسة الشعرية؟ كيف نحدد سر جمال النغم ؟

ثمة خيــط مجهول ، نمسكــه ويفلت ، ونحاول أن نتقصى فلا نستطيع .. يكفي أن نعيش دفء الشعر في ومضــات اشراق نتصل فيهــا بالأرحب ، بالأعلى ، ونندغم ونذوب،ولكن حين نعود من لحظة الاختطاف تلك ، يبقى لنا المعنى وما حول المعنى ، رؤيا تنمى ولا تنسى ، لانها في ذاتها فيض انساني ، ينمو ويغنى ،

* * *

وتأتي الطبيعة ، في مهاد اللوحة الشعرية،

مصدراً للضوء والظل والحركة . وكما حول دانتي « الأفكار الى أحلام » يحول وصفي الطبيعة الى أحلام ايضاً ،.

عاشها في وجهيها ، جمالاً يشعر معه أن الكون كله ينبض بين جنبيه ، وجحيماً محرقاً في عالم المساحة ، يشتهي معه الماء والظل وراء العاصي ، ومراحاً يعفيه من التطواف المستمر في صحارى لا نهاية لها كما يحسب في بعض الأحيان .

كان وفياً للارض ، وكانت في قلبه نداء الحيـاة وعبق الحرية ، لها اكثر من معنى عنده ، ولارتباطه بهـا أكثر من سبب ، وحفنة من ترابها قد تعدل الحياة ، باحساسه المتوفز يستشعر النار في دمائهـا ، ويرى الأحلام العذراء المنعقدة على أهدابها . طيبة هي ومبـاركة في نظره ، والحنـان منها يفيض . أمومتها هي الأسمى لولا أن الناس – بعضهم على الأقل – يشوهونها ، فلا تعيش في نفوسهم بعـداً اجمالياً من أبعاد الابداع والخلق . وتتعالى الطبيعة عنده ، لأكثر من سبب ، أن تكون صيغـة للمادة المجردة .، انها ترادف الانطلاق والحرية ، والمكان الذي يتخطى معنى المكان ، ويحرر من اسار الزمان . وهو من هـذه الطبيعة المرادفة للحرية جزء ، في أمنياته وتطلعاته ، كالظل لا يعض به القيد ، وكالماء لا يقر ، والفضاء مداه الذي فيه يهيم .

الناس جميعاً يحبون الخضرة والماء والنسيم والعطر والزهر ، تتحول في أحاديث بعضهم الى عامية تافهة مملة ، وتغـدو عند آخرين لوناً من التمجيد أو التسبيـح ، او التصوير الرشيق. أما وصفي فقدغت في نفسه وجوداً آخر اغتنى وتناغم واتضح ، واستحال ، من بعد ، الى لوحات ابرزتها لغة الشعر دفقاً من الشعور ، ورؤى على اقواس قـزح . . اللوحات عنده ليست مجرد أداء مسطح، فقد ألهبهـا باشواقه ، وأضفى عليهـا من الحنين مـا يجعلك تحس انك محول بين عالمين ، في حـال من الوعي واللاوعي ، الصوت عميق بعيد .. واللون يصبغه الاحساس ، والرفيف والحركة يبدلان الخطوط .. أرجوحة الشعر تشدهـا النجوم ، ويجذبها عبير التراب ، ويستحيل الحلم فيها الى واقع ، والواقع الى حلم . . كل مـاحولك يشف عن الوجود الأكبر ، ويجـد الحيـاة في أوج حدتها وعنفوانها ..

الصبـح في غلالته الزرقاء نديان ناعم ..
« بين هدبيه من عطور الليالي ، حلم هزه
الضحى فتفتح
طار ملء الآفاق في فمه الليل ، ذبيـح ،
على الوهاد ، بجرح
واستفاقت سمر الظلال ، قلقته باهدابها ،
فاغفى ، وصوح
مشهد ، يعقل اللسان ، ودنيـا ، ترسل
النفس ، في الفضاء فتسرح »

مــن رأى كيف يحضن السكون الارض كالحلم ، من سمع وشوشات النسيم ، من أحس هــذا التنــاغم بــين الارض واحلامها ، ونفسه وهمساتهـا ، من أسره مافي هدب الضحى من اغراء ، من أدرك بعد الأسى في إيماءة الروض للطلول ؟.. وهــل هناك أحلى من صورة الشفق يجد متكأه في الروض وهو ينهار .. او الظل السخي وهو يلف الافق ؟..

مزيج غــير محدود من الصور والاشكال والاحــاسيس ، وتجــسيد يخرج عن المعنى البلاغي القديم ، ليتخذ مدلولا أرشق وأكثر فنيــة .

الأنا تذوب ، تنحل في كل مــاحولــه ، يضيع ماهو انساني وما هو غير انساني ، ثم تعود فتتجمع وتنفصل وتستقل . في داخل المشهد هو وخارجه ، يكون اللون حيناً ، واليد التي تحمل الفرشاة احياناً .. حال من أحوال الوجد ، على حد تعبير المتصوفين .

« الكلمات النابعة من المخيلة لايمكن ان توازي ما ينبثق عن الواقع » ، غير ان الفنــان الكبير هو ذلك الذي يعرف كيف يؤلف بين الواقع والمخيلة . ويوائم بينهما حتى لانكاد نميز بين ما أمــلاه هو وما فرضته تلك .. ودوره ليس ابداً ان يؤلف أو يوائم فحسب ، انه يتقطن حــالم ، لايستحضر الطبيعة صوراً حسية وانما يتحد بها ، يعيش في حال اختطاف ، تملي عليه احلاماً ، ويخلع عليها احلاماً .. ثم يرتد الى ارض الواقع ، لينقل الينا ، بالكلمة الشعرية ، تجاربه الجمالية من افق شخصي وغير شخصي ، يجعل من العادي شيئاً غير عادي ، ويضع القارىء في كثافة المشهد الشعورية ، حيث يعيش من جديد ، رؤى الشاعر واحلامه ، اسير المدى الحر ، فوق النهايات ، معنى كبيراً للوجود الاكبر .

تراني كنت مخطئة حين رأيت ان شخصية وصفي بمعناها الانساني والجمالي ، تبرز في ملامحها الأصيلة المميزة عبر تقاطع خطوط ثلاثة ، النضال والمرأة والطبيعة ؟

. . .

سطور اخيرة ..

وصفي في حياتنا الشعرية يقرر حقيقة اكيدة هي ان الشعر ما يزال يتكامل تكاملا تاريخياً .. وان التمرد الكبير لم يكن قادراً على كسر الاطار ، وتخطي الايقاع الجزل المتوتر ، وتجاوز الكلاسيكية الغنائية ..

عالمه رحب من الداخل ، ولكن رعشة البــادية الاولى تلفه باستمرار وتحتضن تموجاته ، وتأبى بصلابتها الا ان تكون النغم الموقع على عروض الخليل ..

والرؤية الجديدة ، والتناغم الداخلي ، والثورة التي تتجدد أبداً في نفســه ، كانت قادرة على أن تسقط من شعره العلاقات التعسفية التي تربط فكرة معينة بعبــارة معينة ، أو التي تسحب على القارىء آثار

تراث كبير من الشعر المقفى ، غير انها لم تكن كافية كي تهز الشكل ، وتساقط اللبنات ، وتطلق للتعبير الشعري العنان .

في حدود الرؤية الشعرية ، كنت ترى هذا الفيض التلقائي المتوثب ، يتفجر أو يهدر ، ويتخذ في الصياغة طابعاً متوتراً ، متقطعاً ، انفعالياً ، عاطفياً ، كضربات القرار تحت انامل عازف مجنون ، تكاد اصابعه تتكسر على اوتاره – كما يقول أبو ريشة – ولكنه يبقى مع ذلك ملتزماً بالنمط التقليدي في شكله العام .

الاثارة تأتي من الخارج ، من الظروف ، من الأحداث ، ثم تتجه نحو الذات ، وتتوغل ، وتلتهب في متاهات سحيقة ، لترتد من بعد الى الخارج فيضاً قوياً يتحدى ، ويبتعث انفعال القارىء من مراقده ، ويولد بينه وبين الشاعر علاقة هي أقرب الى الانفجار الشعوري الذي تحدثه المشاركة الوجدانية بين الخشبة والصالة ، في مسرحية مسيّسة .

الثقافة لم تلعب دوراً أساسياً في نتاجه الشعري ، وقد تكون مسئولة الى حد ما عن عزلته عن تيارات التجديد التي بدأت تتلمس خطاها في العالم العربي آنذاك .

كانت الأرض تتشقق عن اكثر من بذرة ، والنبتات الصغيرة تنمو في ظل الريح .. دربها الدرب ولو انه غير ممهد . وبدايتها ، على سطحيتها وضبابيتها ، اعلان عن حياة جديدة ، لاشراقات جديدة ، وفكر جديد ، ورؤى أغنى وأصدق .

اما وصفي فقد ظل بعيداً ، يجانب الخط الذي لم يتضح بعد ، ولا يدخل في التجربة ..

ثائر ومحافظ ، ومعاصر وبدوي ، والثقافة عائق كبير يقف في وجه المد .

ولعلي لا أبالغ حين أجد في شعره رداً على هربرت ريد الذي يرى ان الكلاسيكية نقيض دوافع الخلق والابداع ، وانها نسخة فكرية عن الطغيان السياسي «ففي كل أرض تلطخت بدماء الشهداء ، نجد عموداً دورياً أو تمثالاً لمنيرفا» ...

ألم تصبغ هذه الدماء شعر وصفي النضالي؟ ألم تتفجر قصائده بألف صورة وصورة تحمل معالم مستقبل أفضل ، وأفق الجمال والشعر ، جذورها في ابعاد التاريخ ، وفروعه منتمية الى زمن سيأتي ...

بشعلة الحياة التي ظلت تلتهب في أعماقه وبالحس السليم ، عرف كيف يكون معاصراً ، وكيف يقول الكلمة التي تظل حية رغم كل الملابسات .

كان هو نفسه رؤيا ، وبالصورة الموجزة الفياضة ، والايماءة البعيدة البعيدة ، كان يشف شعراً يوحي اكثر مما يقول ، ويلهب بالنار سيالات الشعور ، يختلف في ذلك قوة

وضعفاً، وحناناً وتصلباً، وحباً او تدميراً ، ولكنه يظل باستمرار موجزاً معجزاً ، ينصهر في قصيده الفكر والاحساس والصورة والمدى ، كي تنتقل الى القارىء فكراً واحساساً وصورة ومدى ...

وبعد .. فهل بلغت المنتهى في كلامي على وصفي انساناً وشاعراً ؟ احسب ان لا .،

يذتبي الكلام على الشعر ، ولكن الشعر نفسه يبدأ .، واقرأ ما كتبت ، واعرف أن ما كتبته محاولة ، طرقات على باب وراءه دنيا بغير حدود .،

لقد توهج القرص. طلع من أفق الشروق وتصاعد ، ثم جنح الى الغروب. أيها القرص المنحدر عن قوس السماء الازرق ، ماذا يغريك في أفق الغروب ؟

* * *

النقد الفني

طارق الشريف

النقد الفني وسيلة أساسية تساعدنا على تذوق العمل الفني ، وتقويمه ، وشرحه ، وتحليله ، وتقديم هذه النتائج معللة ، مصنفة ، مكتوبة ، تساعد على ردم التباعد بين الجمهور والعمل الفني .

ولا بدّ للناقد، ليقوم بهذه المهمة ، من الثقافة الواسعة المتنوعة التي ترتبط بالعمل الفني ، وبالظروف المختلفة التي تحيط بهذا العمل ، وبمن أنتجه ، وفي أي مرحلة ، ولا بدّ – اضافة الى ذلك – من الرؤية السليمة ، التي تعتمد على عين مدربة ، قادرة على تذوق، وقادرة على اكتشاف موطن القوة والضعف في العمل الفني .

ولايمكن أن يقف النقدعند الحدودالاولى السلبية التي ترتبط بالتذوق بل لابد من أن ينقل مارآه الى الآخرين باللغة الأدبيــة ، وهنا يكمن الجانب الايجابي في النقد ، لأن التلقي لايجعل المتذوق ناقداً ، لكن، لايمكن أن يكون الناقد قادراً على نقل خبرتــه وتذوقه ، ومعرفته ، بكل ظروف هذاالعمل الى الجمهور ، مالم يكن قادراً على التذوق، ومن ثم تاتي مرحلة الشرح والتحليل للاشكال الفنية التي يحتويهاالعمل ، والتي ينحوالفنان باتجاهها و « المضمون » الذي يسعى لبلوغه عن طريق هذه الاشكال .

الناقد .. اذن صلة وصل بين اللوحة من طرف ، وبين الجمهور من طرف آخر .

لكن مهمة الناقد الفــني لاتقتصر على التذوق ونقل أهداف الفنان وأشكاله من لغة الايحاء الى لغة الكلام ، بل لابـد له من ان يكون قادراً على (التقويم) والاصطفاء والاختيار حسب وجهة نظره ، فمعنى ذلك أن تحليل العمل وتذوقه وفهم أهدافــه ، سيوصل الناقد الى وجهة نظر عن هذاالعمل مقارنة بغيره ، وبالتالي سيضع هذا العمل في مكانه من انتاج الفنان ، وهنــا ندخل في مرحلة جديدة هامة لابد من ان يتولاهــا الناقد ، وهي تصنيف العمل الفني ، بعــد تقويمه ، ووضعه في مكان محدد حسب اتجاه الفنان وتطوره .

وكل ذلك يفترض أن يعتمد الفنان عـلى معايير واضحة ، محددة ينطلق منها لتقويم العمل ، وشرحه وتصنيفه ، لأن الاعتماد على ملكة التذوق والرؤيا السليمة والثقافةلايمكن أن تقنع القارىء ، مهما كانت الرؤية سليمـة ومهما كانت الملكة اصيلة ، ومهما كانت الثقافة واسعة .

لهذا لابد من ان يملك الناقد المقدرة على تحليل اللوحة ، ليصل الى « هدفها »وغايتها، وعنصر الجودة فيها ، وفهم مدى اعتمادالفنان على شكل فني ما او على عنصر من عناصر العمل الفني ليعبر عن مضمونه وهدفه الذي يرتبط بشخصية الفنان ومواقفه ، وتطلعاته التي تعكس المرحلة التي انتج فيها العمل الفني، وموقع ذلك كله من التطور التاريخي لأمته ، وعلاقة هــذا بتطور الأشكال الفنية عبر التاريخ .

وتظهر لنا مهمة الناقدمتشعبة ، لها حدود متداخلة مع أمور عديدة . فنية وغير فنية، لكنها تنطلق من دائرة (اللوحة) ، لتصل الى حدود تطور الاشكالالفنية عبرالتاريخ ولهذا لابد من ان نبدأ بدراسة اللوحة.

اللوحة

المرحلة الاولى ، التي يبدأ الناقد فيها دراسة للوحة معينة ، ليبين عناصر الجودة فيها هي مرحلة « التذوق » التي تعتمد في أبسط مراحلها على « التعاطف » مع العمل

الفني ، والتعاطف لايمكن ان يترجم الابكلمات أدبية ولهذا لابد من أن ينتقل الناقد من مرحلة « التذوق الشخصي » و « التعاطف » الادبي الى (النقد الموضوعي) الذي يجهد ليبعد نفسه عن مزالق الصيغ الادبية ، والتأثيرات العاطفية التي تثيرهالدى المتذوق عناصر لاعلاقة لها بجودةالعمل ، وأهميته .

لكن كل موقف من الموقفين ينطلق من رغبة المشاهد في أن يبقى أمام اللوحة مستمتعاً بما يريد لو تدوم المتعة ، المتذوق العادي لايدرك كيف يبرر اعجابه او حبه او فيض التأثر التي تثيره فيه : كما يفعل الناقد الذي يملك مقدرة على تحليل العمل وتقويمه ، وفهم سبب التأثر ، ورده الى عناصر موضوعية موجودة في هذا العمل ، ولهذا ينتقل الناقد من مرحلة (الاعجاب) التي تتيحها اللوحة الجيدة للتذوق الى مرحلة (الفهم)والادراك لموطن الاعجاب في هذا العمل .

وبالتالي يبدو « التعاطف » عنده نتيجة لانسجام معين في اللوحة ، يجذبه او«صيغة» شكلية نظم العمل الفني وفقها فأثارت فيض الاعجاب ، حين انطبعت في الادراك .

وقد يكونسبب هذا الاحساس بالتعاطف نتيجة فكرة ما هدفت اللوحة لتحقيقها ، ونظمت لتعكسه ، فأحسسنا بالانسجام مع هذه الفكرة التي حرضتنا على اتخاذ موقف معين ، ولقد كان الفنان قادراً على ان يقدم فكرته من خلال صيغة فنية تتلاءم معها .

وقد يكون فيض الاعجاب كامن فيمقدرة الفنان على ان يقدم لنا معلومات وافكار جديدة ، وصيغ فنية مستحدثة ، فنشعر بالمتعة العقلية التي تترافق مع التعاطف مع شكل العمل في ادنى مستويات التلقي .

لهذا يبدو أن العمل الفني الجيد ، هو الذي يملك صيغة شكلية ممتعة أو معبرة ورؤيا أيديولوجيةواضحة ، ومعلوماتفكرية وعلمية أو فلسفية يطرحها العمل وتضيف الى معلوماتنا شيئاً جديداً .

لكن أولى ماينطبع في أحاسيسنا هو (شكل اللوحة ، صياغتها ، طريقة تنظيمها، ولهذانبدأ بدراسة هذا الشكل.

كيف تكون اللوحة متماسكة من ناحية شكلها وتحمل صيغة فنية مقبولة تنطبع في أحاسيسنا فتلاقي القبول وتخلق الرضاء والمتعة .

ان أكثر الدراسات النقدية للأشكال التي تميزت بقبولها، هي الاشكال الهندسية المستقرة، التي نظم الفنان موجوداته وفقها، فأحسسنا بتماسك العمل ، وصياغته المتينة ، الهرم مثلا في اللوحات الكلاسيكية كان نموذجاً لتكوين متين للوحة، كانت توحي بالاستقرار لمتانة قاعدته ورسوخها ، وتعالي رأسه . ولهذا لا بد من أن نكشف القاعدة الرئيسية

التي انطلق منها الفنان في لوحتـه ، من حيث تكوينها ، واعطائها الشكل الذي يجعلنا نحس بقوة اعتماد الفنان على عناصر راسخة مقنعة .

وقد يلجأ الفنانون الى أساليب أخرى لخلق نوع من التماسك في اللوحة توحي بالمتعة أو الراحة ، ويمكن أن يكون ذلك عن طريق تنظيم الخطوط أو الألوان ليعكس ذلك صيغة شكلية نراها مرضيـة ، فالخط يمكن أن يتحرك ، ويمكن أن يكون متيناً قوياً يوحي بصلابة الرسم ، واللون قد يكون منسجماً عن طريق تسلسل مدروس متناغم، أو ينظم ليعطي صيغة لونية مرضية .

ولهذا يجب ان ندرس (الخط) و(اللون) العنصران الرئيسيـان في تشكيل اللوحة . لنوضح معنى الشكل ونبين كيف يمكن الوصول الى (شكل) فني يرضينا ويقنعنا .

ب – الخط

ماهو الخط . وكيف نراه منسجماً . يشعرنا بجودة العمل ، ومتانة الفنان . وحسن استخدامه له .

الخط وسيلة تشكيلية لجأاليها الفنانون منذ أقدم العصور للتعبير عن أحاسيسهم ومخاوفهم ،ولقداستخدم في (الفن البدائي) وهو أول مايلجأ اليه الطفل في بداية التعبير والفنان يبدأ في رسم لوحته به ، والنحات يحدد شكل (الطين) أو (الحجر) بخط تمهيدي ، وبالتالي هو وسيلة اختـزال وتلخيص للشكل ، وتحـديد لحدوده الخارجية ، فالفنان الجيد قادر على أن يستخدم الخط ، ويعطي الشكل الخارجي للموضوع على نحو محدد متين ، وبالتالي كلما قوي الخط وتحدد بصراحة ووضوح، دل على مقدرة الفنان وتمرسه ، وحين نرى الخط واهناً فان ذلك يدل على ضعف عند الفنان ،ونستطيع أن نرى امكانات الخط الهائلة لو نظرنا الى رسوم عمالقة الفن من أمثال (ليوناردو) و (ميكلانجلو) و (دورر) ، ان المقدرة على التعبير بالخط وصلت الى مرحلة لاتجارى واستخدام الخط وصل مرحلة السيطرة عليه ليعكس الفنان صيغة متينة للشكل المرسوم تتميز بتعبيرها عن كل مايريد الفنانون العظام التعبير عنه .

وعظمة (بيكاسو) ترجع في معظمها الى مقدرة هائلة على التخطيط وامتلاك وسيلة التعبير الخطية ، وتذليل أي صعوبة تعترض سبيل التعبير وبالتالي وصل الفنان الى مقدرة خارقة في الرسم بالخطوط أبلغ

من الكلام . وأكثر تأثيراً ووصلت الاشكال التي رسمها الى خلق صيغ فنية معبرة تتميز بابداعها . لكنها ترتكز على مقدرة على التلاعب بالخط حسب رغباته . لتحقيق كل ما يريد أن يقوله .

وهـذا هو السبب الرئيسي الذي يجعل (للخط) أهمية كبيرة ، وهو السبب الذي يجعل الرسامين يتمرنون عـلى التخطيط في البداية ، وينتقلون بالخطوط الاشكال التي توضع لهم ، كي يصل الموهوب منهم الى امتـلاك ناصية التعبير ، والمقدرة على أن يقول بهذه الوسيلة مايشاء .

وينتقل بعد ذلك الفنان الى التظليل كي يعطي أشكاله أعماقاً ويقربها الى أشكال الطبيعـة ، ويتفهم أهمية انعكاسات النور المختلفة على الأشكال والتي تعطي منـاطق معتمة او بيضاء يجب دراستها لفهم كيفية تجسيم الأشياء على الورقة وهي التي تمهد أمام الفنان امكانية الايحاء بصلابة الاشياء وبعدها وكتلتها وطريقة التظليل في كل منطقة لتعطي الاحساس بالمادة وملمسها الفيزيائي ، وتغييرات الانعكاس عن طريق الملمس تعطي الفنان مقدرة تمييز المواد عن بعضها ، كي يستطيع أن يعبر عن شتى المظاهر الفيزيائية للموجودات .

وهكذا يستطيع الفنان عن طريق امتلاك وسيلة التعبير الخطية وفهم التظليل وعلاقة النور بالمواد المختلفة ، واسلوب عكس ملمس الأشياء ، ونظام توزيع النور أن يتحكم ويملك المقدرة على أن يقول مايشاء ويعبر عن مظاهر العالم المادي الذي يريد أن ينقله تمهيداً له لكي يقيم النظام المتنوع الفني للوحته والتي يعكس افكاره فيها ، وأهدافه . ثم يأتي اللون فيزيد من مقدرة الفنان على السيطرة على عمله ، والتحكم به .

ج - اللون

وحين يتحدث النقـاد عن اللون ، هم يتحدثون عن شيء يضاف الى اللوحة لتعطي هذه اللوحـة صورة أقرب للواقع ، وهو أول مهمات اللون ، لكن اللون بعـد ذلك يأخذ شكلاً أقرب للتعبير عن عالم الفنان الذاتي ، عن طريق تنظيمه والفنان البارع هو الذي يستطيع أن يخلق انسجاماً في ألوانه ، او تناغماً ، او حركة ، ليعكس ما يريد أن يعبر عنه ، وقد يكون تنظيم اللون مبنيـاً على ابراز شكل الأشياء ومتـانتها ، او حركتها ، او نفسية الفنان وعالمه الخاص . وهنا ننتقل الى موضوع هام ، هل يمكن للون أن يعبر عن موضوع معين او يعكس فكرة ، دون اللجوء الى الخطوط والأشكال الخطية .

ان النقد يحدثنا عن أهمية اللون حـين تزداد التعبـيرات الذاتيـة ، ويزداد الارتباط بين الفنان وانتاجه ، وبين عالمه الداخلي ولوحته ، وحين كان النقد يتحدث

عن براعة الخطوط عند (بيكاسو) ، يتحدث النقد عن حقوق اللون عند (فان غوغ) ليعكس عالمه الداخلي ، وعن أهمية تنظيم اللون عند (ماتيس) ليعكس الفرح والمتعة والراحة .

ولعل أهمية الفن الحديث تكمن في ازدياد أهمية التعبير اللوني وتنظيمه ليكون وسيلة حية تساعد الفنان ولا يبقى اللون شيئاً إضافياً للوحة المرسومة بمهارة .

لكن تاريخ الفن يقدم كثيراً من الشواهد على أن الفنانين ينقسمون الى قسمين : فنانون يتعاملون بالخطوط والأشكال بالدرجة الأولى ، وترجع أهمية لوحاتهم الى مقدرة الرسم والتحكم به ، وهم « الرسامون » ؛ وآخرون تبهرهم الالوان ، ويفضلون التعبير بها ، وتأخذ في لوحاتهم أهمية تتفوق على الخطوط . واذا كانت هناك محاولات فنية لاعطاء توازن بين الخط واللون في بنـاء اللوحة ، فهذه المحاولات تبقى قليلة ، وهي تجارب تهدف لامتلاك السيطرة على هذين العنصرين في عمل واحد واعطائها أهمية متساوية .

ونستطيع أن نذكر هنـا تجربة (الانطباعيين) كمثل على محاولة الاعتماد على (اللون) وعلى درجات إضاءته للتعبير ، حيث يبدو الشكل الخطي قـد امحى أمام تبدل اللون المتغير مع الاضاءة الخارجية ، وأصبحت انعكاسات النور تحدد شكلاً ولوناً متغيرين ، أن صلابة الشكل قد امحت أمام تبدل اللون وفق النور .

ويمكننا أن نذكر في المقابل ، مثلاً على الرسامين الذين اعتمدوا على التخطيط لدراسة اللوحة ، والذين أبعدوا الألوان ليفهموا الشكل الانساني وليحطموه ، وليعيدوا بناءه وهم (التكعيبيون) الذين بهرتهم إمكانات الخط في التعبير ، وقيمة هذا الخط في الارتباط بالعالم المادي الخارجي .

ويلاحظ من كل ذلك أن الارتباط بالعالم المادي الخارجي يعتمد الخط أساساً أما التعبير عن العالم الذاتي فقد أخذ شكل التعبير باللون ، وحين كانت الأشكال الفنية كلاسيكية لجأت للخط ، وتنظمت الاشكال على نحو هندسي ، وحين بدأ الفن يتجه نحو عوالم الذات أخـذ تنظيم اللون أهمية وازدادت هـــذه الأهمية وبالتالي ظهرت الأشكال الفنية التي تعتمد على الحدس والرمز والتي تتفق مع عوالم لايمكن أن يلمسها المشاهد ، ويحس بتتائجها ، قدر مايحس بتعبيرها وغناها النفسيين ، والتي تنقل أبعاداً لاترى ، وأن كان يحس بهـا وهي أشكال طفولية بدائية تعبيرية لاحدود هندسية لها .

وهكذا يتبدل الشكل ويتطور دائمـاً . حسب وجهة نظر الفنان . وحسب هدفه وحسب (مضمون) العمل الذي يحدده رأى الفنان . ووفق المعايير المختلفة التي لجأ اليها

الفنانون . ووفق (مضمون) عملهم . وان توضيح كيفية تطور الأشكال . رهن بشرح هذا المضمون والدلالة عليه . لان اعتماد فنان على عنصر معين . او على شكل ما للتعبير يرجع لغاية هذا العمل وهدف الفنان الذي يشرحه (المضمون) وتبدله عبر العصور .

وهذا يقودنا الى بحث معنى (المضمون) وأهميته .

د – المضمون (١)

اختلف تعريف المضمون عند النقاد، وتبدل ، لكن المعنى المعاصر الشامل له، يجعل هذا المضمون مرتبطاً بهدف الفنان وغايته من لوحته أو لوحاته ، لهذا يختلف (المضمون) بين فنان وآخر ، وان التقى السعي لمضمون واحد عند أكثر من فنان تتقارب أعمالهم حسب (المضمون) الذي يسعون اليه .

وهذا يعني أن (المضمون) ليس له معنى واحداً شاملاً بل له عدة معاني ، اذ قد يكون (المضمون) شكلياً ، عندها يكون الهدف من الفنان أو بمجموعة الفنانين ايجاد شكل موحد يربطهم ، أو يربط لوحاتهم ، وعندها يصبح الشكل المتين المتماسك والبناء المدروس أو المتناغم ، أو الحركة التعبيرية واللونية التجريدية هي التي تعبر عن هدف الفنان و (مضمون) أعماله.

وقد يكون (المضمون) ايديولوجياً يرتبط بموقف معين للفنان يسخر الفنان عمله له ، وينظم أشكاله لتخدم هذا الهدف . وهو لذلك يبدل أشكاله ، ويغير أعماله لتعكس (المضمون الايديولوجي) الذي يريد ، وهنا يرتبط (المضمون) بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والجوانب الانسانية، اذ حين لجأ (غويا) الى تشويه صور العائلة المالكة ، لم يكن ذلك الا لموقف (غويا) الاجتماعي ، ونظرته ، وليس ذلك لبحث شكلي .

وقد يكون (المضمون) فكرياً ، يعكس

(١) لابد لنا هنا من أن توضح خطأ شائعاً، يجب أن نميز بين موضوع لوحة، ومضمونها، إذ أن النقد التقليدي لايولي هذه التفرقة أي أهمية ، لكن الفن التشكيلي يحرص على توضيح الفروق . فالمضمون هو الهدف الذي يرمي اليه الفنان من رسمه (لموضوع) وقد تكون المواضيع مختلفة لفنان مثل (سيزان) – منظر ، طبيعة صامتة ، وجه – لكن التعبير عن جدلية الطبيعة وموضوعيتها من خلال هذه المواضيع واحد وهو (مضمون) هذه الأعمال .

رغبات الفنان ، وآرائه الدينية ، أو الفلسفية ، أو العلمية ، وعندها ينظم الفنان أشكاله لتخدم الهدف الذي يريد . فتطور رؤية (سيزان) للطبيعة ، ومحاولة عكس موضوعيتها ، كان نتيجة لآراء (سيزان) في الواقع، ورغباته في أن يعطي الانطباعية صلابة تحتاج اليها، وبالتالي ايمانه بموضوعية هذا الواقع وحركته الجدلية ، وماديته المنفصلة عن تمثلنا .

ونحس بأن فهم مضمون عمل ما شيء هام جداً لانه يفسر لنا كل الاتجاهات الفنية قديمها وحديثها . لان هذا المضمون أو (المعنى) الرئيسي ، هو الذي يفسر لنا السبب في تصرف الفنان ولجوئه لاحترام الواقع أو رفضه، أو الثورة عليه وتحطيمه أو اللجوء الى الصيغ الهندسية ، أوالتعبير الانساني عن موقف الفنان ، وفكره ، وقد انعكس كل ذلك نتيجة لذلك (المضمون) .

وأن فهمه يعطينا الصورة الحقيقية عن تجربة الفنان ، وغايته ، ويوضح تطور الشكل ونظرته اليه من خلال قصده وغايته

٢ – الفنان

ولا يكتفي النقد بدراسة اللوحة، وعناصرها وتقويمها ، وتوضيح مضمون الفنان وغايته منها ، بل لابد من أن يعنى بالفنان المنتج . لأن اللوحة لاتنفصل عن مجموع انتاج الفنان ولا تنفصل عن شخصيته الفنية ، ولا يمكن أن نفهم اللوحة فهماً صحيحاً دون أن نضعها في سياق تطور انتاج الفنان ، ونحاول ان ندرس (الفنان) من عدة زوايا تلقي الضوء على (مضمون) اللوحة ، وهدف الفنان . ونحن هنا أمام ثلاث جوانب هامة تساعدنا على تحقيق هذا الهدف :

١ – التطور الفني الذي مرّ به الفنان ، وانتقاله من مرحلة التقليد الى الابداع .

٢ – التطور النفسي لشخصية الفنان ، والعناصر الشعورية واللاشعورية التي ساهمت في هذا التطور .

٣ – المواقف الفكرية والاجتماعية التي آمن بها الفنان وساهمت في تحديد (مضمون) عمله وبناء شخصيته الفنية .

وان الدراسات الحديثة التي كتبت مؤخراً عن الفنانين ، والتي اعتمدت على جانب تحليلي لشخصية الفنان ، وتطوره ، ودرست أعمال هذا الفنان ، ومعاني هذه الأعمال ، وغاياتها ، ومواقف الفنان المختلفة ، الاجتماعية وغيرها قد بدلت على نحو حاسم الأسلوب القديم في الدراسة النقدية .

لأن النقد أصبح يتجه الى حقيقة رئيسية يوضحها هي :

– ماهي غاية الفنان من أعماله الفنية ؛ والى ماذا يهدف ، وكيف حقق أهدافه في أشكال فنيـــة ، وما هي العوامل الجوهرية المؤثرة التي جعلته يأخذ بهذه الأشكال ، والتي ساهمت في أن يحدد لنفسه هـــذا المضمون .

وهكذا لم تعد دراسة الفنان مجرد عرض لأعماله ، بل محاولة للوصول الى شخصيته الفنية المتكاملة التي يعكسها مضمونه . عن طريق الاشكال الفنية الـتي استحدثها . وتبرير ذلك كله استناداً الى دراسة تطور انتـاجه الفني ، وحيـاته ، ومواقفه الأيديولوجية .

وبعد أن نفهم شخصية الفنان، واتجاهه الذي توصل اليه ، عندها يمكن أن نصنف الفنان ضمن اتجاه معين ، أو في مدرسة فنية ، لأن فهم مضمون الفنان ،واشكاله واتجاهه ، وشخصيته الفنية ، تمكننـا من أن نقرب الفنانين الموحدي الأهداف في اتجاهات رئيسية ، تسهل عملية (النقد) وتساهم في خلق صيغة قريبة من متناول المتذوق العادي .

٣ – الاتجاهات أو المدارس الفنية

يلجأ النقـد عادة الى أسلوب التصنيف والتقسيم لمدارس فنيـة ، تسهيلا للبحث ، ومحاولة لتقريب أساليب الفنانين لبعضها ، ويعتمد في تصنيف المدارس على (المضمون) الرئيسي الذي هو هدف اليه الفنان ، وان تباين (المضمون) بين فنان وآخر ، وتباين نوعية (المضمون) هو الذي يفرق بين الفنانين .

ولهـذا يختلف التقسيم وفـق أنواع (المضمون) ، فهناك مدارس فنية محضة ، تملك رؤيا واحدة فنية ، يسعى اليهـا الجميع نتيجة قناعة بهدف فني واحد .

وان اختلفوا في أساليبهم فان ذلك يرجع الى العنصر الشخصي لكل منهم، لكن المضمون الشكلي هو الذي يجمعهم ، فالتجريديون والانطبـاعيون مثلاً يسعون لمضمون فني واحـد ، رغم خلاف في صيغهم واشكالهم التطبيقية لهذا المضمون ، وبالتالي يلتقي المضمون وتختلف الصياغـات حسب الفنان المنتج .

وهناك اتجاهات اخرى تنطلق من اتجاه ايديولوجي واحد ، يحدد موقف الفنان ، فالواقعية الاشتراكية، اتجاه يعتمد على موقف الفنان الايديولوجي ، وهذا الموقف الفكري هو اساس في وجود تيار (الواقعية الاشتراكية)، وقد نرى خلافاً بينهم في اسلوب التنفيذ ، وصياغة الشكل لكن (المضمون الاجتماعي) هو الذي يجمعهم .

(والواقعية الجديدة) تنحى في تعبيرها الاجتماعي الى نفس الهدف لكن رؤية الواقع تختلف عن رؤيته عند (الواقعية الاشتراكية)، ولهذا يمكننا أن نقول بأن اتجاهات ومدارس مختلفة نشأت نتيجة لهذه المواقف ، وهي التي حددت موقع الفنان ، وصنفته في مجموعة الفنانين وفقاً لنظرة الفنان الاجتماعية وموقفه السياسي والايديولوجي .

وهناك الاتجاهات التي تنحو باتجاهات أدبية وفكرية وفلسفية ، أو علمية ، وهذه لاتتوقف على (شكل فني) يربط بين الفنانين، ولا على موقف (أيديولوجي) معين يجمعهم، بل ان الايمان بفكرة فلسفية أو علمية أو أدبية هي الرابط ، ونستطيع أن نعطي أمثلة في السيريالية ، أو الدادا أو التعبيرية .

وبذلك يتحدد تقسيم المدارس والاتجاهات حسب مضمون العمل الفني ، وهدف الفنان من عمله ، وبالتالي نقرب الفنان من اتجاه ، ونصنفه في مدرسة ، لكن ما يساهم في توضيح المدارس الفنية وتطورها ، ومضمون الفنان ، وغايته هي « المرحلة التاريخية » التي عاش فيها الفنان ، لأن « السيريالية » المعاصرة تختلف عن السريالية في عصر النهضة ، وتبدل مفهوم « الواقعية » تبدلاً جذرياً في هذا العصر ، وذلك حسب التطور التاريخي الذي تمر به الشعوب

وهنا لابد من أن نتوقف عند (المرحلة التاريخية) .

المرحلة التاريخية

ان الاطار التاريخي الذي ينتج فيه (العمل)، والمرحلة التي ترسم بها اللوحة تعكس تصورات العصر ، وان كل عصر وكل مرحلة أو فترة تتميز بمسلمات معينة هي نتيجة لتطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، ومحصلة لتطور العلوم والفنون . وكل فترة تعكس اشكالا من التعبير الفني تبدو متقاربة، بحيث نرى صيغة فنية قد وجدت نتيجة لأسباب تربطها بالمرحلة .

فالأشكال الفنية في عصر من العصور ، تأخذ تعبيرات مختلفة في كل فن ، لكنها تعكس (تصورات العصر) وقيمه ومسلماته .

الفن اليوناني مثلاً يعكس نفس تصورات اليونان الفلسفية والفكرية ، وهو محصلة لثقافتهم وعلمهم وديانتهم ، وتطور الحياة من مرحلة (المدن) الى (الامبراطوريات) فلا يمكن عزل هذه العناصر عن الدراسة الفنية لتطور (مضمون) العمل وغايته ، والأشكال التي استحدثها الفنان للتعبير عن هذا المضمون ، وعن معنى فن من الفنون ، في عصر من العصور .

وغاية الناقد أن يكشف هذا الترابط ،

ويفهم (المعنى) الأساسي لظهور شكل فني استناداً الى جملة المعارف التي يملكها عن العصر .

لو أردنا أن ندرس تطور الفن في مطلع القرن العشرين مثلا ، لنحلل معناه الرئيسي ، فلا بـد من أن ندرس التطور الاقتصادي فيه مثلا وتحول الرأسمالية من مرحـلة (الافقار) الى مرحلة (الامبريالية) ، ولا بد أن نعرف أن ذلك قد جعل الفن الاوربي يتعرف على الفنون الشرقية ، ولا بد أن نعرف تطور الآلة ، وقيـام الاحتكارات الصناعية الكبرى واختراع السينما ، وظهور (النسبية) ، و (اللاشعور) . ويمكن أن يفسر ذلك كله ظهور المدارس الفنية المتعددة الأشكال ، البائسة منها ، والواثقة ، بحيث تترجم هـذه الاتجاهات كلها صورة العصر والتناقضات الاساسية فيه .

وهكذا يصل الناقد الى صيغة تحدد معنى المرحلة ، مستخلصاً من (مضمون) الاعمال الفنية التي برزت من خلال الأشكال الفنية المتلائمة المختلفة .

(رونيه هوج) في كتابه (الفن والانسانية) الذي يعتبر من أهم كتب النقد الفني المعاصرة ، وقد تبنى في اسلوب عرضه لتطور الاشكال الفنيـة أسلوباً جديداً ، ولقد بدأ بدراسة علاقة الشكل الفني بتطور المجتمع ، في مرحلة معينة أو في حضارة معينة ثم ترك لبعض المختصين معالجة هذه الاشكال ، فالتطور الفني لشكل معين لايمكن أن نعزله عن الاطار التاريخي ، الذي انتجه ، ولم يكتف بهذا القدر بل لجأ الى تقديم لمحة تاريخية عن الاحداث الفنية والادبية الهامة في المرحلة ، وأخيراً خلاصة تاريخيـة تصور الاحداث عن التطورات المختلفة لكل الفنون حسب البلدان المختلفة ، وهكذا بدأ بالصورة الشاملة للعصر والتطورات الشكلية الهامة ، وأخيراً تطرق الى الفنانين والاتجاهات الفنية البارزة .

ونرى (هوبرت ريد) في كتابه (معنى الفن) يلجأ إلى تحليل كل مرحلة تاريخيـة ، أو حضارة ليستخلص من دراسته معنى الظـاهرة أو المرحلة ، وهدفهـا الرئيسي مستخلصاً من دراسة الاشكال والتطورات الاجتماعية والدينية والعلمية ، وهكذا نرى النقد يتجه للتحليل ، والى البحث عن المعاني الهامة الشاملة التي يسعى لها الفن في مرحلة ، ودلالة ذلك

عن طريق الاشكال الفنية ، ويمكن ان نقول ان الغاية هي الوصول الى تصور شامل لتطور الاشكال الفنية التي استخدمت عبر العصور ، والتي ترتبط بالمعاني الاساسية التي سيطرت على كل مرحلة من المراحل ، والاوضاع الاقتصادية والعامية ، التي عبر عنها عن طريق هذه الاشكال .

ونصل هكذا الى الثورة الجديدة في مجال (النقد الفني) على الأسلوب التقليدي من الدراسة ، التي تكتفي بالعرض التاريخي للاسماء حسب التواريخ ، ولأهم اللوحات وفق التسلسل المألوف .

ولا شك في أن (النقد المقارن) وسيلة حقيقية ، تساعد (الناقد) على الوصول الى فهم المراحل التاريخية ، وفهم مغزى انتشار الاشكال ، في مرحلة من المراحل ، وفقاً للمضمون المسيطر على هذه المرحلة . ويصل النقد الى دراسة الظواهر الأدبية والفنية والعلمية والفلسفية في علاقاتها المتشابكة مع تطور المجتمع ، وهنا نصل الى اسمى أشكال النقد ، واكثرها تطوراً ، ومعاصرة ، وأبعدها عن الوقوع في أخطاء دراسة الظاهرة الفنية وتطورها على شكل منعزل كما يحلو لبعض النقاد .

ان دراسة اللوحة والفنان والاتجاهات الفنية والمراحل المختلفة التاريخية لتطور الفن ، ومحاولة تحليل كل هذه الظواهر للوصول الى الرؤيا الشاملة لظاهرة العمل الفني ، كل هذه الامور تساعد على الوصول الى وجهة نظر نقدية معاصرة ترى النقد على أنه تحليل للعمل الفني ،وفهم لغاياته القريبة والبعيدة ، وأغراض الفنانين وانعكاسات العصر منها ، مصنفة ضمن اطار من التجارب المتقاربة ، تمكن المشاهد من ان يأخذ فكرة حقيقية عن العمل الفني وعن غاياته المتنوعة . واشكاله المتطورة .

تقاسيم

شعر صلاح عبد الصبور

– ١ –

ماذا يعطيني الزهر ؟
يعطيني بهجته اللونيه
أثواب امرأة تخلص لي العشق

•

ماذا يعطيني الزهر
يعطيني شهقته العطريه
أنفاس امرأة تخلص لي العشق

•

ماذا يعطيني الزهر
يعطيني بعض الحزن
اذ أذكر غيبته الشتويه
أذكر أشواق عيوني لامرأة ،
كانت تخلص لي العشق

-٢-

حين تعرت كالفجر
واشتعلت عيناها كالشمعه
والتفت حولي كالسور
أيقنت بأن الحرف المستور
قد يهبط للتلميذ الصوفي
والطلسم المسحور
قد يلقيه الموج الليلي
للصياد المغمور

-٣-

وأسدلت سحابة شقراء
ستارة السماء
المشهد انتهى ، وتمت الروايه
ينصرف الممثلون في عياء
وجهك ، والخمر ، والمساء
والأسف في الليلة القادمه
سوف يذود الحرس الليلي

شحاذك الفقير
الى ظلام الشارع الخلفي
وربما ترفقوا به ، واسعدوه
بالنوم في الفناء
هناك ، مازال في الهواء
بقية من الاضواء
بضعة أصداء من الحديث والغناء

– ٤ –

واشتعلت تحت مساء عينه المطفيه
وأسعف الخيال
وضاجع الجنيه
والتف في شعورها الطوال
وفي الصباح خيرته بين ان يكون
خادماً لفرشها الى الابد
وان يحور بلبلا ببابها
محدثا بما شهد . .

– ٥ –

ماأشبه نظراتك بالكلمات
ماأشبه كلماتك بالقبلات
ماأشبه قبلاتك بالموت على ثبج الماء

إلى[١] برتولد بريشت المسكين

ترجمة : عدنان بغجاتي

أنا برتولد بريشت من الغابات السوداء أتيت
حملتني أمي وأنا لازلت جنيناً نحو العمران
لكن دمي لازالت تهجع فيه برودة تلك الغابات
وستبقى فيه إلى أن يأتي الموت .

أحس كأني في بيتي في بلد الاسفلت
زودت بما ينعم فيه الموتى منذ ولدت
بالصمت وبالخمرة والتبغ
شكاك ، لاهمة لي ، لكني راضٍ .

صاحبت الناس ومثل جميع الناس ،

وضعت على رأسي قبعة سوداء
أردد : انهم حيوانات نتنة
وأعود أردد : لابأس أنا أيضاً منهم

أجلس في الأصباح على كرسي الخزاز
حولي بضع نساء
أتأمل فيهن بلا خجل وأقول
لاجدوى ، لايعتمد عليّ

وفي الأمساء ألف حوالي الأصحاب
ويلقب كل منا الآخر بالسيد
أقدامهم ترتفع على مائدتي ويقولون
الأحوال ستمضي نحو الأحسن . ومتى ؟ لا أسأل .

تتعرق أشجار الشربين تحت رمادي الأضواء
قبيل الفجر
وتعلو صيحات الحشرات على هجات الطير
أفرغ في تلك الساعة في البلدة كأسي
وأنظف غليوني وأنام بلا استغراق

مانحن سوى جنس قـُلـَّب
نحيا في أبنية نحسبها باقية أبد الدهر
(كشواهق شدناها في مانهاتن
وهوائي يجتاز حدود الأطلنطي)

لن يبقى من هذي المدن سوى ريح تصفر
أضحت خالية تلك الدور المغمورة بالبهجة
إنا نعرف أنا لسنا إلا شيئاً عابر
وغداً لن يخلفنا غير يباب .

آمل حين يحل الزلزال القادم
ألا أسمح للخيبة أن تطفيء ومضة سيجاري
أنا برتولد بريشت أهيم على وجهي في مدن الاسفلت
منذ زمان ، وأنا في أمي لازلت ، من الغابات السوداء أتيت

لقاء



مع
كوليت خوري

– هل أنت أديبة أم امرأة ؟

– أنا أنا . فأديبة معناها مفكرة . وامرأة حسب سؤالك ، معناها انثى . أنا هذا الصراع المستمر بين الاثنتين ، الصراع الذي يعطي المرأة الحقيقة .

– أي أن مفهوم المرأة الحقيقية في نظرك مزيج بين الانوثة والفكر ؟

– طبعاً . والتوازن بينها . فاذا طغى الفكر « استرجلت » المرأة واذا طغت الانوثة « ماعت » المرأة .

– هل سبقتك امرأة أخرى الى مثل هذا التوازن ؟

« ضحكت وهي تجيب » :

– حواء ، على ماعتقد، اذا صدقت الاسطورة،واذا لم تكن حواء هكذا فيجب أن نجعلها كذلك .طبعاً ، هناك كثيرات بعد حواء .. وهن بنات حواء بالطبع .

– والاديبة منهن ؟

– كلمة « الأديبة » ليست هي الكلمة المهمة . المهم هو أن تكون شخصية المرأة قوية . وأن تكون ذكية . وهذا الذكاء ، وهذه الشخصية قد يتجليان في الأدب أو في الفن أو في العلم أو في الحياة .

– بما أن للشخصية الأنثوية خصائصها ، إذن فللأدب الانثوي خصائصه أيضاً . هل توافقين ؟

– يامحيي الدين . أعتقد أننا في عالم الأدب، في هذا البلد ، انا وانت ، نعتبر من المحاربين القدماء . فقد ابتدأنا الطريق الطويل معاً ، وفي الوقت نفسه . أما آن لك ياصديقي أن تعلم ، وأنت الناقد ، ان هناك أدباً أو لاأدب ؟ وان هناك فناً او لافن ؟ وأن هناك جمالا أو قبحاً ؟

– حين نعامل الأدب النسوي كانتاج تقلن لنا هذا ادب نسائي ..

قاطعتني

– اشرح لي من فضلك ، من تعني (نون النسوة) في كلمتك « تقلن » .

– الكاتبات ، والشابات خاصة .

– ألا تعتقد أنني كاتبة ، وهل تظنني هرمت ؟ مازلنا بعيدين عن الاربعين.فمن هن الكاتبات والشابات ؟ أرجوك ، اشرح .

ارتبكت . فأنا أ كلمها وفي ذهني مجموع الجو الذي يعطي للمرأة مكانة خاصة ، حتى على حساب القيم الأدبية — وهي قيم قل ان يعترف بها أحد أصلا . قلت :

— نحن ، حقاً محاربون قدماء . ولكن ماننكره على الناس لايلزمهم . أعني اننا اذا رفضنا مصطلح « الأدب النسائي » فهل هذا ينفي وجوده من أذهان الناس؟

— ومتى ، في تاريخ الادب في العالم ، وضع الناس مصطلحات للادب ؟

بعض النقاد يخترعون هذه المصطلحات فيحفظها الناس اما لأنهم كسالى لايريدون البحث عن غيرها . واما لأنهم معقدون ، يريدون ان يبدوا مثقفين ويعتقدون ان الثقافة هي ترديد بعض الكليشهات .. والبعض يحفظونها لأن الموضوع لايهمهم ..

— مادمت أنت ترفضين الخوض في هذا الموضوع : فلنسألك عن انتاجك بالذات؟

— سأحدثك عن انتاجي ، بعد أن اسألك : من أخبرك أنني أرفض الخوض في هذا الموضوع بعد هذا الجواب الطويل ؟ أسلوبك هذا يذكرني بساحر التقبيت به منذ اسبوعين . قال انه سيحضر الجن . فلما وجدني مررت للامر ، وفتحت صدري لاستقبال الجان ، قال انهم رفضوا أن يأتوا لأنه اخبرهم انني لااحتمل قدومهم . وعلى هذا ، أنا لاأرفض الخوض في أي موضوع يتعلق بالنقد والادب . أنا لها ، فلاتهرب.

— كثيرون يرون أن هناك علاقة بين أعمالك الادبية وحياتك الشخصية . فما هي حدود العلاقة بين الادب والتجربة الذاتية ؟

— لو طرح عليّ هذا السؤال منذ عشر سنوات لاعتبرته طبيعياً . فالناس يرفضون أن يعترفوا رأساً بأن الفنان مبدع بالدرجة الاولى ، وليس في حاجة الى حياته الشخصية ليخلق تجربة على الورق .

أما بعد هذه السنوات الطوال . وبعد انتاجي الذي تراكم في اثني عشر كتاباً فما على القارىء الا أن يقول : ما أغنى حياتي .

سكتت قليلا ، ثم قالت :

— طبعاً لم أجب عن سؤالك بشكل جدي ، وأتركه لك فأنت ناقد ، وصديق. أي أنك تعرف انتاجي وحياتي فلا تتعبني بأن أحصر أفكاري وأحــدثك عن الحدود بين الاثنتين . وهذه مهمتك أصلا . اتركني لابداعي وانصرف أنت الى نقدك ونقدي ..

— غير أن ناقداً وجد في « المرحلة المرة » مماثلة لوقائع معاشة ، على الرغم من أن هذه الرواية صدرت في مرحلة متأخرة (١٩٦٨) .

– ما استطعت يوماً أن أنسلخ عن بيئتي ومجتمعي ومدينتي والوطن . ما استطعت يوماً أن أغني اذا كان قد ارتفع في ذلك اليوم صراخ من بيت مجاور . ما استطعت يوماً أن أضحك اذا كنت في ذلك اليوم قد رأيت وجهاً أعرفه يبكي. أنا انسانة مختلطة بذرات هذه المدينة . لطالما بكيت معها ، ولطالما رقصت معها ، ولطالما اغتربت معهـا وفيها . فلا تسلني ماهي الحدود بين تجربتي وكتاباتي .. أنا جزء من هـذه المدينة ومن هـذا الوطن . وحـين أكتب عن أي شيء في العالم ، مهما كان بعيـداً ، يظل قلبي يزرع بين الاحرف والسطور آهاتي الشخصية وابتساماتي التي هي انعكاسات لهذه المدينة .

– هل تطمحين الى جعل دمشق أسطورة أدبية كما صنع لورنس دريل بالاسكندرية في رباعيته الشهيرة ؟

– دمشق ، من دون أن أتكلم عنها ، أسطورة . فيكفي أن تكون أقدم مدينة مسكونة في التاريخ . أما عن دمشق بأصدقائي ، فقصتها معي قصة .

ونهضت كوليت وأحضرت مخطوط روايتها الجديدة . أنقل منها هذه الصفحة :

« .. دمشق في الصيف .. ورائحة الياسمين حين يعبق بها الجو .. كالمرأة المعطرة حين تعرق بين ذراعي رجل ..

دمشق في الصيف .. والغبـار الذي يعشش في النسيم .. كامرأة طوقت جيـدها والزندين بالشذى .. واتشحت بالخضير .. ولابت في الصحراء تبحث عن حبيب ..

دمشق في الصيف .. والمياه الجارية أبداً رغم الشموس المحرقة ، كالمرأة التي تبكي أبداً لأنها تتحرق لهفة وشوقاً وحباً ..

دمشق .. المرأة الأزلية .. كما تعيش في خيالي وحدي .. كم مرة بحثت عنها في الواقع فما وجدتها ..

وجدت امرأة مذعورة النظرات ، ممزقة الملابس .. أعطوها فجأة مـالاً وأماناً وحباً .. فسرقت المال ولم تشتر الملابس وهزئت بالأمان وتاجرت بالحب .. وظلت تعيش بأوهامها في سجن قديم متهدم !.

تعبت من خيالي يعمر دمشق

وتعبت من دمشق تدمر خيالي »

قلت لها ،

— هذه هي دمشق في الواقع ... ولكن واقعها لايختلف عن واقع أية مدينـــة أخرى ، وان كان حبنا يختلف .

— طبعاً، حبنا هو الذي يختلف ، وواقعها يختلف عن واقع دمشق التي في خيالنا نحن . أنا أصلا لا أريد أن أقارنها بمدينة ثانية ، فدمشق وحدها مدينتي .

— هل تتسع دمشق — الواقع أو الحلم — للانسان العربي الذي نحلم به .. انسان التحرير والتطوير ؟

— أصغر حي وأصغر بيت وأصغر كنّ في دمشق ، يتسع للانسان العربي الذي نحلم به . فالمكان يكبر بسكانه ..

— لكن التخلف أين يقع ؟

— لو لم نكن نعيش في تخلف لمـا حلمنا بانسان التحرير والتطوير ... أليس كذلك يا محيي الدين ؟

— ولكن لكل أديب صورة مثلى لمجتمعه وأبطاله .. فما هي صورتك عنها ؟

— ظننتك ستقول : لكل أديب هفوة ولكل جواد كبوة . وعلى ذكرهذا المثل: هل تعتبر أنت كناقد أن الصورة التي في رأس الاديب هي هفوة لأنهـا تمنعه من رؤية الواقع كما هو ؟

— أنا أرى أن الصورة التي يكونها الأديب عن مجتمعه تؤثر أعمق التأثير في الصورة المثالية التي تتخلل أدبه ويبشر بها في انتاجه . ان هذا التبشير ضئيل في أدبك ..

— اذا اعتبرنا أن الأديب هو نبي صغير ، فقط ، فأنا لست أديبـة . أما اذا اعتبرنا أن الأديب هو فنان فأنا قطعاً أديبـة . والذي تسميه أنت « التبشير » أسميه أنا «الوضوح» أو التوضيح . أنا أظهر المجتمع كما هو ...وأبين علله ... وعلى المصلحين أن يجدوا الدواء للداء الذي اكتشفت .

— ما هي صورتك عن انسان المستقبل ، في العرب والعالم ؟

— كتبت هذه الفكرة في قصتي « دمشق بيتي الكبير » : انسان الغـد في الوطن العربي انسان بأربع عيون ، سوف تزرع له عينان اضافيتان . فالعينان اللتان نملك هما للبكاء ، يلزمنا يا صديقي عينان اضافيتان لنرى .

— وهل ترين أننا لا نرى ؟

— ان كنا لا نرى فتلك مصيبة وان كنا نرى فالمصيبة اعظم .

— وماذا ترين ؟

— أرى ما يراه كل انسان متحضر ، يعيش في بلاد متخلفة ، هي ، للأسف ، بلاده . اذ أنه ليس مشكلة أن يعيش الانسان المتحضر في بلاد متخلفة ليست بلاده ، ربما كان هذا مريحاً ، أما اذا كانت بلاده ، فتلك مأساة .

— وهل أنت متحضرة ؟

بدون تردد :

— قطعاً .

— والدليل ؟

— الدليل أنني أعلم أن المواطن في هذه البلاد، عليه أن يقاتل ليلاً نهاراً لينال واحداً من عشرة من حقوقه . فكيف يستطيع مواطن كهذا أن يعطي وأن يبدع وأن ينبغ وأن يتقدم ، حين يكون همه الوحيد الدفاع عن نفسه .

— وما هي ، في نظرك ، واجبات المثقفين تجاه مثل هذا الوضع ؟

— مأساة معظم المثقفين أنهم جبناء ، يشورون أيام الرخاء ويزيفون أنفسهم (وفي أحسن الأحوال يصمتون) أيام الشدة .

— ألا يقودنا هذا الى المفهوم اللفظي الذي ينادي به ادعياء الثقافة من أن الكلمة رصاصة ؟

— الكلمة ، عندما ينطق بها الأديب ، كلمة . لكنها تصبح رصاصة عندما يستوعبها القارىء . ليس القتال – بمعناه الجسدي – مهمة الاديب . مهمته الاولى أن ينير درب القتال الصحيحة للآخرين اذ لا يكفي أن يقاتل الانسان قتالاً أعشى بل عليه أن يعرف لماذا يقاتل . وهذه هي مهمة الأديب .

— هل تعتبرين نفسك أنك قاتلت من خلال سيرتك الأدبية ؟

— وجودي في هذا الوطن قتال . أنا مؤمنة بآراء وبمبادىء ، حاولت شرحها في كتاباتي . وتحملت من أجلها ما تحملت . فمنذ كتابي الأول طالبت بتحرر المرأة الاقتصادي الذي يؤدي الى التحرر المعنوي . أنا أريد أن تعمل المرأة وأن تكسب عيشها ، ثم يصبح من السهل أن تتحرر معنوياً . كان هذا في كتاباتي الأولى ، حيث لم أعالج إلا موضوع المرأة . أمـا الآن فأنا أريد أن يتحرر الانسان في وطني ، لم تعد المشكلة مشكلة المرأة وحدها . المشكلة أكبر . إنها مشكلة كيان الانسان العربي في داخل الوطن وخارجه .

— هل انت بورجوازية ؟

— كلمة بورجوازية تطورت كثيراً خلال التاريخ البورجوازي . فيأوروبا كان يعني ساكن البورج (القرية الكبيرة) : هذا الفلاح الذي اغتنى وجاء الى المدينة . أصبح مفهوم البورجوازي عندنا ساكن المدينة .. هذا شرح عابر لكلمة بورجوازي هذه الكلمة التي يجهل معناها ، لنقل ٩٩٪ في الوطن العربي .

أما عني ، فأنا لست بورجوازية . انا من هؤلاء القلائل في العالم الذين لاينتمون لطبقة لأنهم اصيلون يؤمنون بالانسان ويحترمون الانسان هؤلاء القلائل الذين يلتقون على الرغم من اختلاف منشئهم وبيئتهم وطبقاتهم ، أولئك الذين اسميهم أنا « النخبة » ومن خلال كتاباتي تستطيع أن ترى انني انتقدت الطبقة البورجوازية لانني كنت اعرفها ، وسأنتقد الطبقة الكادحة لأنني صرت أعرفها . أنا غريبة عنها .

— هل يصح أن نصفك بأنك « غريبة » أو « لامنتمية » .

— هناك فارق كبير بين الكلمتين . أنا غريبة فعلا ومنتمية حقاً . كنت غريبة لانني كنت أحس ذلك ثم اصبحت غريبة لان الغربة فرضت علي فرضاً .. وأرادوني ان احس ذلك . أما في الوقت الحاضر ، فقد اصبح موضوع الغربة عندي قديماً ، ربما لان غربتي تضاءلت ، وربما لانني تعودتها ..

أما عن الانتماء فانا منتمية لقضايا كثيرة منها هذه الامة وهذه الارض. جذوري راسخة في هذه البقعة من الكرة الارضية .

— أشعر بأن الانتماء للأمة أرسخ من الانتماء للأرض ، خاصة في هذه المرحلة ..

— شاء حسن حظي ان تكون امتي وأرضي واحدة .

— الأمة تمثل تراثاً ومبادىء وقيا لمجتمع . فما موقفك من التراث مثلا ؟

— انا دائماً احترم واقدر تراث الامة الادبي والفني والحضاري .. لكنني مؤمنة بأننا يجب ان نتطور والا نجعل من تراثنا معبداً نسجد فيه وننحني مقدمين له الحاضر والمستقبل ضحايا . تراث الامة يجب ان يكون دافعاً ، بل هو رصيد تتمول منه الامة لتحسن حاضرها وتمهد للمستقبل .

— هل تحبين عملك في التدريس الجامعي ؟

كثيراً . أنا احب الطلاب لأنهم أمل المستقبل . الشباب دائماً أمل . وفي أحلك الأيام اشعر بسعادة اذا اجتمعت بالطلاب . تفتحهم للغد يعزيني. وصفاء نفوسهم يسعدني.

– وماذا عن الجامعة كمؤسسة ثقافية ؟

الجامعة وماأدراك ماالجامعة . اعفني من الجواب .

– كنت تشكين من جبن المثقفين قبل قليل ! ..

– احياناً أفضل اللباقة .. هذا ليس جبناً .

– هل تشعرين بأن لديك أحاسيس او مطامح أدبية لم تستطيعي بعد أن تعبري عنها ؟

– حتماً .. وحين أصبح قادرة على التعبير عن كل ما يجيش في نفسي من أحاسيس ومشاعر وأفكار أصبح أديبة كبيرة . ما زلت احس بأن الكلمة أصغر بكثير من الأحاسيس .

– هذا رهان على مستقبل ..

– لا أحب أن أراهن . أحب أن أتحدى . ففي الرهان يلعب الحظ ، أما في التحدي فتكون الارادة والثقة .. لنقل انه تحد .

الدكتور عبد السلام العجيلي

موعد مع المجهولة

(انتهى الدكتور عبد السلام العجيلي مؤخراً من كتابة روايته الجديدة الكبيرة التي سماها « قلوب على الاسلاك » ، وهو يعدها لتنشر على القراء في مطلع الموسم الثقافي المقبل . وفي مايلي تنشر المعرفة من هـذه الرواية فصلين قصيرين اخترنا لها هذا العنوان :

اليوم التـالي كان يوم سفر عمي . ترك سيارته وغادرنا في الصباح الى بيروت ليأخذ الطيارة الى القاهرة، بينما أشعنا في المؤسسة انه مسافر الى أثينا .. كما كان هـذا اليوم

يوم موعدي مع المجهولة عند مدخل سوق الحميدية .

ممدوح لم أره في الصباح . لقد ظل في الجانب الاخر من غرف المكاتب، كأنه تعمد أن يبتعد لئلا أظن به أنه يريد أن يخلط بين العلاقة الشخصية والرسميات ، أو كأنه لم يجد حجة يدخل بها مكتبي مادامت هدى قد عادت الى غرفتها وعملها، ومثلما كان غياب سكرتيرة عمي مفتقداً في الامس فان حضورها اليوم كان بارزاً بالنشاط الذي أشاعته في مكاتب الادارة وبين الموظفين الأخر . وقد حملت الي في هذا الصباح البريد ، فعلها كل يوم ، تلفعها رقتها وتسبقها ابتسامتها ، ولكن شيئاً في تصلب القامة المعتدلة وفي اقتضاب الحديث المهذب منها كان يوحي بأن ثمة تغييراً قد طرأ على سلوك هذه السكرتيرة المؤتمنة حيالي أو في موقفها مني . وفطنت الى دافع هذا التغيير فلم أملك نفسي عن أن ابتسم . لا بد انها طريقتها في افهامي اني اليوم ، بغياب عمي ، المدير الذي يصدر الأمر اليها ولا يلتمس المعونة او المشورة منها . ذلك أمر لم يدر بخلدي أنا ، فتعمدت هي أن تنبهني اليه وأن تدخلني في دوري . وحين ادركت هذا اعتمدت بيدي على حافة المنضدة دافعاً مقعدي ومائلاً بجسمي الى الوراء ، كما يفعل رجل أعمال متبجح بمركزه أمام مرؤوسيه ، وقلت في جد :

ـ تفضلي بالجلوس .

فارتفع ملتقى شفتيها في اليسار بنصف المليمتر المعهود ، مبتسمة ، وقالت وهي تجلس مستقيمة على مقعد وراءها :

ـ شكراً .

قلت :

ـ هل آمر لك بقهوة ؟

قالت :

ـ أشكرك . شربت قهوتي في الغرفة قبل أن أفض البريد .

وكأنها أحست بأن شيئاً ما ، فكاهياً ، يتسرب الى موقفي منها فاتسعت ابتسامتها شيئاً قليلا وقالت منبسطة :

ـ أي خدمة .. أي أمر خاص يا طارق بك؟

قلت :

ـ نعم .. طريقتك في معاملتي لاتعجبني يا آنسة هدى

ـ فبدا عليها انها بغتت بما نطقت به وقالت :

ـ العفو .. أنت الرئيس وأنا المرؤوسة.

قلت :

ـ هذا لايمنع انك تنصبين نفسك استاذة تلقنني كيف يجب أن أكون رئيساً .. رئيساً لك ولغيرك . اصرح لك بانني مللت دور التاميذ ..

قالت :

ـ أنا آسفة اذا كنت أزعجتك ، وليس قصدي مطلقاً أن ازعجك . ارجو أن تدلني على مايضايقك مني .

قلت :

— أفعل بكل سرور . قبـل كل شيء تضايقني هذه الطريقة في الكلام . لقد كنت فتاة أخرى منذ أيام بين أهلك يا آنستي ارجوك أن توسعي ابتسامتك بضعة مليمترات أخرى .

فضحكت ضحكة رقيقة شعرت انها نبعت من قلبها وقالت :

— لا أريـد أن أخلط بـين العمل والخصوصيات . هكذا علمني أبي .. وعمك .

قلت :

— لا شك في هذا . أمس كنت مع ممدوح ابن احمد افندي . جلسنا في مقهى واحـد وتحدثنا في أمور شتى ، وتجادلنا وضحكنا ، وتسايرنا طويلاً في طريق واحدة . ولكنه اليوم لم يمر علي ، ولم يلق علي تحية الصباح . اظنه كذلك لا يريد أن يخلط بـين العمل والخصوصيات . انها تربية عمي لكل من في المؤسسة على ما يبدو ..

قلت :

— احمد افندي رجـل جاد ومستقيم ، وابنه شاب مهذب .

قلت :

— كلكم جادون والحمد لله ، وليس بينكم من هو هوائي غيري أنا . ولهذا فاني اريـد أن اخرج عن الرسميات وأحدثك بشيء خاص . لقـد وصلتني في غيابك دعوة الى حفلة افتتاح الأمسيات الأدبية في صالون السيدة نهاد رمزي .

فسكتت قليلا ثم ضحكت ضحكة ليست في صفاء الضحكة الاولى وقالت :

— هذا جميـل ... من سوء الحظ أن عبد المجيد بك غائب عن البلد ، اذن لسر بحضور حفلة زوجة صديقه حليم بك . على أنك انت فيـه البركة وستنوب عن عمك . وكما تأمر فاني اريد أن أجاريك في الحديث في الأمور الخاصة .. انتظر .. سأخطو فيها خطوة واسعة ، اهنئك على حسن تفصيل هذه البدلة الجديدة وعلى ملاءمتها للون بشرتك .

قلت :

— الآن سررتني .. سررتني وشجعتني على قول ما كنت أديره في نفسي ولا انطق به ، جمال ذلك الفستان المشجر الذي بدوت فيه تلك الليلة في منزل أهلك .. وجمالك فيه !

فأطلقت من حنجرتهـا ضحكة اخرى رقيقة وقالت :

— ذلك الفستان هو هدية عمك .. هدية منه لي في عيد ميلادي .

ثم نهضت من مقعدها ، فخيـل الي أن وجهها قـد تضرج بحمرة خفيفة ، وهي تقول :

— أرانا ابعدنا في الخصوصيات ، وبذلك أهملنا العمل . هل يمكنني الذهاب الآن ؟

قلت :

— بدون شك ..

فعادت ابتسامتها الرقيقة ، التائهة بين السخرية والسرور ، الى شفتيها وخطت بمشيتها المستقيمة نحو الباب المشترك . وقبل أن تدلف الى غرفتها التفتت الي وقالت :

— بالمناسبة اختي ماجدة كلفتني أن اعتذر اليك عما رأيته من تجاوز على المألوف في احاديثها تلك الليلة .

الواقع، ان ماقالته ليس اعتذاراً بالمعنى الصحيح .. لقد كلفتني أن أشرح لها مبرراتها في التحدث بتلك الأحاديث . وهذا الشرح يطول ، لذا فقد اتفقنا على دعوتك الى أن تشاركنا العشاء في المساء الذي تختاره ، ما دام عبد المجيد بك غائباً وانت أكثر حرية ..

قلت :

— أتشرف بقبول هذه الدعوة ؟ متى أردتم فأنا حاضر .

قالت :

— العفو . ليكن ذلك غداً ،. موافق ؟ وشيء آخر : هل تريد مني عملاً خاصاً بعد ظهر اليوم ، اذا كنت ناوياً على الحضور الى المكتب؟ أنت تعرف أن ليس كل موظفينا يداوم بعد الظهر ،الا أنيأنا سأحضر وسأبقى حتى الساعة الثامنة ،. اذا لم تكلفني بالتأخر الى أبعد من ذلك .

ضحكت وقلت :

— هل اكذب عليك أم عـلى نفسي ؟ يا آنستي أنا لا ازال منك في موقف المكلف لا المكلف . تسأليني عن بعد ظهر اليوم ؟ لا، لن احضرالى المؤسسة بعد ظهر اليوم .. الا اذا كان لديك عمل خاص لي .

فانسعت ابتسامتها من جديد ، وهزت رأسها ، وخرجت بعد أن أغلقت بيننا الباب المشترك .

وكنتمقرراًأن لااحضر بعد ظهراليوم، لاني في الساعة الخامسة سأكون عند مدخل سوق الحميديةفيانتظار قدوم المجهولة.وتمنيت لو اني حدثت هدى بحديث هذا الموعد . لقد قلت لها مساء السبت ، حين المحت هي الى المكالمة التي جاءتني من تلك المجهولة ، اني لاأعرفها . قلت لها بذلك بعض الحق،ولكني لم أقل لها الحق كله حين كتمت عنها خبر اللقاء الذي اتفقنا عليه . انها اعني هدى ، برجاحة عقلها ، وذكائها وحسن اطلاعها على جوانب مختلفة من الحياة جديرة بأن تجربني بما لاخبرة لي فيه في هذه المدينة التي تتكشف لي ارجاؤها في كل يوم عن جديد . ولكن ، هل استطيع ان استعينبهدى في هذا الأمر استعانتي بها في أمور الادارة في المؤسسة ؟ وأي غر من الرجال يكل نفسه في هذا الى رأي امرأة ، أو يفضح سريرته لفتاة جميلة ، رقيقة العاطفة ، ولو كانت اكبر منه

بثلاث سنين او اربع او كانت مديرة لمصالحه او مدبرة لأموره ؟ لعلها كانت تسخر مني لو اني حدثتها بأمر موعد اليوم . أو لعلها كانت تغار .. فالنساء هن النساء دوماً . ألم احدثها عن دعوة نهاد رمزي التي تطلب مني فيها ان القي شعراً في امسيتها ؟ .. ولكن هذه غير تلك، ودعوة السيدة نهاد هي غير موعد مع منكامة متكتمة على نفسها ، رقيقة نبرات الصوت ، في مكان غير مألوف للمواعيد.

لم اخبر هدى على كل حال بالذي يمنعني عن العودة الى مكاتب المؤسسة بعد الظهر . فلما قاربت الخامسة ، بل قبل ان تقاربها بكثير، عبرت المفرق الذي لم اعبره امس حين وقفت اتطلع الى النـــاس في ملتقى شارع النصر بالدرويشية، ودخلت السوق ، سوق الحميدية. افكار الامس عن العالمين المتباينين في ضغط الهواء وطريقة العيش واسلوب الانارة والعمر التاريخي ؛ عالم خارج السوق وداخله ، زايلتني حين امتزجت بالناس المندافعين في الجادة الظليلة وعلى ابواب المخازن الغاصة بالبضائع من كل لون وشكل . لم اعد متفرجاً كما كنت بالامس ، بل امسيت واحداً من ابناء الحياة ، مثل ابنائها الآخرين ممن جاءوا الى السوق يشترون منه حاجاتهم، او يتخذونه طريقاً الى مقاصدهم ، او يقطعون فيـــه اوقاتهم ، او يضربون فيه مواعيدهم وكان يشغلني عن الانتباه الى ماحولي والتفكير فيه تطلعي بين حين وآخر الى الساعة في معصمي حذراً من ان اكون بعيداً عن المدخل حين تشير عقربها الى الخامسة تماماً . وخرجت اخيراً من الترقب والتردد بأن وقفت عند زاوية الرصيف ، امام بائع الدخان ، امد بصري الى المكان الذي اتوقع ان تجيء المجهولة منه ، من اخر شارع النصر ، واحاول ان البس الصورة التي رسمها لها خيـالي اشباح النساء القادمات من بعيـــد ، من سافرات ومحجبات ، ومن صبايا في مقتبل العمر او نساء نصف، ومن سائرات على اقدامهن او نازلات في المواقف من السيارات والاتوبوسات . . . وكلما طال ترقبي رفعت رأسي الى اعلى ومددت بصري الى ابعد ، كأني اتوقع ان اعرف المجهولة من لمحة واحدة مهما كان البعد الذي يفصل بيني وبينها .

وخيل الي ان دهراً قد انقضى وانا في ذلك الترقب . وفجأة تناهى الي عن يميني صوت يقول :

— مرحبا!

فالتفت كالمبغوت . كان الصوت رقيقاً ، وكانت صاحبته امرأة ، بل فتـــاة تلبس ثوباً أسود ، شعرها أسود ، ولها عينان تلمعــان كأنهما تضحكان . كان ذلك أول ما انطبعت به صورة مخاطبتي في مداركي ، رداء أسود جيد الحبك على قامة طوية ، وشعر أسود غزير غير مجعد ولا مصفوف

عند مزين، ملتف على قمة الرأس كأنه عمامة خفيفة ملائمة عليها ، وعينان لامعتان ... عينان حلوتان ! أما الصوت فانه صوتها بذاته ، صوت المجهولة . لم أدر أي بلاهة سيطرت علي فجعلتني اسكت ولا أرد لها التحية، فعادت تقول وعلى شفتيها ابتسامة:

— مرحباً . هل تأخرت عليك ؟

فتطلعت بعفوية الى ساعة يدي . كانت الخامسة ودقيقة واحدة .. وأنا الذي ظننتها قد جاوزت الخامسة منذ ابد ! استدركت وقلت مسرعاً :

بل بالعكس انت على الموعد تماماً . لاتؤاخذيني . مرحباً .. مرحباً ، وكيف حالك ؟

قالت :

— على ما يرام . رأيتك ، وأنا قادمة من السنجقدار ، تتطلع الى شارع النصر . كنت تترقبني . أكان ممكناً أن تتعرف علي لو اني قدمت من هناك ؟

فتطلعت اليها في هذه المرة تطلع المتفحص . كيف فاتتني رؤية هذا الوجه وهاتين العينين في حفلة السيدة نهاد ؟ قلت :

— ربما عرفتك من عينيك لو رأيتهما تتطلعان الي .. انها تتحدثان بفصاحة .

اتسعت ابتسامتها وهي تقول :

— لايخطيء احد في الحكم بانك شاعر . هل نتمشى ؟

ولم تنتظر جوابي، بل استدارت وسبقتني بخطوات ودخلت الى السوق فتبعتها .

سايرتها في الزحام وفي الضجيج اللذين ملآ السوق . ولم يكن سهلا لاثنين لاتزال المعرفة بينهما جديدة أن يتبادلا حديثاً في ذلك الجو ، فاكتفينا بتبادل النظرات بينما كانت هي تسير مسرعة الخطو . وتركتها مرات تسبقني ، مغتنما تخلفي عنها لامعن النظر في هيئتها ، في مشيتها وفي ماترتديه . ادركت ان سواد ثوبها وكل ما تلبسه كان سواد حداد .. على من ؟ وكان يلتمع في بنصر كفها اليسرى خاتم .. هي متزوجة اذن ! وادارت رأسها إلي بسرعة وعصبية ، فلما رأت بصري مثبتاً عليها ضحكت عيناها الحلوتان بأكثر من ضحكها لما التقينا . وبلغنا أول عطفة في السوق من جانبه الأيسر فتوقفت عند الزاوية وهي تقول :

— أين نذهب ؟

قلت :

— ظننتك لاسراعك تقصدين مكانا معيناً . على ما أعرفه ليس في هذا السوق مكان يستريح فيه الانسان من تجواله إلا محلات بائعي البوظة والمهلبية ..

وأشرت برأسي الى محلين من تلك المحلات كانت تلمع في داخلها الأنوار ، ويرتفع منها صوت الغناء المسجل ، وتصطف في واجهاتها صحون الحلويات الحليبية . قالت جادة :

— وهل تراها مكاناً يليق ؟

ضحكت وقلت ،

— اذن فأنا أعرف مكاناً آخر في نهاية السوق .. في الجامع الأموي ! ما رأيك في أن ننضم الى المستمعين الى حلقات الدرس حول احدى اسطوانات الجامع ؟

قالت ،

— لاتكن خبيثاً . في صغري زرت الاموي مرات . ومنذ عامين دخلته مرافقة لصديقة اجنبية ، فألبسوني عباءة لفتني من رأسي الى قدمي . لا ، ايها العزيز ، يكفيني السواد الذي انا فيه ..

لم اكن اعرف مبعث السواد الذي هي فيه ولكني كدت أقول لها انه كثير الملاءمة لها . غير اني احجمت خيفة ان تتشاءم وان تتطير ماأقوله . لم يسيء السواد الى لون بشرتها الخمري بل احسن ابراز التوقد الذهبي في وجنتيها والتماع الاشعة الضاحكة في عينيها، كما تلاءم مع كتلة الشعر الفاحمة المحيطة بقمة رأسها . وكأن نثرة من سواد الثياب تتطاير فتحط عند اصل الوجنة اليسرى كلما اتسعت ابتسامتها او تكلمت فتباعدت شفتاها ، اذ ترتسم عند ذلك في تلك الوجنة غمازة ظليلة كزينة رائعة في الوجه الجميل . قلت ،

— الصحيح انك شدهتني على التلفون، ولم تتركي لي مجالا للاختيار . كان يمكن ان نلتقي في أي مكان من المدينة ، او على الأقل ان آتي بالسيارة فنجول بها وتحدثيني بما تريدين كما تشائين .

قالت ،

— أي سيارة؟ سيارة عمك البلايموث ؟

قلت :

— وتعرفينها ؟

قالت :

— سيارة عمك ؟ نعم ... اعرفها . وهي ، مثل محلات بائعي المهلبية ، مكان لا يليق . عندي اقتراح غير هذا ... هل ركبت الترام في دمشق ؟

ضحكت وقلت ،

— ما شأن الترام بنا ؟

قالت :

— لا يزال في دمشق ترام يسير بين المرجة ودوما . تعال نذهب الى دوما ...

ولم تنتظر مني جواباً بالموافقة أو الرفض ، بل انعطفت الى الشارع الجانبي الصغير الذي كنا وقفنا عند رأسه نتبادل هذه الكلمات ، فخرجنا بذلك من ضجة - سوق الحميدية ودخلنا سوقاً آخر ضيقاً مليئة دكاكينه بالآنية الزجاجية والأدوات المنزلية، ثم تسربنا منه الى أزقة متشابكة قليلة الرواد . وتبعتها في ذلك ساكتا وهي تسير مسرعة كشأنها اول دخولنا سوق الحميدية . ضحكت بيني وبين نفسي في أول الأمر معجباً من تصرفها ، ثم أخذ الحنق يتسلل

الى نفسي من فرضها علي متابعتها دون أن تحسب حساباً لرأيي ، مما ذكرني بطريقتها التسلطية في محادثتها لي بالهاتف . سبقتها في الخطو عند أحد المنعطفات المهجورة، ونحن في سيرنا المسرع، ثم استدرت اليها ساداً عليها الطريق وقلت :

ـ أنت من تكونـين ؟ لم أعرف من أنت بعد يا سيدتي ...

قلت ذلك مبتسماً ، ولكني قلته في جد. فتطلعت حولها في الاتجاهين تطلع من يستوثق بأن واحداً لايسمع ماتقوله ، ثم ابتسمت لي ابتسامة آسرة ، وأجابت :

ـ أنا صفية . أنا صفية وأنت طارق . ألا يكفي هذا ؟

فشعرت أنها بابتسامتها وبهذه الكلمات التي تلفظت بها قد سكبت البرد في صـــدري وأذابت من صدري الحنق . وتابعت هي القول :

ـ الطريق الى دوما طويل ، والترام سيره بطيء .. سنتحدث كثيراً .

فلم أملك نفسي عن أن أضحك لفكرة ركوب الترام والحديث فيه ضحكة قصيرة أجابتني هي بمثلها . ثم مدت الي يدها قائلة :

ـ على فكرة.. نحن لم نتصافح في مدخل السوق . الفضوليين هناك كثر . هات يدك الآن ...

فمددت يدي واحتويت بكفي كفها الدنئة دافئة حريرية الملمس . أين ذهب ذلك الحنق الذي كان يأكل صدري ؟ امتلأت نفسي غبطة واستدرت في مكاني مخلياً لها الطريق لتسير وأسير معها .

لم أكن على معرفة واسعة بهـــذا الجانب القديم من مدينة دمشق . تصورت أننا كنـا نمشي في محاذاة أسوار القلعة القديمة في جانبها الشرقي ، واننا في سيرنا كنا نتحدر في هـذه الأزقة العتيقة والضيقة ، البعيدة عن نظافة الأحياء الجديدة ، نحو خط الترام المتجه نحو القصاع ، ولكن في الاتجاه المبعد عن الموجه صفية .. صفية من ؟ سألت نفسي هذا وأنا أتطلع إلى مرافقتي فأرى أن سيرها في أناقتها الحزينة ، في الأسواق التي انتهينا اليها بعد الأزقة والتي تبيع مخازنها علف الحيوانات وبالات الجيش وطعام الفقراء ، مستغرب أكثر بكثير من سيري أنا . وماذا تريد مني صفية الحزينة هذه ؟ ولكن مهـلا .. ولا تستعجل الأمر ياطارق .. ستأخذان الترام الى دوما بعد قليل ؛ والترام ذو سير بطيء والحديث فيه طويل !

وكما توقعت انتهى بنا سيرنا الى الطريق المؤدية الى القصاع ، في مكان قريب من حي العمارة . وانتظرنا الترام تحت اشارة وقوف قريبة الى أن جاءنا يتهادى قادماً من المرجه ، فقفزت هي اليه في خفـــة . وعلى المقبض المعدني الذي يمسك به الراكب في صعوده الى الحافلة لامست كفي كف صفية ، فالتفتت

إلي وأنا أنتظر صعودها لاصعد وراءها ، وابتسمت من جديد ابتسامتها الاسرة .

كانت عربة الترام غاصة بركابها ، الا اننا رغم ذلك وجدنا فيها مقعدين متقابلين لنا . جلست صفية الى جوار امرأة فتية تلبس لباس نساء حرستا والقرى القريبة ثوباً ملونا يصل الى منتصف الساق تحت الركبة ، وينحسر ادناه عن ادناه عن سروال مثنى بحاشية مخرمة فوق العقبين ، وفوق الثوب ازار ، وهو شرشف مخطط يغطي الرأس ويحجب نصف الوجه ثم يلتف حول القد . وجلست انا في المقعد المقابل والى جانبي ، في الاتجـــاه المعاكس لسير الحافلة ، كان طفل يفصل بيني وبين شاب قروي يرتدي سترة افرنجية فوق شروال اسود جديد ونظيف ، هو زوج الامرأة الفتية أو اخوهـــا . ترك الرجل والامرأة لنا المكان قرب النافذة على الرغم من اننا جئنا بعدهما ، اما لانهما كانا يعتزمان النزول قريباً ، واما لتقدير لاشعوري منهما لمظهرنا الذي كان ينبيء عن مستوى غير مستوى الركاب العاديين للترام الذاهب الى دوما ، وهذا الذي جعلني أمعن النظر في هيئة جاري في اللحظة التي جلسنا فيها في مقعدينا ، وقبل ان تتابـع الحافلة سيرها . اما بعد ان سارت فقد تحول تطلعي الى عيني صفية . تطلعت فيها ، وغرقت فيها .

تلكما العينان لم تكونا واسعتين ، ولكن صفاء نظرتها اعطاهما سعة لانهائية . كانت حدقتاهما بلون عسلي ، قريب الى الدكنة غير متجانس . فقد كانت تلتمع فيها نثرات صغيرة اكثر اضاءة من سائر ماحولها ، كأنها نجوم تبرق في ليل الحدقتين السنجابي . وكانت اهدابها طويلة من غير كثافة ، فكأن يداً صناعا تناولت تلك الاهـــداب هدباً هدبا فافردتها ومسدتها واحسنت ثنيها واحناءها .

لم تطرف عينا صفية وانا اتأمل فيها بنظرتي الثابتة ، فكأنها كانت تريدني على ان اراها واعرفها من خلالها . فما اطبقت اجفانها عليها لئلا تعوق رؤيتي ومعرفتي . وظللنا ساكتين فترة طويلة ونحن نتبادل النظرة الواحدة ، بل ان احدنا لم يبتسم للآخر . وعلام نبتسم او نتكلم ؟ ان الزوج الذي كان الى جوارنا لم تكن الامرأة فيه تبتسم لرجلها او الرجل لامرأته ، ولا كلم أحدهما الآخر . واذا كانت صفية قالت لي ان حديثنا في الترام سيطول فاني وجدت طبيعياً ان تكون نظرتي الملحة اليها بعض هذا الحديث . كان تطلعي اليها بتلك الصورة نوعاً من الكلام ، نوعاً من السؤال كان يجيبني عليه التماع تلك النثرات المضيئة في انساني عينيها . وحين حولت نظرتي عن عينيها الى محياها وسائر جسدها اخذ يجيب على ذلك السؤال اضطراب جناحي انفهـا الدقيق في كل نفس تأخذه وتلفظه ، وظل غمازة عميقة دون ذروة خدها الايسر ، وظل اخرى خفيفة في خدها الايمن ، والموجـــة

الناعمة التي تنساب على جيدها المتلع كلما بلعت ريقها ، ونهود ثدييها تحت صدارها الصوفي الاسود ، وحتى بريق الحلقة الذهبية في بنصرها الايسر لما وضعت احدى كفيها فوق الاخرى فوق حقيبة اليد السوداء والقفازين الجلديين الاسودين فوق ركبتيها المضمومتين على حافة مقعد حافلة الترام .

سارت القافلة ببطء وقرقعة ، واهتزت متمايلة بركابها ، ونحن منهم في كل اتجاه . ولكني ، وصفية معي على ما احسب، لم أكن أشعر بها أو بما حولنا . لا بد ان ركابها كثيرين هجروا الحافلة في الطريق أو صعدوا اليها دون ان ندري بهم ، ولا بد انها وقفت مواقف عديدة وتحركت منها فلم ننتبه الى وقوفها ولا الى تحركها . الى ان بلغنا القصاع ، وقد تنبهت الى ذلك حين انعطفت بنا العربة انعطافاً كبيراً تحول به نظري عن بنصر صفية الذي يلتمع فيه خاتم زواجها ووقع على الطفل الذي كان بجواري. تلك اللحظة الأولى التي خرجت فيها من كون صفية الى العالم المحيط بها . وكان الطفل ينظر الي بالحاح كان بصره مشدود الي ، والدهشة تملأ عينيه. فلم أملك الا ان ابتسم، وابتسمت صفية معي . ابتسمت هي للطفل أولاً ثم حولت ابتسامتها الي . فلت عندئذ نحوهما ملصقاً في نفس الوقت وجهي بزجاج النافذة الى جواري ، وقلت بصوت خفيض .

ـ كان حديثاً لذيذاً .. حديثنا الذي تبادلناه !

فقربت رأسها الي لتسمع ما همست به ، وحين فهمته عادت الى الاعتدال في مقعدها وضربت أهداب اجفانها بعضها ببعض ضربات سريعة ، كأنها كانت توافقني على ما قلته . وخفت ان تكون اساءت فهمي وظنتني أسخر من سكوننا المتبادل فأردفت :

ـ اقصد حديث العيون . لقد سمعت من عينيك كثيراً ..

فرفت أجفانها بأهدابها من جديد ، وقالت بصوت رفعت طبقته عن الهمس :

ـ فهمت عليك . صحيح .. كان حديثاً حلواً .

وأضاءت الابتسامة في وجهها ..

وحين أدرت بصري حولي في هذه الآونة لاحظت ان العربة قد تخففت من ركابها بعد ان اتجهت في طريق دوما تاركة حي القصاع وراءها . ونزل منها جيراننا ، الامرأة والرجل والطفل، بعد مدخل المدينة فأصبح عدد من المقاعد وراءنا وأمامنا خالياً . فقمت حينئذ وانتقلت الى جانب صفية على المقعد المزدوج ، هي الى جوار النافذة وانا الى جانب الممر ، وهتفت بها :

ـ مرحباً ..

تطلعت حولها بحذر عفوي ، ثم قالت بصوت جذل :

ـ أهلاً .. أهلاً بك . كأنك لم ترني الا الآن .

قلت :

ـ هو كذلك . لقد تعرفت بك في الترام ، من محطة ركوبنا حتى هـذه النقطة من الطريق . اما قبلها فانك كنت بالنسبة لي عابرة سبيل . انت .. انت جميلة !

نطقت بالكلمة الأخيرة عفواً ، بدون تدبر لم اقصد المجاملة ، فقد كانت هـذه الكلمة حصيلة دقائق التطلع الطويلة في وجه رفيقتي الفاتن انطلقت على لساني بحرارة . أشاحت صفية بوجههـا عني الى النـافذة ولزمت السكوت ، متشاغلة بالباس كفيها قفازيهـا الأسودين ، وقد علت وجهها حمرة خفيفة . واحرجني سكوتها فلت نفسي على ما نطقت به ، لقد جشمت هذه السيدة نفسها مشقة الحضور الى موعد غريب ورافقتني الى رحلة غير مألوفة ، لتحدثني في مواضيع تهمني فكانت اولى كلماتي لها كلمات مغازل قليـل التجربة لا يحسن النطق باللفظة التي توافق مقتضى الحال ! وانكمشت على نفسي ، كما انكمش جسدي في المقعد الذي كنت احتله فحالت فرجة فارغة بين صفية وبيني بعـد أن كان ساعدي يمس كتفها مساً رفيقاً . وبينما كنت مطرقاً انظر الى رؤوس اظافري أحسست انها تحولت ببصرها ، عبر النافذة ، الى اشجار البساتين التي كان ترامنا يخترقها والتفتت الي وقالت :

ـ سألتني هل أعرف سيـارة عمك البلايموث ... أعرفها . وقد اركبني عمك فيها مرات عديدة ، أنا وزوجي .

قلت :

ـ يسرني أن تكونا صديقين لعمي . لم يحدثني عنكما قبل الآن .

قالت :

ـ ربما نسينا . كان هـذا منذ زمن طويل .. منذ امد يقارب العام ، قبل ان يتوفى اسماعيل ، زوجي ..

بغتني قولها ، فسكت لحظة ثم أخـذت ألوك بين شفتي كلمات عزاء مبتذلة دون ان أجرؤ على أن أرفع عيني الى وجهها . أما هي فتابعت كلامها بعد صمت قصير قائلة :

ـ توفي اسماعيـل في العام الفائت .. مات فجأة ، في حادث سيارة . قبل وفاته كان محامياً لمؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات ، وصديقاً صدوقاً لعبد المجيد بك عمران ، ومعجباً كبيراً به .. معجباً بنشاطه وكفاءته الهندسية ونجاحه المستمر . على ان اسماعيـل كان متواضعاً ، وذلك طبعه ، فكان يتنـاسى نصيبه الخاص في نجـاح عمك الكبير .

وجدت أخيراً الشجاعة لكي أرفع رأسي وأتطلع الى وجهها . كانت أمائر الجد تبدو على ملامحها اكثر من علائم الأسى . قلت :

— لابد ان عمي حزن كثيراً لحادث المرحوم زوجك. وانت ؟.. أنا شديد الأسف، ولا أعرف كيف أعبر عن شعوري.. اني أقدر أن وقع المصيبة عليك كان ثقيلاً ، وان حزنك ..

ولم اتم كلامي . رأيتها تحبس أنفاسها في زفرة لم ترد أن تطلقها من صدرها ، بينما غاب صفاء نظرتها وراء سحابة دمع رقيقة. وحولت رأسها لحظة ناحية النافذة ثم عادت الي بوجهها وقالت :

— كيف لا أحزن ؟ يكاد الحزن أن يكون طبيعة أولى للنساء. لقد اقترنت باسماعيل عن غير حب. كنت مقصورة على الزواج منه فكنت اكرهه. وبعد ان الفت العيش معه بدأت احبه الا ان حياتنا المشتركة لم تطل ، فذهب قبل ان احبه الحب كله .. وربما كان هذا لحسن حظي . حياتي مع اسماعيل كانت قصيرة ، عامين وطفلاً واحداً، أما عن عبد المجيد بك ..

توقفت صفية فجأة بعدما لفظت اسم عمي . أحسست بأن نبرة صوتها عندما سمته كانت تقطر مرارة ، حتى لقد سألت نفسي لماذا ؟ ثم ذاب تساؤلي في غمرة تأثري بما قالته عن فقدها زوجها في مطلع شبابها وعن تركه اياها وابنها ارملة ويتيما . انها امرأة لا تتزيّد ... لم تراء حين تكلمت عن عاطفتها نحو زوجها ، فقالت انها ما أحبته الحب كله . وكانت عربة الترام ، في خلال حديث صفية لي وحديثي لنفسي ، قد وقفت في احدى محطاته فغادرها راكب ووفد اليها راكبان آخران ترددا في أن يقعدا الى جانبنا ثم تخطيانا الى المقدمة . ولما عادت الحافلة الى السير عادت صفية الى الحديث مرددة اسم عمي . فقالت :

— أما عن عبد المجيد بك ، فانه غير انساني ...

وشعرت لسماع هذه الكلمة بمثل اللطمة على وجهي . هذه اول مرة اسمع فيها كلاماً سيئاً عن عمي . او اني ، اذا أردت أن أصدق ، اقول أن هذه اول مرة اسمع فيها الكلام السيء عن عمي بهذه الصفة وبهذه اللهجة سمعت عنه كثيراً من الثناء المخلص وبعض الثناء المبطن بالنقمة التي يبعثها الحسد او نقمة الفاشلين على الموفقين بل اني سمعت عمي ينتقد نفسه ويعدد اسواءه ، ومنها القسوة والتخلي عن الضعف العاطفي في ميادين النضال في سبيل ما يسميه هو لقمة العيش وهو يعني بلوغ ما يضعه لنفسه من أهداف واحتلال الصدارة في المواقع التي يرمي الى احتلالها . أما أن يقال عنه أنه غير انساني ، وان تقوله هذه الامرأة الحزينة، الذكية والجميلة ، وبهذه المراره ، فقد كان شيئاً بالغ السوء في حق عمي . شعوري بكل هذا جعل الكلمة التي نطقت بها تنقذف بعنف من بين شفتي وأنا اسأل محدثتي :

— كيف ؟

فرأيت نظرتها التي كان الجد فيها يمتزج بالأسى تتحول الى نظرة حانية ، كأنها أشفقت علي من أثر ماتركته كلمتها في نفسي، فقالت :

— سوف تعرف أني انسانة صادقة . لا تظن ما قلته شتيمة لعمك... انه الوصف الحقيقي له . انه قبل كل شيء الوصف الحقيقي لكل هذه الفئة من الناس الذين يسمونهم رجال الأعمال .. وأنت مرشح الى أن تكون واحداً منهم .

ففتحت فمي لأحتج على الحاق هذه الصفة بي ، الا أنها رفعت يدها امام وجهي كأنها تريد أن تطبق بكفها على فمي لتسكتني، فقالت :

— ألم تقدم من بلدك لتتولى الادارة في مؤسسة عمران ؟ مدير مساعد في شركة تعهدات كبيرة ، وتلميذ لعبد المجيد بك عمران في الرابعة والعشرين او الخامسة والعشرين من عمره ، ماذا يصبح حين يبلغ الاربعين او الخمسين ؟ شئت او أبيت ستكون يا استاذ المكيافيلي الثعلبان ... ستكون ... النسر المفترس في غابة المجتمع . ستكون المستغل الذي يمتص دم الفلاح والعامل الكادح لتسكن القصور وتبني العمارات وتختزن النفائس ،

وومض شعاع غريب في عينيها وهي تقول كلماتها الأخيرة . قلت :

— اشتراكية أنت اذن .؟

فارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها ، وابتسامتها الاولى منذ انتقلت الى جانبها ، وقالت :

— ألا يعجبك أن أكون كذلك ؟

قلت ، مجيباً على ابتسامتها بمثلها :

— كنت أريد أن اقول انك اشتراكية مثلي .. ومثل كل الشباب .

فتحولت ابتسامتها الى ضحكة وقالت :

— اشتراكيتك لا تعجبني أنا . لا ، لا تغضب . لا تحسب اني لا اصدقك . أنا لا اشك في انك والشباب امثالك من كل الطبقات، أبناء الاغنياء قبل أبناء الفقراء تعدون أنفسكم اشتراكيين لأنكم تحسون بفقد العدالة الاجتماعية يفقأ العين فيما حولكم فتتألمون وتنتقمون .. ثم تسمون احساسكم اشتراكية ونقضكم ثورة . لا يا ايها العزيز ، أنا لا تعجبني هذه الاشتراكية ، ثم اني لست شابة مثلكم ..

فقلت مقاطعاً :

— انت عجوز .. كم عمرك ياسيدتي ؟

ضحكت مرة أخرى وقالت :

— اظننا كنا في حديث عمك المحترم . هل ترى مناسباً أن تسأل امرأة ، مهما كان عمرها ، عن عمرها ؟

عادت الى ذكرها عمي، ولكن في سخرية مجردة من المرارة . فسألتها :

– نعم ، لقد كنا في حديثه . . ما الذي تأخذين عليه ؟

وكانت لهجتي كذلك مجردة من العنف الذي اطلقت به سؤالي الاول لهـا عن عمي . فلم تجب ، بل تطلعت حولها وقالت :

– ألا ترى ؟ لم يعـد غيرنا في الترام . أظننا قاربنا أن نبلغ نهاية الخط .

قلت :

– لا ادري . هذه اول مرة اركب فيها هذه الترام ، او أمر في هذه المنطقة .

قالت ، وكأنها نسيت ما كنا نتحدث فيه قبل قليل :

– لا . . لانزال أمامنا محطة اخرى. هذه هي الغوطة الحقيقية . يجب أن تأتي الى هنا في أول الربيع ، في آذار ، لترى اشجار المشمش واللوز والدراق مزهرة وترى أهل دمشق يملأون البساتين في سيراناتهم المعهودة. ومع ذلك ، وحتى في هذا الشهر ، فان الغوطة مليئة بالجمال.. وجمال دائم يستمر كل فصول السنة . ما أسخفنا حين نترك هـذا الجمال ونروح ونتحدث بما يغم القلب !

أحسست أن صفية كانت تتكلم من كل قلبها ، مخلصة ، سواء في حديثها عن جمـال الطبيعة أو في نقمتها الجارفة على رجال الاعمال. ما أسرع تحول نفس هذه الامرأة من قطب الى قطب في التفكـير وفي العاطفة وكأني أعديت بافتتانها بجمال الغوطة التي كنا نخترق ناحية منها فمددت بصري عبر زجاج النافذة والترام يسير بنا وحدنا سيره الوئيد ، أتطلع الى الاشجار التي كنا نسير حذاءها ، أشجار الزيتون بخضرتها المغبرة ، والاشجار الاخرى الريا الاخضرار ، والارض المعشبة ، وتلك المفتوحة اثلاماً لم ينبت فيها نبت بعـده .. وكانت الجذوع تبدو مفردة متباعدة في أول النظر ثم تتكاثف بعده فتتحول في البعيد الى غابة مدغلة . وبين الحين والحين تبدو لنـا طرق تلاقت فوقها الغصون في قمم الاشجار المغروسة على حافتيها فكونت قبة من الخضرة المعتمة ، أو تمر بأبقار متفرقة ترعى قريبـاً من خط الترام ، ترفع رؤوسها لتحدق في غباء في عربتنا المجلجلة ثم تعود الى رعيها آسفة على اللحظة التي أضاعتها في التطلع الينا .

قالت صفية :

– صح ظني . هذه آخر محطة قبل نهاية الخط . هل يمكنك أن تشتري لي شيئاً من عند بائع الموالح المتجول ذاك ؟ لاتنسى أننا في سيران . أنت لاتدخن ، وهـذا حسن . وأنا كنت مدخنة وانقطعت عن التدخين . لابد من شيء ألوكه في فمي .. والا عدت الى لوك الشتائم .

ضحكنا معاً ، وانحدرت مسرعـاً الى البائع ثم عدت بكيسين من فستق العبيد

الملح . وفي أثناء ذلك صعد الى العربة بعض القرويين كانوا بلا شك يقصـــدون دمشق فركبوا من المحطة الأخيرة ليوفروا على أنفسهم انتظار ذهاب الترام الى دوما وأوبته . وأكاد أقول أني لم أر صور الوافدين الجدد بعيني ، وانما كنت أحس احساساً مبهمـــاً بصعودهم وبمرورهم في جوارنا وبارتمائهم في مقاعد أول العربة وآخرها بعيداً عنا ، لأني كنت كلاً منصرفاً الى صفية ، الى التأمل فيها والاصغاء اليها والتحدث معها . وحين قرع السائق الجرس وعادت الحافلة الى السير التفت الى رفيقتي بكل جذعي ، مولياً ظهري للممر ومقرباً ركبتي من ركبتها وقلت :

— ينبغي أن تظلي على هذه الابتسامة دوماً . انك حين تكونين جادة تخيفينني ، فكأني تلميذ أمام معلمة . هل عملت معلمـــة في مدرسة ؟

قالت :

— من الذي أخبرك ؟ اني معلمة كما قدرت ... مدرسة . هجرت التدريس ثم عدت اليه بعد ... بعد أن مات اسماعيل .

وانكمشت على نفسي . خفت أن تعود صفية الى التجهم ، بعودة الحديث الى وفاة زوجها ، بعد أن انبسطت أساريرها ، فتشاغلت بالكيس الذي بين يدي وأخرجت منه فستقة قدمتها اليها وأنا أقول :

— هل تقبلين هذه مني ؟ أريد أن أراك وأنت تقضمينها بأسنانك .

قالت وهي تتصنع الدهشة :

ـ ولماذا ؟

قلت :

ـ لأن بياضهـــا الاخاذ جلب نظري . لاتؤاخذيني .. لا استطيع أن اطريك خشية غضبك . لقد غضبت منـــذ قليل لأني قلت لك انك جميلة .

قالت :

ـ غضبت ؟ أنت ساذج . مـــا من امرأة تغضب لمثل هـــذه الكلمة . وحتى اذا كانت المرأة تعرف انها جميلة فان سماع هذه الكلمة باذنها يملأها غبطة .

قلت :

ـ اذن ، فانك جميلة !

تطلعت الي كالمتفحصة قبل أن ترد على بقولها :

ـ قالها لي كثيرون قبلك . قالها لي عمك مرات . وقالها آخرون .. قبل زواجي وبعد أن تزوجت . غير انك انت قلتها ببراءة .. حتى الان أنت تقولهـــا ببراءة . لذا فانني لم اغضب من قولتك الاولى بل سررت ..

وقلت وفي صوتي رنة الطرب :

ـ صحيح ؟

ضحكت ، كأنها تضحك لسذاجـــتي ، وقالت :

ـ ليس فيك أية نزعة للخبث يا استاذي ، تأكد اني صادقة ، هـــذا يجعل منا رفيقين

مثاليين . الرجال مثل النساء في حبهم للاطراء ، على ما اعتقد . ولكن لا تطمح في أن اقول عنك انك جميل . ثم ان الرجال الحقيقيين لايعجبون اطراءهم بهذه الكلمة . مارأيك اذا قلت لك انك تلفت النظر بانك تختلف عن الكثيرين ممن هم في عمرك ، وفي صحة تكوينك ؟

قلت :

ـ اظنني فهمت مـاذا تعنين بكلامك ، وأظن أن احداً ماسبقك الى قوله لي قبل . لقد أطروا ذكائي وسلوكي، واثنوا على القصائد التي نظمتها . . وحتى على طريقـة تفصيل بذلاتي وملاءمة لون قماشها للون بشرتي ، وهذا الثناء الاخير سمعته منذ ايام قليلة . . أما عن . .

وانتبهت الى الناحية التي انسقت في الحديث اليها ، فتوقفت وقلت :

ـ علي ان اخجل من نفسي لهذا الذي أقوله ! وانت . . ربما قال لك كثيرون انك جميلة فهل سبق ان قال لك احد بأن نصوع البياض في اسنانك وتلالأها بين شفتيك يجعل من الحرام أن تعلق بها شائبة مهما دقت ؟

قالت :

ـ لم افهم . . ماذا تقصد ان تقول ؟

مددت خنصر يدي اليمنى لألامس بهـا أحد الضواحك من اسنانها وقلت :

ـ ظلي على ابتسامتك ثانية اخرى . انها قشرة فستقة ، علقت على سنك ، اريد أن أزيلها . .

فجمدت ابتسامتها وتصلبت أمامي منفرجة الشفتين ، بينما كنت أنا ازيل بأظفر خنصري القشرة الرقيقة عن السن . لحظـة عابرة ، شعرت بدبيب متعتها يسري في كل كيـاني . عبرت في تلك اللحظـة انفاسها دافئـة على راحة يـدي ، واستراح باطن خنصري على شفتها السفلى فلست فيها نعومة الحرير وطراوة الزهر وحرارة الرغبة . وفجأة انطلقت من بين شفتيّ أنة لم أقدر على حبسها ، تناولت صفية طرف خنصري بين اسنانها وعضت عليه ، فكأنما لسعتني شرارة محرقة . فسحبت يدي وقلت ضاحكاً :

ـ قطعت اصبعي .

فزغردت في حنجرتها ضحكة قصيرة وقالت :

ـ تتساهل . . ظننتك بعيد عن الخبث ، والآن غيرت رأيي . . .

قلت وأنا أقلب خنصري أمام ناظري :

ـ وأنت . . . انك لست بعيـدة عن اللؤم .

وكان في جانبي الاصبع ، وراء الظفر ، اثر واضح لسنين متقابلين ، ففاضت نفسي بالغبطة لمجرد ادراكي انه اثر اسنانها هي . . اسنان صفية . وامتلأ رأسي بطنين مصدره اندفاع الدم الى وجهي واذني بحرارة تلك

الغبطة . وفي ذلك الطنين كانت الاصوات من حولي ، اصوات الحافلة ومن فيها ، تصل الى اذني دوياً مبهماً ، تبينت فيه صوتاً ارتفع فاجتذب انتباهي . اصغيت فتبينت الصوت واضحاً . كان انسان وراءنا يقول : بل يصرخ :

— اعوذ بالله من الشيطان ومن عمل الشيطان . . . في أي زمان نحن نعيش ايها الناس ؟

تطامنت الاصوات ، لهذا الكلام الذي سمعته ، في داخلي وعادت الى مداركي الحدة والصفاء . كان ذاك احد الراكبين يحدث من حوله بصوت عال. ووجب قلبي حين تبينت ان الرجل كان يعنيني ، يعنينا انا وصفية ، بما يقول :

— . . كنا نلوم الاجانب والكفار فاصبحنا نفعل مثلهم ونزيد عليهم . اهذه اخلاق ؟ اهذا دين ؟ يأمر الله بالستر ونحن نفضح انفسنا على عيون الاشهاد . . اعوذ بالله من اخلاق آخر زمان . . اعوذ بالله . .

استقمت في جلستي متحولاً عن مواجهتي لصفية فأصبح صوت الرجل يأتيني من وراء ظهري، ولكني لم اجد الجرأة للاستدارة والنظر اليه ، بينا كان كلامه يصل الي مقطعاً بعلو طبقة صوته وانخفاضها ، وتثلجت اطرافي وبرد وجهي ثم التهب ، وانا اشعر بالخجل يتسرب الى قلبي آخذاً بمجامعه .

كيف نسيت نفسي وانسقت في مداعبة صفية الى الدرجة التي لفتت انظار راكبي الترام ؟ ولكن ماذا فعلت ، ماذا فعلنا انا وصفية لنستحق ثورة هذا الرجل ؟.. استمر يزمجر ؟

— قسماً بالله لو اننا كنا في غير هذا الزمان لأكلت الكرابيج من لحوم الشبان والبنات بما يعرفهم قيمة الادب ولكن ضاعت الاخلاق وضاعت التربية في هذه الأيام ، واصبحت مناظر الفسق تعرض امام ابنائنا وحرمنا ونحن نسكت عنها . .

تطلعت بطرف عيني الى صفية فرأيتها قد ولت وجهها شطر زجاج النافذة الى جانبها وقد علت ثغرها ابتسامة خفيفة . وكان في العربة امامي رجلان وامرأة . تطلع الرجلان الينا ، بالحاح في اول الامر ، ثم مالبثا حتى اعطيانا ظهرهما منصرفين الى حديث بينهما . بينا ظلت المرأة تقسم نظرها بيننا وبين هذا المحتج المتزمت. وشيئاً وراء شيء اخذ الخجل يترك مكانه في نفسي الى حنق تزايد بتمادي ذلك الرجل في الكلام . فادرت رأسي اليه بحدة وقد عزمت على اسكاته بطريقة ما . فلما التقت عيناي بعينيه قام من مكانه واستدار نحو باب الحافلة ، عازماً على النزول ، متمماً في الممر كلماته التي ابتلعها ضجيج العربة وهي تتأهب للوقوف في موقفها الأخير .

طال وقوف العربة واخذت تغص بركابها

المتجهين في العودة نحو دمشق . وشعرت بالراحة لذهاب الرجل موفراً علي موقفاً لا احبه ولأن الوافدين الجدد لم يسمعوا اقواله قبل ذهابه . قلت لصفية بعد سكوت طويل :

— انظري اليه .. لقد بعد عنـا . انه ذاك الذي يلف عمامـة الأغباني على رأسه والذي ترك الطريق نحو الأبنية ..

قالت :

— قد يكون الرجل صادقاً في غيرته على الآداب العامة . . وقد يكون أفـق الناس . لايعلم الحقيقة الا الله . أو لعله قام بتمثيل هذا الفصل ليشغل قاطع التذاكر عن استيفاء ثمن التذكرة منه بين الموقف الذي ركب منه ونهاية الخط ! أنا آسفة على كوني سببت لك هـذا الاحراج ..

قلت :

— وعن عضتك لاصبعي، ألا تعتذرين ؟

فأخرجت كفها اليسرى من القفاز ووضعتها على خشب المقعد الى جانب كفي وهي تقول :

— أعطيك اصبعي لتعضيهـا . . هـل يكفيك هذا ؟

قلت :

— ونثير فضيحة اخرى بعد ان امتلأ الترام ؟ اذا شئت فاني على استعداد . .

فضحكت . واقبل افندي بطين يحمل بين يديه سلة كبيرة فجلس على حافة المقعد الى يساري . ولم يكن المقعد يتسع لثلاثة ، فدفعني الرجل الى ملاصقة صفية التي التصقت بدورها بالنافذة ، وكنت بذلك مسروراً . إلا أن تعلق أنظار الركاب بها ، بصفية أعني ، منعنا من متابعة حديثنا بالذي نحبه فظللنا في سكوت الى أن تابع الترام مسيره .

قالت صفية بصوت خفيض ، ونحن نعود ثانية الى اختراق منطقة البساتين :

— الى أين وصلت المفاوضات في مشروع التلفريك ؟

فتطلعت اليها دهشاً وقلت :

— من أين لك العلم بهذا الموضوع ؟

أجابت :

— لماذا تعجب ؟ قلت لك ان زوجي كان مستشاراً قانونياً لمؤسسة عمران . لقد ترك بين مخلفاته اضبارة ضافيـة عن المشروع أحسب أن عمك في حاجة اليها ، أو انه على الأقل لايريدها أن تقع في أيدي الآخرين .

قلت :

— واية آخرين يا .. ياصفية ؟ هل تسمحين لي ان اسميك باسمك مجرداً ؟

قالت ، دون ان تخرج بصوتها عن طبقة الهمس :

— أسمح لك . وأنا اسميك طارق . أما الآخرون الذين تسألني عنهم فانهم حليم بك ورمزي واخي .

قلت ، ورفعت صوتي اذ اقسـاني الفضول اين نحن :

– اخوك ؟

فربتت على يدي بهدوء ، وكأنها تنبهني الى أن من حولنا يسمع ما نتحدث به ، وقالت :

– اخي ، نعم . انه مثل زوجي محام . وبنفس الوقت هو صديق حليم بك رمزي ومستشاره غير الرسمي . اخي مثل عمك ، لايعجبني .. على انه اخي .

كنت قد تمسكت بكفها حين ربتت بها على يدي وضممتها في راحتي برفق . ولم تمانع هي في البدء الا انها لم تلبث حتى سحبتها من كفي وعادت فألبستها قفازها الأسود . بالرغم من ذلك ، امتلأت جوانحي نشوة باحتواء يدي يدها في تلك اللحظة ، وبتقبلها مخاطبتي لها بتلك الصميمية ، وبهذا الحديث الهامس فيما بيننا . وسكت برهة كنت أتملى خلالها من تلك النشوة ، ثم رحت أسألها :

ـ ألهذا .. الأجل موضوع الاضبارة أردت اليوم ان نلتقي ؟

قالت :

ـ لهذا ولغيره . لا أخي يعجبني ولا عمك ، فقلت لنفسي اني قد أجد فيك حليفاً ضد أساليب العمل التي يتبعها هذان الرجلان في موضوع يتناول مدينة ويبني صرحاً على انقاض بيوت الناس الغافلين .. بيوت بسطاء الناس الذين سيمر التيليفيريك فوق رؤوسهم . هل درست مخطط الهدم في مشروع التيليفيريك ؟ قلت فيما يشبه السخرية :

ـ هل تريدين ان نتحالف ، أنت وأنا ، فنؤلف شركة ننشيء التيليفيريك وترصد أرباحه للمشاريع الخيرية مثلاً ؟ مضاربين بذلك على عمي وأخيك ؟ الصحيح ان أحداً لم يحدثني عن أخيك في سياق البحث في المشروع .

قالت :

ـ اخي ؟ انه محبوب حليم بك رمزي وزوجته نهاد خانم . حين رأيتك اول مرة كنت مدعوة الى حفلة نهاد ، مرافقة لأخي الذي اصر على ان اخرج من عزلة الحداد الى هذه الحفلة المترفة . من هناك ، يا طارق جاءتني فكرة ان أقابلك وحيدة ، وذلك بعد ان رأيتك في الجمع ، وبعد ان سمعتك تلقي الشعر ...

قلت :

ـ واظنني خيبت املك ...لهذا لم تحدثيني بما دعوتني له الا في آخر لحظة ، قبل ان نفترق .

فرفعت الي رأسها وحدجتني بنظرة من نظراتها التي تضحك فيها عيناها لا أدري سروراً أو سخرية أو عبثاً ، ثم قالت :

ـ لم تخيب أملي .. ولماذا ؟ انا التي رأت السخف في ان نضيع يوماً جميلاً كهذا بالتحدث في ما يغم القلب . قلتها لك قبل

الآن على الطريق اردت ان احدثك حديثاً آخر ... حديث عالمي الذي أعيش فيه .. عن طفلي ، عن تلميذاتي ... ان منهن واحدة تحبني كل الحب ، فتكتب لي الرسائل وتغار علي من هبوب النسيم . لست أدري ما الذي يصيبها لو علمت اني خرجت واياك في نزهة الى ظاهر المدينة . لعلها تبكي .. او لعلها تغتبط لأني خرجت في صحبة رجل ،وليس مع فتاة أو امرأة .

ضحكت لما تحدثت به وشعرت بالندم على السخرية التي خالطت تعليقي قبل قليل ، وقلت :

ـ اني احب ما تروينه .. حدثيني بكل هذا .

قالت :

ـ أما ترانا قاربنا أن نصل ؟ كنت أظن أن الطريق الى دوما طويل يمكن أن يتسع لكل ما نريد أن نتحدث به ، فاذا به أقصر من القصير ...

وحقاً لقد كنا قطعنا في طريق العودة شوطاً بعيداً . توقف الترام وسار في محطات عديدة، وفرغت المقاعد من حولنا وامتلأت أكثر من مرة، ونحن منصرفان الى أحاديثنا تارة والى صمتنا وتطلعنا واحدنا في الآخر تارة . قلت لها :

ـ وأنا كذلك أشعر أننا لم نكد نبدأ حديثنا حتى انتهى . لا يزال أمامنا كثير يجب أن نقوله ولا أدري في أي موضوع .. في كل المواضيع . كيف نستطيع أن نلتقي في المرة القادمة ؟

ضحكت وقالت :

ـ ألم تقل لي أن عمك غائب وأنك تقيم في بيته ؟ أم لعلي عرفت ذلك من غيرك . أستطيع أن أحادثك تلفونياً في العشيات . متى تعود من سهراتك ؟

قلت :

ـ ليس لي سهرات بالمعنى المألوف . اذا لم أذهب الى السينما فان عندي قراءات كثيرة أنصرف اليها بعد العودة من المؤسسة .

قالت :

ـ اذا سمعت جرس التلفون يرن بعد الساعة الثانية عشرة فاعلم أنه مني ... الا اذا كان هنالك من يخاطبك في هذه الساعة من الليالي ، او اذا كنت تغط في النوم .

قلت :

ـ حتى لو كنت نائماً فان يقظة على صوتك تكون سعيدة . سأنيم آلة التلفون بعد الآن في حضني .. على الأقل حتى يعود عمي من سفره .

وعلى هذا كان فراقنا . حين نزلت من عربة الترام في المرجة لم تتطلع الي ولم تصافحني ، بل سارت في طريقها وأنا أتبعها النظر ، خفيفة رشيقة فاتنة .

لم انم التليفون في حضني تلك الليلة ولا في الليالي التي تلتها ، فلم يكن ذلك شيئاً عملياً حاولته فضحكت .. وضحكت من نفسي.

كما ان صفية لم تخابرني بعد منتصف الليل ، لاتلك الليلة ولا التي تلتها وماازعجني هذا ، او ان انزعاجي منه كان هيناً . فقد كانت هذه الرحلة الاصيلية في الترام تحتاج الى زمن في نفسي كي تفهم ، وكنت في حاجـــة الى ان انفرد بنفسي وخواطري ومشاعري، بعيداً عن كل حدث جديد ، كي اهضم واتمثل مامر بي في تلك الرحلة .

بعد ان فارقتها ، صفية وجدتني اسبح في عالم سديمي ، جوه ضباب وكائناته غيمية والاصوات فيه امواج مبهمة الحدود لاتتبين فيها نبرة او يتميز منها طابع ، وشيئاً وراء شيء اخذت تتضح في نفسي حدود العـــالم الذي اعيش فيه واللحظات التي حييتها في ترام دوما . اول مااتضح لي وجه صفيـــة بعينيها الحلوتين . كان هذا الوصف لعينيها يتردد في خاطري دون ان استطيـع تحديد ماتعنيه الحلاوة بالنسبة لعينين عسليتين باهداب طويلة من غير كثافة وبنظرة ضاحكة . واتضح لي وجهها بسمرته الخمرية والغمازة في قاعـــدة وجنتها اليسرى ، وبشفتيها اللعساوين من غير احمر الزينة واسنانها التي يزداد بياضها نصوعا بابتسامتها مثلما تزداد عيناها القاً كلما ضحكت.

نقد عدد النقد

« آثر الناقد الكبير ألا يسجل اسمه مع تسجيل أفكاره . والمجلة تحترم رغبته وتصمت »

أحبّ منذ البداية أن أشير الى ثقل هذا العبء الذي وكل إلي النهوض به .. إن مراجعة عدد من مجلة كهذا العدد من مجلة المعرفة في موضوع هو موضوع خلافيّ على حد تعبير القدماء ليس بالأمر الهيّن أو اليسير .. وحين نظرت مرة الى صفحات العدد التي نيّفت على الثلاثمائة ، وحين قرأت مرة صفحة أسماء كتابه على صفحة الغلاف ، ثم حين قرأت مرة ثالثة عناوين موضوعاته تهيّبت المهمة ، وتمنيت لو لم أعِدِ المجلة أن أقوم بها .

إننا نطالع المجلات التي نطالعها في نوع من الانتخاب ، وليس هـــذا الانتخاب بالضرورة قائماً على أساس .. إنّ جملة معقدة من الظروف تتدخل فيا نقرأ وفيا ندع .. بعض ذلك يعود إلى مزاجنا ، وبعضه الى صلتنا بالموضوع ، وبعض ثالث يعود إلى صلتنا بالكاتب ، فقد نقرأ للكاتب لأننا نعرفه أو لأننا نجهله أو لأننا نحبه أو لأننا نريد أن نعرف ماذا يقول .. إن هذا « الانتخاب » هو الذي يحكمنا حين نقرأ لأنفسنا أماحين يطلب إلينا أن نقرأ لنشارك في رأي أو لنناقش اتجاهاً أو لنسجل انطباعاً فان القراءة تتخذ وجهة أخرى .. إنها تنجذب الى أشياء جديدة .. أو لنقل إن هذه القراءة تقع في ضوء جديد .

ولقد كنت قرأت العدد أو أكثره قبل أن يكون هنالك حديث عن مراجعته والكتابة عنه .. وقفت عند كتّابه وموضوعاته ، ونفذت إلى ماعند هؤلاء الكتاب وما في هذه الموضوعات من رأي .. ورضيت وتوقفت ، واقتربت وابتعدت ،ووضعت هذه الإشارات الخفيفة هنا وهناك .. ولكنني فعلت ذلك كله فيا بيني وبين نفسي ، في نوع من الحوار الداخلي الصامت ، فهل في وسعي أن أحيـل هذا الحوار الصامت إلى حديث مكتوب ، له صوت وله صدى ؟! كنت أنا الذي يقرأ وأنا الذي ينقد .. ليس للآخرين عين تمتد إلى هذه الإشارات ، ولا أذن تتسلل إلى هذا الحوار ، فماذا يكون موقف الآخرين حين يجدون أني أحمل إليهم حديثي وصوتي ، وأني أتفق معهم في ذلك أو أختلف ، ألتقي أو أفترق ؟

لعلي لا أرغب بادىء الأمر في شيء رغبتي في أن أوضح أن هذا الذي سأقوله إنما هو نوع من المشاركة والحوار .. إنه طريق إلى الاغتناء أو للإغناء ، وسبيل إلى تأكيد هذه الصلات التي يجب أنّ تقوم بين العاملين في ميدان النقد .. إنه ليس حلولاً لمشكلات ولا تحديداً صارماً لمواقف ، وهل هنالك في بحث كالنقد ، طبيعته الأولى أنـــه بحث « إشكالي » سبيل إلى الحلول النهائية والمواقف الصارمة ؟

لو صح شيء من ذلك في أي من الموضوعات فانه لايصح في مثل موضوع النقد، وبخاصة حين نرى أن أبحاث العدد ومقالاته انما تناولت جوانب هذا النقد كلهـا ، أو كثيراً منها .

ولهذا فانك تحس ، منذ الصفحات الأولى الى الصفحات الأخيرة ، وكأنك تنشر أمامك خريطة نقدية واسعـة لكل قضايا النقد وموضوعاته ، لمشكلاته ومبـادئه ..

لارتبـاطه بالذات وانفصاله عنهـا ، لتاريخه وحاضره ، لكل ما يتصل به أو لأكثر ما يتصل به ..

ومن هنا كان في العدد هذه الحركة المتوثبـة أو هذا الاحسـاس بها في كل صفحة ومع كل مقال .. الك مثار أبداً ، مزعج دائماً عن الاطمئنان الى القلق ، وماض أبداً في حركة متصلة من السؤال الى الجواب ومن الجواب الى السؤال النقيض أو الى السؤال الجديد .. قد لاتصل الى حقائق ولا تنتهي الى نتائج ، ولكن متى كان طريق النقد منتهياً الى نتائج موصلاً الى حقائق .

١ – حول بعض مهام النقد

رئيس التحرير

ومنذ الكلمة الأولى التي كتبها رئيس التحرير « حول بعض مهام النقد » يشعر القارىء المتأني انه لا يضع قدميه على أرض واحـدة محددة .. يشعر كأنما تنتقل به قدماه بعيداً في كل اتجاه .. أو كأن الأرض التي يقف عليها تمتد حواليه الى أبعد من حدود الأفق .

إن كلمة رئيس التحرير تريد أن تمد رحاب النقـد في دائرته الصغيرة ـ الكبيرة : من دائرة النقد الأدبي ، الى دائرته الكبيرة ، النقد العربي..وذلك حين يصرح الكاتب أن القصد ليس النقد الادبي وحده وانمـا هو النقد لأصول الفكر العربي وتحليل ظواهره وربطه بالوجود العربي ذاته .

وسواء أكان ذلك ربطاً بـين النقد الأدبي والنقد العربي ، أم كان ربطاً بين العدد الذي يصدر عن النقد وبين المرحلة التي نحياها ، فمن المؤكد أن كلمة الافتتاح هذه تبدأ فتضع القارىء في شيء هو من طبيعة النقد .. إنها تضعه في الإشكالات ، هذه الدوامة الدائرة ، وتفتح عليه النوافذ من كل مكان .. حتى انهـا لتذهب أبعد من ذلك فتحمل النقد مهمة التبشير .

وإذا كنا نقبل في سرور ورضا وطواعية وانسياق مع الطبيعة هذه الصلة بين النقد وبين أحلام الأمة وتطلعاتها لأن « من دور النقد الطبيعي الالحاح على دور الأدب في بلورة المجتمع » .. واذا كنا نقبل كذلك في طواعية ورضا أنّ النقد لابدّ أن يضيف

إلى مقاييسه الفنية هذا المقياس القومي الانساني ، فان قبول أن تكون « مهمة التبشير » هي مهمة النقد تبدو شيئاً صعباً . تبدو تسخيراً للنقد في غير ماخلق له .. لأن التبشير يقتضي الفكرة المسبقة والأسلوب المسبق .. وليس شيء من ذلك مما يحتمل النقد .. إنه لايحمل عصاه ويهش بها على غنمه .. ولذلك فان معنى التبشير هنا يحسن — حتى لا استعمل لغة الوجوب : يجب — أن يكون مفهوماً في أضيق حدوده وأقرب معانيه إلى روح النقد .. اعني ان تكون اللفظة مستعملة في هالتها الأدبية لا في معناها اللغوي أو الاصطلاحي .

إني أقول هذا حتى لايقع الفكر العربي من جديد في مثل الأزمة المفتعلة التي وقع فيها من قبل حين انشعب به الحديث عن الالتزام والإلزام .. إن طبيعة الحياة وطبيعة المرحلة هي التي تتجه بالناقد ، كما تتجه بالاديب، فتجعله يولي وجهه شطر مهماته الوطنية والقومية والانسانية .. وأن أدبنا ونقدنا لن يكون خارجاً عن انتمائنا وتطلعنا ، عن بدايتنا وطريقنا ومصيرنا .. أفيكون من الضروري أن نجعل هذه الأشياء تتنزل عليه من فوق ، وتقف له من قبل ، بينما هي نابعة منه وأصيلة فيه .

يبقى بعد هذا أن نتساءل اذا كان النقد كما تقول الافتتاحية يطرح أسئلة وأجوبة ..

فأما عن الاسئلة فان صناعة النقد أن يصوغ الاسئلة لكل مايضطرم في العقل والقلب معاً .. إنه من السؤال ينطلق ، وعلى جسور من الاسئلة يتابع الانطلاق .

وأما أنه يطرح الأجوبة فتلك هي القضية .. هل يطرح النقد الإجابة .. أم أنه يطرح مشروع جواب ؟..

لا أدري لماذا أتمثل النقد مجموعة من شارات الاستفهام فحسب .. الأجوبة التي تكون بعدها انما هي بداية لأسئلة جديدة .. والأجوبة لاتخرج عن أن تكون توليداً لعالم مجهول جديد .. مهمة النقد أشبه مايكون بمهمة الفلسفة .. انه يجيب عن الأسئلة .. ولكن السؤال الذي يجد جوابه لايبقى في محيط النقد وإنما يخرج عن دائرته . شأنه في ذلك شأن مسائل الميتافيزيك .. المسألة التي تجد الجواب عنها تخرج عن نطاق ماوراء الطبيعة لتدخل نطاق الطبيعة .. والمشكلة التي وجدت الجواب تولد مشكلة أخرى وراءها . وكذلك النقد أسئلة دائمة من غير جواب نهائي .

إن النقد لايصطنع ذلك اصطناعاً .. انها طبيعته ، طبيعة المادة التي تظل تغوص

في الإشكال ، في السؤال ، في الحيرة ، في وجهتي نظر مختلفتين أو وجهات نظر مختلفة .

ومع ذلك فان كلمة رئيس التحرير بداية العدد .. وفي البداية لانملك الا هذه الجولة العامة ، والرغبات والتمنيات .. إننا في البداية نضع قوانا كلها وتطلعاتنا كلها .. ولكن السير على الطريق الطويلة بعد ذلك هو الذي يكفل لنـــا أن نشذب أو نصقل هذه البدايات .

فلنمض على طريق العدد نفسه .

٢ ــ النقد العربي القديم من خلال مفهومات النقد الحديث

د . احسان عباس

في المقال الاول للدكتور احسان عباس بعنوان « النقد العربي القديم من خـــلال مفهومات النقد الحديث » ، في عنوان المقال ، في موضعه من العدد، تطالعنا هذه الروح التي تتسرب في كثير من الصفحات والمقالات ، على طول العدد وتنوع موضوعاتـــه : روح الاصالة الاصيلة المتفتحة على الجديد » روح الذي يعرف ذاته ويعرف كذلك مستقبله .. انها الروح التي تريد أن تعرف ماذا تملك ، وماذا يملك الاخرون ، ماذا في الماضي وماذا في الحاضر ، لتعرف بعد ذلك ماتأخذ وما تدع .. ان معرفة القـــديم هي اول الطريق الى الجديد .. ومعرفة الجديد وحده لا تساعد على عملية اختيار .. انها لا تتجاوز أن تكون نقولاً او فروضاً ، والحركات الفكرية لاتقوم على النقول ولا على الفروض ، وانما تقوم على الممارسة والمعاناة .. واذا صدق هذا مرة في شؤون الحياة الاخرى فانه في شؤون الفكر اشد مايكون صدقاً ووضوحاً .

طبيعة المقال في اتساع دائريته « دائرة النقد العربي القديم ودائرة مفهومات النقد الحديث ، تقتضي باحثـاً يحسن أن يلم الاشياء المتكاثرة في النظرة الكلية .. ومن ذا الذي يستطيع أن ينهض بذلك خيراً مما فعل الدكتور احسان عباس او خيراً مما يفعل . ان طبيعة تكوينه الثقافي في عمق ثقافته العربية ومشاركته النافذة في الثقافات الاخرى ، في قدرته على المزاوجة بين التراث والبـــدع ، واكتناه الروح في كل منهما تجعله احـــد الاوائل الذين يستطيعون أن يكتبوا في ذلك .. تتيح له أن يكون هو هذا الفارس الذي ينهض بهذه المزاوجة بين القديم والجـــديد في فهم ذكي لها وادراك عميق لقضاياهـــا .. وتمرس بهذه القضايا .

ان الذين استمعوا اليه في السنة الجامعية الماضية في محاضراته الثلاث التي القاها في كلية الاداب تمنوا لو انهم وجدوا هذه المحاضرات مكتوبة بين أيديهم ينعمون بقراءتها مرة بعد مرة .. ولقد حقق لهم هذا العدد من المعرفة هذه الامنية وأتاح لهم أن يدركوا من المحاضرات أبعاداً جديدة من أبعادها .

ويبدو الدكتور احسان عباس وهو ينظر في النقد العربي وكأنه يتمثل هذا النقد شجرة باسقة كثيفة : في عروقها عروق جافة وعروق أخرى ندية يجري فيها النسغ .. من أوراقها هذه الأوراق الخضراء التي تختزن الماء والحياة وأوراق اخرى استدارت أوراقها استدارة الذبول وشاعت فيها الصفرة ولم يبق بينها وبين السقوط الا نفحة ريح ..

وبدا المقال وكأن صاحبه يمسك بفأس من حديد .. ولكنها فأس مصقولة ناعمة.. ويأخذ يشذب هذه الشجرة .. يقطع منها ما يرى أنه جدير بالقطع لأن ماء الحياة قد غاض فيه وغادره .. وحجته في ذلك أنه يريد أن يستصفي هذه الشجرة في ضوء مفهومات النقد الحديث ولا عليه بعد ذلك — في نطاق من هذا الشرط — اذا هو لم يستبق من النتاج النقدي العربي على مدى القرون الا الأقل .. الا عديداً من القضايا : اللفظ والمعنى ، الصدق والكذب ، العلاقة بين الأخلاق والشعر .

في مقال او دراسة ، يبدو أننا حين نرسم حدودنا لا نفعل ذلك لأنفسنا قدر ما نفعله كذلك للآخرين . ان هذه الحدود تحمينا من الردود والاعتراضات .. انها شرط تفكيرنا .. وفي حدود هذه الشروط نسير فلا يبقى أمام الآخرين الا أحد طريقين : قبول الفكرة انسياقاً مع قبول الشروط والحدود ، او رفض الفكرة ، وذلك دعوة الى حوار جديد في نطاق شروط جديدة .

أكان المقال اذن نوعاً من رد الاعتبار للنقد العربي واستحياء ما هو صالح للحياة معه ... أم كان استعباداً له واستصفاء لبعض (قضاياه الكبرى التي تمرس بها والتي تتصل بالنواحي الفنية مثل اتصالها بالقضايا الاجتماعية ص ١١/عمود ٢) سنرى ذلك بعدُ .. وقد لا نكون في حاجة الى أن نطارح هذا السؤال اذا نحن عرفنا كيف عالج الدكتور احسان عباس هذا الموضوع .

من المؤكد أن معالجة الدكتور عباس للنقد القديم كانت حذرة شديدة الحذر ، كل خطوة فيها بقدر ، وكل مقطع منها الى غاية .. انه أعطى النقد العربي حجمه الذي

ارتآه له منذ الكلمات الأولى حين أبان عن الفارق الأساسي بين عصرين متباينين ، عصر النقد القديم وعصر المفهومات النقدية الحديثة . . ان النقد العربي القديم « مقيد بمواضعات العلوم التي كانت سائدة في تلك العصور ، وهي لاتعدو اللغة والنحو والمنطق والفقه والفلسفة الميتافيزيقية فالنظرة اليه من خلال مفهومات النقد الحديث ، ربما كانت جائرة على طبيعته . ص ٦ عمود ١ » .

ولكن الدكتور احسان يعود بعد ذلك فيدافع عن النقد العربي وعن ازجاء القصور اليه وينتهي «الى أننا الحقنا بالنقد العربي جوراً كثيراً ، حين لم نتعهده بالدراسة الشاملة الدقيقة ص ٧» . . انه يرتد الى هذا النقد بكثير من المعرفة به وبشيء من الاشفاق عليه .

واذن فليس الامر في حقيقته تمجيداً للنقد القديم ولا اسقاطاً له .. وانما هو شيء آخر يجب أن يسبق كل محاولة أو تصنيف أو حكم ، ذلك أن يدرس هذا النقد أولاً دراسة شاملة . وفي هذه النقطة يتلاقى المقال مع مقال الدكتور فيصل الذي يقول « .. ان نقدنا الهادي لم يدرس .. انه عرف به وأرخ له ، ولكنه في حاجة الى دراسة حيناً أو معاودة دراسته حيناً آخر ص ٢٧ » .

ولكن الدفاع عن النقد العربي ليس هو الهدف ، وانما وضع النقد العربي في مكانه ، تقييمه العام في ضوء مفهومات النقد الحديث هو الأصل في فكرة المقال . ولهذا يمضي المقال فيكشف عن عوار هذا النقد الذي يتجلى في اهمال الجانب التطبيقي وفي تبدد الجانب النظري المتألق، وفي بنائه على أساس من الموروث الشعري وفي ارتباطه بالمعطيات الثقافية السائدة في تلك العصور .

هل نتهي بعد هذا الحديث المحكم الى مثل قناعة د . عباس ؟

أحسب ان من حق القارىء ان يتوقف هنا عند نقطتين اثنتين :

آ — أولاهما تمس المنطلقات الاولى ، وتتخذ شكل السؤال التالي : اذا كانت قضايا النقد مرتبطة بمقتضيات من الظروف والبيئة والمعتقد فما الذي يضطرني ان اترك لمعتقد معين ومقتضيات معينة ان تكون هي الحكم وهي الضوء الذي امشي فيه وهي التي تبيح لقضايا أن تدخل حرم النقد وتحرم ذلك على قضايا أخرى ؟ ماالذي يحول بيني وبين ان اغلب مقتضيات ما على غيرها .

لعل الجواب في ذلك ان يقال : انها المعاصرة .. هي ، هـــذا السلطان العادل او السلطان الجائر ، هي التي تبيــح وتمنع ، وتتيــح وتحظر ؟

ولكن المعاصرة لايمكن ان تكون شيئاً مطلقـــاً او مجرداً ، ونحن لانعيش في فراغ زماني . . الزمان عندنا ايضاً مرتبط بالمثل والمعتقدات . فما هي حدود المعاصرة وكيف نتمثلها ؟

ب ــ النقطة الثانية : لاتتصل بهذه النظرية الانتقائية التي استعصفت نقدنا في جملة من القضايا وانما تتصل في هذه النظرة اليه على انه نقد نظري اكثر منه نقداًتطبيقياً.

الملاحظة في الاصل واحدة من الملاحظات الثمينة الأخرى التي تلأ اطراف المقال والتي تضعنا امام مسؤولياتنا في دراسة النقد العربي .. انها تذكرنا بكثير من القضايا ، وتجعل مثل هذا السؤال حياً يقظاً في اذهاننا وعلى ألسنتنا : هل كان النقد العربي كذلك دائماً ؟ هل أهمل فيه الجانب التطبيقي ؟ هل هو نقد نظري اكثر منه نقداً تطبيقياً ؟

هل يحق لنا ان نسوق مجموعة من الأسئلة الاخرى في محاولة الجواب عن هـــذا السؤال ؟..

هل كانت قضية الاعجاز البلاغي ، على سبيل المثال ، قضية نظرية أم كانت عند كثيرين من الذين عرضوا لها تطبيقاً من التطبيق ؟

والسرقات الشعرية ؟ .. أليست موصولة بالجانب التطبيقي ؟

وجدة المعاني ــ على اختلاف في مفهوم المعنى ــ ماذا كانت ان لم تكن تطبيقاً ؟

وكتب الموازنة ؟ أين يقع تصنيفها .

وعمل الجرجاني الوساطة ؟ وكثير من وقفات عبد القاهر في اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ؟ .

ألم تكن محاولات ابن قتيبة في اقسام الشعر مرتبطة بالتطبيق حين عرض مثلاً للابيات المشهورة : ولما قضينا من منى كل حاجة . .

وفي المراحل الأخيرة من حركة النقد قبل ان يدركه الجمود ، ألا يبدو أن تتبع مادار حول المثل السائر لابن الاثير من خصومات يمكن أن يعد ابصاراً نحو مساحات تطبيقية في النقـــد ؟ . . ألا يأتي كتاب نصرة الثائر على المثــل السائر للصفدي ــ وقد نشر مؤخراً ــ تأكيداً وتمثيلاً لهذا الذي اذهب اليه .؟

يبقى قبل هذه الملاحظات وبعدها أن د . عباس يقف في الصف الأول من الدارسين العرب قدرة على النظر في النقد العربي واقتناصاً للنقاط المضيئة والكابية فيــه .. أن روحه اليقظ في دراساته النظرية والتطبيقية كفيلة أن تقود المثقفين العرب الى أديم الناقد وتعرفهم به ، وتمكن لهم من تحديث هذا النقد .. ان هذا العبء ، عبء التحديث ، الذي يريد مقال د . عباس ان ينهض به أمانة غالية ومهمة صعبة وحاجة ملحة .. ومثل هذا المقال بعض المداخل التي لاغنى عنها في هذا التحديث .

٣ ـ التراث البلاغي والمعاصرة

د . شكري فيصل

أجدني عاجزاً عن مناقشة هذا المقال لأمرين: احدهما اعجابي به ، والآخر تتلمذي على صاحبه . لقد كان الدكتور فيصل استاذاً لي وللكثيرين من هذا الجيل الذي انتسب له في مراحل مختلفة من حياتها . وقد يقود الاعجاب والتلمذة الى شيء من الثناء أو من الاسراف فيه .

هل يشفع لي ذلك أن اتجاوزه ، غير متجاوز تحية صاحبه ، الى المقال .

٤ ـ شعر العودة : معالم التبدل . ملاحظات منهجية

أنطون مقدسي

يمهد الكاتب للمقال بالجملة التالية : « هذا البحث هو الفقرة الرابعة من دراسة عن شعر العودة نشرت فقرتاها الاولى والثانية في مجلة الموقف الادبي . ت/٢ ك١ ، ٧١ والثالثة في مجلة المعرفة ت/١ ، ٧١ » .

ولقد وددت لو كان بين يدي ، وأنا اكتب هذه الصفحات ، الفقرات الثلاث التي كتبها الاستاذ المقدسي قبل هذه والتي يقول عنها ، « والدراسة ، على أنهــا مترابطة ، يمكن أن تعتبر كل فقرة من فقراتها بمثابة بحث مستقل .

إن إحكام الصلة في ذهن القارىء بين الفقرة على أنهــا بحث مستقل ، وبين أنها حلقة من دراسة كاملة هو أول الجهــد الذهني الذي يفرضه الكاتب على قراءه أو على المتابعين لقراءته .

قلت : وددت لو كانت الفقرات الاخرى بين يدي حتى أكون على بينة ووضوح على بينة من الموضوع ، وعلى وضوح من آراء الكاتب .

ولذلك اعترف منذ البداية بالقصور .. قصوري أنا هو الذي حجب عني البينة أما الوضوح فتلك قضية أخرى ، لأنــه ليس لقارىء أن يفرض على كاتب اسلوباً من أساليب الاداء أو لوناً من الوان التناول .

واعترف كذلك منذ البداية أني فهمت من هـذا التقديم والتأخير بين لثر هـذه الفقرات المنفصلة – المتصلة او المستقلة – المترابطة أن الدراسة ليست مكتوبة وانماهي تكتب وان الملاحظات المنهجية انما تأتي تتويجاً من خلال الممارسة للموضوع ولا تأتي سابقة عليه حتى لاتكون نوعاً من التحكم والاستباق .

ومرة اخرى أحب أن يستقر في اذهاننا ان النقاد والقراء لا يملكون الحق في مثل هذا التصدي ، مادام الموضوع يجري طلقاً في طريقه الذي رسمته له هـذه الملاحظات المنهجية ، وما دامت هذه الملاحظات المنهجية موضع ثقة بها واطمئنان اليها .

الاستاذ المقدسي يبدو في هذا المقال ثروة من الفكر ومن المنهج ، من معرفة الجديد والاحساس بالقديم ، من النظريات المعاصرة ومن التراث، من المعرفة الفلسفية ومن النقد، من الذاتية في الأداء ومن الموضوعية في الفكر .. من الاحساس الرقيق المرهف ومن الفكر الدقيق المتعمق .. وكذلك يأتي مقاله صورة لهذه القدرة البارعة على الجمع بين هذه الأشياء .

وليس ذلك فحسب ، ولكنــه كذلك مزيج من الجرأة على اقتحام بعض القضايا ومن التواضع أمامها .. من إثارة القضايا ، ومن ادعاء القصور عن معالجتهـا .. من مراقبة المعارك عن كثب ومن المشاركة فيها .

والقارىء لا يحتاج الى كثير من الجهد لكي يقع على ذلك كله . انه يستطيع أن يجده في أية صفحة .. يكفي أن يقف عند هذا المقطع او ذاك حتى يدرك كيف تتمازج هذه الأشياء ، من اللغة ومن الشعر ، ومن الفلسفة ومن الفكر ، ومن قديم الأدب العربي وجديده .. من كانت الى ماركس ، ومن طه حسين والرافعي الى الخليل ، ومن حديث الاربعاء الى حوار المأدبة ، ومن راس المال الى الأغاني، انها كلها تتضام على نحو عجيب سعياً وراء الشيء الكلي ، اي سعياً وراء تأصيل المنهج .

كيف يمضي تفكير الاستاذ مقدسي وكيف يمضي أداؤه ؟ ليـس من العسير أن تعرف ذلك . افتح أية من صفحات المقال الطويل ، الصفحتين ٣١ – ٣٢ مثلا ، وسترى مصداق ذلك كله على النحو التالي :

آ ـ المقدمة الفكرية حول ماهية الجديد :

« .. ما الجدة في الجديد ؟ أو بتعبير آخر أكثر جذرية ، ما الحداثة في الحديث.. الانسان قديم وجديد . لو لم يكن جديده قديماً لما كان ثمة تاريخ ولا هوية قومية ولا .. »

ب ـ المقدمة الأخرى الملزمة :

« .. ومع ذلك فالمسألة المطروحة عندما تطرح تستدعي جواباً لايستنفد غرضه، بل يدخل عليه الحركة والحياة .. »

حـ ـ ثم التطبيق الذي يباشره والميدان الذي يختاره :

وأود في هذه الاعتبارات المنهجية، أن أختبر الجواب في بعض مشكلات طرحها النقد العربي الجديد على ذاته عندما نشأ أي منذ بعيد الحرب العالمية الثانية ـ لعله يريد الأولى ـ » .

د ـ ثم حركة هذا النقد ـ أو هذه المعارك الأدبية ـ وتدرجها ابتداء من اللغة :

« .. بدأ النقد في العشرينات بين أنصار الاسلوب القديم في الكتابة وعلى رأسهم الرافعي ، وبين أنصار تجديد اللغة وعلى رأسهم طه حسين وسلامة موسى ، بحيث تحتفظ بسلامتها وتساير في الوقت ذاته حركة العصر ومعانيه .. »

هـ ـ ومن اللغة الى الالتزام :

« .. الى أن تركزت قبيل الحرب العالمية الثانية وبعيدها حول الالتزام ومستلزماته.

و ـ ومن الالتزام الى العروض الخليلي :

« .. وتركزت حول الشعر والايقاع الشعري أو بتعبير أكثر تشخيصاً : حول العروض الخليلي .. »

ز ـ ثم ميدان التجديد :

« .. ان التجديد الشعري ليس فيتبديل نظام العقيدة .. انه يتناول القولوايقاع القول .. والايقاع ليس الجرس بل حركة الابداع ذاته .. »

ثم الأمثلة على هذا الابداع بعد ذلك من نقد العقل إلى رأس المال إلى الأغاني ، من كانط إلى ماركس إلى أبي الفرج .

وقد يخيل اليك بعد هذا كله ان الاستاذ مقدسي موجة جارفة من موجات الجديد، ولكنك سرعان ماتكتشف خطأ هذا الوهم لترى انه محافظ عنيد في محافظته احياناً ،وانه

— في تعبيرتفرضه عدوى الاسلوب — مجدد ـ محافظ أو محافظ ـ مجدد سواء.. يكشف، ذلك ويدل عليه مثل هذه الاقوال : « ان العروض الخليلي يعبرعن وجه اساسي من أوجه طبيعة اللغة العربية ، لايستطيع الشاعر ان يتجاوزه الا اذا خضع لما يستعيده فيجمالية اخرى قد تحاذيه وقد تكون أكثر أو أقل كمالاً منه ص ٣٣ » .

ان هذا التنوع والعمق والقدرة على ايجاد التفاعل بين اشياء قد تبدو متباعدة هو الذي يميز مقال القدسي .

غير ان هذا التنوع من الكاتب يقتضي من القارىء — لاستقطار فائدته — قدراً من الأناة في قراءته وفي استخلاص الملاحظات المنهجية .

لقد طرح عديداً من الافكار ولكنه لم يكن مجرداً دائماً ، وانما طرح بعدها عدداً من التطبيقات . كما فعل حين تحدث عن التجديد في الشعر وانه انما يتناول ايقاع القول.

يبقى ان من الممكن — لو كان للقارىء ان يتمنى على الكاتب او لو كان للكاتب ان يسأل القارىء رأيه — ان يتمنى القارىء لمقال الاستاذ القدسي على الكاتب ان يضع بعض الحدود بين معالجة الفكرة الفلسفية وبين معالجة القضية الأدبية . فليس من الضروري ان نسبغ ثقافتنا كلها على موضوع واحد قد لايحتملها جميعها .. وليس من الضروري ان نصبغ الموضوع كله بها .. ان معالجة الادب لروح الفلسفة ومصطلحاتها ولغتها ، ومعالجة الفلسفة بروح الادب وتلويناته شيء رائع ... ولكن لابد في ذلك — كما لابد منه في كل شيء — من إحكام النسبة بين المقادير في هذه المازجة بين الأدب والفلسفة .

ان الذي يتمناه القارىء هو الخبز الشهي الذي يتذوقه ويغتذي به .. ولكنه لايتمنى ان يرى الماء والطحين والملح والعجين ولا أن يشهد عملية تمازجها وتخميرها وخبزها .. انه يريد كلاً تضيع فيه الجزئيات التي تألف منها ، او لاتبدو له على انها كذلك .. يريد القارىء في مقال ادبي ان تختفي الفلسفة المجردة ، ان تظل كامنة كمون النار في الحجر .. ان تندمج الفروع .. ان تتغلب الكليات على الجزئيات ، ان تكون الجزئيات سلماً الى هذا الكلي ، سلماً غير مرئي .

ولكن كيف نسوغ لأنفسنا ان نطلب ذلك الى الكاتب الذي يؤلف في ذاته هذا المزيج من الفلسفة والأدب والتاريخ والتأمل ؟

أليس من الخير ان ندع للتكهنات الخاصة مذاقهــا المتميز ، مها يكن من أمر هذا المذاق ؟

٥ ـ الموازنة في علوم البلاغة أساس فن الترجمة

الدكتور عبد الكريم اليافي

يأتي البحث الذي ترجمه وقدمه الاستاذ عبد الكريم اليافي بعد هذا التكثيف الفكري على مساحة واسعة هي الادب ، شعره ونثره ، في مقال الاستاذ مقدسي ، تكثيفاً آخر على مساحة ضيقة هي الترجمة : هذا الفن الذي لايحتاج العرب الى شيء في هذا العصر كما يحتاجون اليه من حيث الثقافة ولا يحتاج المثقف الى شيء يعلمه المعرفة والصبر كما يحتاج اليها .

والمقال على صلة بالترجمة وانبثاقه منها ، ليس بعيداً عن النقد .. ولعله كذلك ، على نحو أو آخر ، في الصميم منه .

ان اتساع الافاق في مثل هذا البحث ، لغة وأساليب وموازنات بين عديد من اللغات ، يضعنا أمام قصورنا الفظيع ومسؤولياتنا الضخمة . اني أمام مثل هذه الابحاث ، أشعر وكأني اتوارى في كهف من الخجل ويتوارى معي المجموعة الكبرى من المثقفين العرب .. ذلك لأنه يشعرنا بالتخلف في نطاق البحث من نحو وبضمور الشعور القومي في نطاق الحياة الثقافية من نحو آخر .

اننا دائماً نلهب لغتنا بسياط من التهجم ،ويتمنى بعضنا لو خرج عن كل قواعدها وجمالياتها ، وتساور بعضاً آخر نزعات او نزغات توشك ان تبلغ حد الانخلاع منها .. بينما يجهد الاخرون في تقديس لغتهم والكشف عن كل جميل ورائع فيها .

مثل هذا المقال ليس مثيراً في حدود الموضوع الضيق الذي يتناوله فحسب .. ولكنه اشد اثارة في نطاق الافاق الفكرية والمسؤوليات القومية والمشاعر ، والمناهج التي يدفع الى التفكير فيها .. انه يجعل كليات الاداب في الوطن العربي وكأنها تحيا خارج النطاق الفكري والعلمي والحضاري الذي يحيا فيه العالم .

ان امثال الدكتور يافي جديرون دائماً أن يشبعوا القارىء العربي على هذه المطلات الواسعة والدكتور اليافي جدير بخاصة أن ينهض بتعريب مثل هذه الابحاث : أي اضافة اللغة العربية عنصراً في مثل هذه القضايا والموازنات . ولو فعل ـ وهو اجدر الناس بأن يفعل لذي يملك ، الى جانب مايملك ، من ثقافة عربية ـ لكان تجاوز هذه الجملة التي ذكرها في التقديم : (لم يعرض صاحب المقال للغة العربية وادابها إذ كان بعيداً عنها) ولكان منح

هذا البحث صبغة تعريبه ، أردت : وضعه في نطاق اللغة العربية او وضع اللغة العربية في مسراه .

أ كان حسب الدكتور اليافي أن ينبه ويثير وان يضع الباحثين على اول الطريق، ام كان عليه ان ينطلق هو في الطريق الى آخره ؟

ذلك هو السؤال .. اتراه سؤال الطامحين او هو سؤال الطامعين الذين يحملون الاخرين المسؤليات كلها ؟

٦ ـ النقد الأدبي فعالية مستقلة أم تابعة

د . حسام الخطيب

كان لا بد للذي أشرف على اخراج العدد من أن يعود بالقارىء الى صميم النقد.. انحرف بنا عنه دون أن يخرجمن اطاره ، ثم ردنا اليه في عنف وعمق مع مقالالدكتور حسام .. كان لا بد من الرجوع الى المقال ذي الفكرة الواحدة التي يمثلها السؤال — العنوان ، النقد الأدبي ، أهو فعالية مستقلة عن الابداع الأدبي عند المنشىء والتذوق عند القارىء أم هو فعالية تابعة .

اننا هنا ، ومنذ السطر الاول ، في صميم قضايا النقد وفي أدق الطرق وأصعبها في التعرف الى طبيعته .

والمقالات التي تمارس الحديث عن جوهر مادة ما لا يمكن أن تكون ، ولا تهدف في الأصل الى أن تقول ، الكلمة الأخيرة .. الكلمة الأخيرة عالم مجهول من وراءالأفق.. انها العنقاء التي نتحدث عنها دون أن نصل اليها .. ولا يملك الباحثون الا الاضواء يلقونها هنا وهناك في محاولة التعرف اليها والا الاسلوب الذي يستخدمونه في معالجتها .

كان لا بد للمقال ـ أمام مشكلةالنقد الكبرى هذه ـ من أن يكون له هذان الطابعان: طابع التاريخ وطابع المعاصرة .. عرض لما كان وعرض لما هو كائن .. كيف كان ينظر الى النقد وكيف آل النظر اليه .

ان د . حسام لا يكتفي ـ على طول المقال ـ بتمجيد النقد ولا بالتأكيد على فعاليته وأنها تنتهي الى نوع من السلطة والتحكم ووصاية الناقد وممارسة الارهاب .. ولكنه يعود في آخر المقال ، بحس الناقد الذكي ذي البصر البعيد ، فيحذر من طغيان

هذه الفعالية ويجعلها مرتبطـة ، آخر الأمر مها يكن من تعاظمها وسيطرتها ، بالأدب وبالمنتجين لهذا الأدب لان النقد لا يضرب في الهواء .

والحق أن ظاهرة السيطرة التي مثل لها بهذه الواقعـة المعاصرة « تعليق ستانلي هايمن على كتاب أقنعة الحب لروبي ماكولي » والتي اشار الى انه رواهـا الدكتور زكي نجيب محمود في مجلة الفكر المعاصر (والتي يمثل لها نص آخر من مقال أزمـة المنهج للاستاذ خلدون الشمعة ص ٨٩) ـ هذه الظاهرة تدفعنا الى التساؤل عن طبيعتها ، أهي ظاهرة اصيلة تعود الى النقد نفسه وتكتسب قدرتها منه ، ام هي ظاهرة تكتسب قدرتها او إذا شئنا الدقة ـ تكتسب اكثر قدرتها ـ من طبيعـة الحياة الاجتماعية المعاصرة التي نحياها ومن طبيعة الأنظمة التي يعيش الناس في ظلالها ؟

ان فقدان الحرية ، بمعناها العريض ، هو الذي يهب النقد او بعض النقاد هـذا التسلط .. هو الذي يتيح لهم هذه السيطرة ويتيح لهم كذلك اساءة استعمالها .. ففي البلاد التي تسيطر عليها الفكرة السياسية ـ الاجتماعية الواحدة لا يخرج النقد عن نطاق هذه السلطة لأنه سيف من سيوفها في النطاق العملي وانبثاق من طبيعتهـا في النطاق النظري .. وفي البلاد الأخرى التي تسيطر عليها الاحتكارات الكبرى وتخضع فيها الصحافة السياسية كما تخضع الصحافة الأدبية لهذه التبعية الرهيبة ، وتكون وسائل الاعلام مشدودة كلها الى بعض الخيوط الكبرى التي تصر على اشاعة مفاهيم معينة ، في هذه البلاد ايضاً لا يملك النقد ان يخرج عن هذه الحـدود ، ولذلك فان الناقد يمارس سلطانه ـ وهو مستمد منها ـ في ظلالها وخدمة لاغراضها .

ان هذا يعني ان السلطة التي تقود النقد الى حافة الارهاب ليست من طبيعة النقد، ولكنها أثر للمناخ السياسي والاجتماعي الذي تغيب فيه القدرة على قول الكلمة الطيبة البريئة والقدرة على اشاعتها .

حيث تتوفر الحرية يستطيع كل النقاد أن يقولوا وهم يملكون القدرة المتماثلة على اشاعة مايقولون ، فيتلاقى في ساعة واحدة وفي أفق واحد الرأي والرأي النقيض . أما حيث تضؤل هذه الحرية أو تضمر فان ذلك يتعذر أو يستحيل .

وليس هذا فحسب .. ان التصور يبدو ناقصاً ، فنحن نتحدث عن سيطرة الناقد وتمكنه من فرض الرأي أو التفسير .. ولكننا ننسى القارىء ، ننسى جمهرة القراء والمثقفين وكأنهم كمية مهملة ، وكأنهم ليسوا قوة ثالثة في هذا الصراع . نتجاوزها كما

نتجاوز الآن في شعورنا وتصرفاتنا قدرتها ، فنتحدث عنها دون أن يكون لهـا في تصرفاتنا نصيب ..

إني لا أتحدث عن بناء الذوق الأدبي وعن اسهام النقد في تكوين هـذا الذوق ، وانما أتحدث عن وجه السيطرة في هذا البناء .. السيطرة ، فيما يبدو لي ، أثر من آثار المعاصرة طارىء على النقد وليس جزءاً طبيعياً منه .. وما يفترق به النقد المعاصر عن النقد القديم ليس جانب السيطرة وانما هو جانب الثقافة التي داخلت الثقافة التي داخلت النقاد وساعدت على تكوين النظر الى الأثر الأدبي .. وأما السيطرة فانه لامكان لها حين تسود الحرية الصحيحة .

لو عاش المتنبي في أحد النظامين العالميين المعاصرين لكان لقي احدى نهايتين متباعدتين متنـاقضتين : مصرعه أو تقديسه .. ولكنه عاش في عالم ثالث ، لذلك بقي الذي له وبقي الذي عليه .. أي بقي النقد من غير إرهاب ينطلق من سلطة المـال أو سلطة الحكم .

هل يقودنا هذا اذن الى الاقرار بهذه السلطة النقدية الارهابية ويجعلنا نحيـا حياتنا الأدبية في ظلال الخوف منها ؟

أبداً .. وعلى النقيض .. إن تحليل هذا الارهاب انتهى بنا الى أنه عنصر طارىء على النقد لاينبع منه ، وهذا معناه اننا في موقف لايسمح لنا بالخضوع له .. ذلك لأن سيطرة النقد المجتلبة من ظروف خارجة عن طبيعة النقد تحمل في ذاتها نقائضها التي تذهب بها ، لأن أي تغير في هذه الظروف الخارجة قادر على ان يحول هـذا النقد وجهة أخرى .

أليس ذلك بالضبط ماحدث وما يحدث في حركة النقد المعاصرة في بعض البلدان؟

٧ ـــ الحكيم ناقداً مسرحياً

د . عزيزة مريدن

البحث الهادىء الذي تغلب عليه الأناة عن الحكيم ناقـداً مسرحياً يضعنا أمام جملة من آراء موزعة للحكيم نثرها في مقدمات كتبه ومسرحياته .

ان هذه الآراء اكتسبت قدراً من الذيوع في هذه الفترة منذ أن نشرت .. ولكن هذا الذيوع لاينفي ــ مرة واحدة ــ الحاجة اليها مجتمعة في بحث متصل .

والملاحظتان الأساسيتان اللتان تراودنني وأنا أقرأ هـذا البحث تتوزعان بين صاحبته د . مريدن وبين توفيق الحكيم .

الأولى ، وتتصل بالدكتورة مريدن ، أني أتمنى أن تكون آراء الحكيم في هـذا البحث قد نحت نحواً تاريخياً في عرضهـا .. قلت الآن في وضع يسمح لي أن أتثبت من ذلك .

لا أريد من تسلسلها الزمني ، ولكني أريد للمقال كله بعداً تاريخياً .. هذا البعد التاريخي يتجاوز تصنيف آراء الحكيم زمنياً الى مقارنتها – زمنياً أيضاً – بالآراء الأخرى التي كانت تنشر حول هذا الموضوع .

قد لايتسع مقال في مجلة لذلك .. ولكن لابد من الوقوف عنـده ومن الاشارة اليه ، أو لابد من التبشير به .. لأن المقال الذي يتقلب في أعطاف العرض التصنيفي ، لابد له من هذا البعد التاريخي ، سواء فيما يتصل بآراء الحكيم أو بآراء الآخرين التي تعرضت لمثل هذه النقاط .

ذلك – ولِمَ لا أقول : وذلك وحده – هو الذي يساعدنا على أن نضع الحكيم ، والآخرين ، موضعهم الصحيح في هذه الدراسات الأدبية .

والملاحظة الثانيـة لاتتصل بالباحثة ولكنها تتصل بالأستاذ الحكيم .. وأنا أسوقها على حذر وتهيب .. ذلك أن الانسان حين يقرأ ما نقلته الدكتورة مريدن عن الحكيم في مسرحيته « الصفقة » عن المشكلات الفنية في مراحل العمل المسرحي ، يشعر وكأنه لايقرأ للحكيم وحده .. كأن هناك كتاباً آخر وراء كتابة الحكيم .. أليست الصلة شديدة بين هذا الذي هنا وبين كتاب مترجم كان نشر منذ سنين ، بعنوان كيف تكتب مسرحية ؟.

هل لي أن أتمنى هنا أن تكون ذاكرتي قد تخلت عني ؟.

٨ – أزمة المنهج في النقد العربي المعاصر

خلدون الشمعة

هذا مقال مكتمل حول أزمة المنهج في النقد العربي المعاصر . ويتمثل اكتماله في أنه لم يقف عند حدود الحديث النظري وانما جاوز النظريات الى التطبيق ، فعقـد في

آخر المقال ملحقاً سماه : اشارات تطبيقية . وليس هذا فحسب ، ولكن ميزة المقال من نحو آخر أنه لا ينبع من تصورات او من قراءات .. قد تكون القراءات مسعفة له ، ولكن نبعته الأصيلة جاءت من معاناته للنقد العربي المعاصر ومتابعته له عند عدد من النقاد .

روح المقال واضحة فيه لا تستخفي : ثمة سلسلة من الروافد ، من المعارف الانسانية التي ترفد النقد وتوسع أفق الناقد من مثل علم النفس والاجتماع والتاريخ والاقتصاد والسياسة ، تحاول أن تفرض مناهجها على النقد تحت اغراء النزعة العلمية وسيطرتها والتظاهر بها ليكون النقد علماً .. ولكن الأثر الأدبي ليس أثراً نفسياً ولا أثراً اجتماعياً . ، والشخصية الفنية ليست الشخصية الاجتماعية ولا الشخصية الواقعية . وذلك فان النقد لن يكون معرفة نفسية ولا معرفة اجتماعية او تاريخية أو . . . ولن يكون منهجه تقليداً لمناهجها .. اذ أن سيطرة هذه المناهج تصيب النقد بشيء من العقم وتصيب الناقد بشيء من ضيق الأفق .

ويحدد الكاتب بدقة وبراعة خوفه من هذا العقم والضيق بقوله : ان الناقد العلمي اذا لم يجد في الأثر المنقود مايبحث عنه غض الطرف عما يجده مما لايبحث عنه . هذا من الناحية النظرية ، أما من الناحية التطبيقية في النقد المعاصر فقد حدد الكاتب ذلك بقوله ، « ان تجارب النقد العلمي في بلادنا تجري بمعزل عن هدف النقد العام في توسيع حجم خارطة الحساسية بين القراء » وتفاعلهم مع الأثر الادبي .

اذن فماهي سمات المنهج النقدي الذي يدعو اليه الكاتب ؟

المقال اذن في جملته ، دعوة حارة لاستقلال النقد بمنهجه عن سائر الروافد العلمية الاخرى التي تساعده دون ان تسيطر عليه ..

والملحق التطبيقي هو الذي يجسد هذه الدعوة ، ويعبر عن اتجاه الناقد ، وعن متابعته الحية ، ويصور بوضوح أزمة التطبيقات المنهجية في النقد الأدبي المعاصر حين اتجهت هذه التطبيقات الى اكراه النقد على ان يكون خاضعاً لهذه المناهج ، تابعاً لها ، وان تكون هذه المناهج سابقة عليه وحاسمة فيه .

والحق ان هذا الملحق التطبيقي انتهى الى ادانة مجموعة من النقاد والمعاصرين والى مايشبه أن يكون محاكمة لهم ، لأنهم يصدرون عن مثل هذه المواقف القَبْلية والمسبقة بأكثر مما يصدرون عن منهج نقدي بحت .

ولم تكن هذه المحاكمة منهجية ولا نظرية لأنها كانت تستند الى مواقف هؤلاء النقاد ويؤخذ عليها :

أ ـ اغراقها في التزام نزعة علمية بعينها بما يقود الى انصرافها عن الجانب الفني (حسين مروة في كتابه دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي حين تناول رواية فارس آغا لمارون عبود فانصرف الى تحديد جنس العمل الأدبي بديلا من اكتشافه وتحديده والوقوف عنده . وبذل في ذلك جهداً يبدو كأنه جهد ضائع لأن تحديد الجنس الأدبي أمر يتعذر أحياناً في بلادنا لحداثته وعدم نضجه) (ميشال عاصي في كتابه دراسات منهجية في النقد حين يُغْرَى بالمنهج العلمي فيغفل عن الحساسية الفنية) .

ب ـ او تناقضها في نصوص مختلفة على مدار اعمال الناقد (محمود أمين العالم في كتابه تأملات في عالم نجيب محفوظ حين يصر على هذا التواشج بين الشكل والمضمون على حين أن معظم كتابات العالم التي سبقت هذا الكتاب خلال ربع قرن يمكن أن تسقط قيمتها النقدية على اعتبار أنها لم تكن تتناول الأدب الا من خلال المضمون وقد تم فصله عن الشكل استجابة لبعض الاعتبارات الايديولوجية) .

جـ ـ أو أن تكون محاولاتها النظرية في جانب وعملها التطبيقي في جانب آخر (محمود أمين العالم مرة أخرى حين انتهى من توضيح اتجاهه النظري الجديد في الفصل بين الصورة والمضمون الى تطبيق هذا المنهج .. ولكنه لم يطبق ذلك على رواية نجيب محفوظ التي هي الموضوع الأساسي للكتاب ـ وانما طبقه على القصيدة العربية من امرىء القيس الى محمود حسن اسماعيل .

د ـ أو أن يكون الناقد وفياً لمنهج بعينه فيطبق هذا المنهج على عمل فني قائم في الأصل على نقيض هذا المنهج (مروة ايضاً في نقده لشعر أدونيس كان مشدوداً الى مقاييس القصيدة التكاملية على حين أن قصائد ادونيس تعود الى طبيعة اخرى هي طبيعة القصيدة الدروية) .

خلدون الشمعة في هذا كله لايريد طغيان منهج علمي معين من هذه العلوم التي رفدت النقد وأغنته .. يريد ان يفيد منها دون ان يخضع لها . ويدعو الى منهج نقدي مرن ، قابل للترويض ، يتكيف وفاق الاثر المدروس ، ويكون رصيده من الحساسية الفنية عاصماً له عن ان يتجمد او يتحجر او ينزلق بين الاشباه والنظائر .

ويريد من الناقد ان يكون فناناً يلازمه دائماً هذا الحس الفني وحده فلاتتحكم فيه الخلفيات الفكرية او المذهبية ، وانيكونوفياً النقد بأكثر من رغبته في الوفاءلأصحاب الآثار المنقودة بدوافع بعيدة عن النقد .

ان خلدون الشمعة بهذا انما يصر على تصفية النقد ، والابقاء على جوهره الصافي الحر ، مخافة ان تغتاله الفكريات والايديولوجيات ، أو ان تسيطر عليه باسم العلنزعات حلبية لاتصلح في مجالات النقد .

وهو بهذه الدعوة يتابع التطبيقات النقدية المعاصرة ويكشف عوارها منطلقاً من آثار النقاد انفسهم ومن تناقضاتهم احياناً أو اسرافهم على انفسهم وعلى النقد أحياناً أخرى .

بقي ان الاستاذ الشمعة كان مرة واحدة ، انفعالياً ومتأثراً ، فيا يبدو ، ببعض المشاعر المستكنة حين حمل بقسوة على الجامعات العربية ، وان دراساتها نوع من تحصيل الحاصل ، وحين ضرب مثلاً على ذلك من كتاب فنون الادب المعاصر في سورية .

ان الجامعات العربية تعوم في الضلال وتأخذ تقيم قيماً ، ذلك شيء يحسن أن ترتفع الاصوات دائماً منبهة اليه محذرة منه .. ولكن الجامعات لا تؤخذ كلها بالمثل الواحد ، والمثل العارض .

٩ — في العلاقة بين الفكر والأدب

صفوان قدسي

نحن نختزن تجاربنا وممارساتنا وآراءنا ، لانتحدث عنها دائماً في حينها .. ولكن يحدث أننا نقرأ ذات مرة كتاباً أو نمر بمرحلة فيثير عندنا الكتاب أو المرحلة جملة من هذه الآراء والتجارب والممارسات .. ويكون لهذا الكتاب مثل مايكون لضربة الفأس التي تفجر الينبوع .. مئات من الضربات قبلها كانت لاتنبط الماء ، ولكنها في ذات الوقت كانت تمهد السبيل الى إنباطه .. حتى اذا كانت الضربة الأخيرة كان التفجر .

يبدو لي أن كتاب نظرية الأدب الذي ترجمه الاستاذ محيي‌الدين صبحي كان ضربة الفأس هذه .. التفاعل مع هذا الكتاب فجرت عندي الاستاذ صفوان مختزناً من الآراء والمفاهيم ، فكان هذا المقال تعبيراً عنها .

ويشترك مقال الاستاذ صفوان مع مقال الاستاذ خلدون الشمعة في هذه الناحية التطبيقية . فقدنظرالاستاذ القدسي كذلك الى موضوعه من جانب تطبيقي هو العلاقة بين الفكر المعاصر وبين الأدب العربي .. وأتاحت له متابعاته المتصلة وملاحظاته الدقيقة أن يدل بوضوح على الاتجاهات الفكرية المختلفة التي مارست سلطانها على الفكر العربي خلال هذه الفترة وتركت بصمات أصابعها عليه .. وأن يقرن ذلك بالأحداث والكتب حتى يضيء الطريق امام القارىء .

ان ارتداده من الأدب الى الفكر ووقفته عند الفكر العربي ، ذلك كله ساقه الى الحديث عن الشخصية القومية على الرغم من ان بحثه ليس بحثاً في الشخصية القومية ، ولكن هذه المسألة في رأي الاستاذ صفوان تفرض نفسها ، فالأدب العربي المعاصر يحاول استكشاف ملامح هذه الشخصية وأبعادها .

ان النفاذ والتتبع وملاحقة الفكر العربي والنتاج الأدبي أعطت مقال صفوان قدسي بعداً خاصاً .. ولكن وفاء الكاتب لحياة الفكرية العربية ولصفاء هذه الحياة واصالتها والارتفاع بها عن مستوى أن تكون منفعلة الى أن تكون فاعلة ، يعطي المقال كذلك مذاقاً خاصاً .. اننا أمام كاتب حريص على أن تأخذ الأعمال العربية في الفكر والأدب ابعادها الذاتية الخاصة متفتحةعلى غيرها ولكنها ليست خاضعة لها ولا مقلدة .. فالأدب في أوربا ثمرة لحياة اوربية بكل قيمها وازماتها واحداثها وجذورهاوتطلعاتها .. والفرق بعيد في ذلك كله بين الوطن العربي وبين اوروبا .

ولكن هل كانت أمثلة مقال الاستاذ القدسي دائماً هي الأمثلة الأفضل ؟

لقد وقف عند « نجيب محفوظ » على أنه ، في نتاجه ، يحاول استكشاف ملامح الشخصية العربية وأبعادها، وان نماذجه البشرية التي يقدمها في رواياته وقصصه القصيرة يمكن أن تعتبر ممثلة للشخصية العربية .

ولكننا في الحق لانستطيع أن نطمئن الى ذلك ولا أن نذهب بعيداً في تأييده .. انشخصيات نجيب محفوظ ليست هي الشخصية العربية والنموذج العربي .. انما هو في جانب واحد منها في بعض المرات .. ولم ينطلق نجيب محفوظ بطلاً من ابطاله بكلمة عن المطامح السياسية الكبرى للانسانالعربي وتطلعاتهالى ماوراء الافق الاقليمي .. وفي الافق الاقليمي كاننجيب محفوظ بالرغم من كل تمسحه ببعض المثل غارقاً في اقليمية

ضيقة وفي نزعات لا تخدم احياناً حق هذه الاقليمية الضيقة ..وليس من شك في ان نجيب محفوظ تحت تأثير غايات قريبة واضحة وبعيدة مستترةقدمُنح نوعاً من التأليه.. وسخرت له اقلام وصحف ، واقحم في برامج ودراسات عن نية حسنةاوعن غفلة اوعن تغليب مجرد للقيمة الفنية .. وحتى في جانب القيمة الفنية اريق من الحبر في الحديث عن آثار نجيب محفوظ فوق ماكان يكون لكاتب آخر يملك ذات الموهبة .

ولست انا الذي اقول هذا ، ولكن الاستاذ صفوان تنبه له احدَ تنبهفي مرتين:

مرة حين توقف عند الشخصية العربية في الادب المعاصر فقال « ان الشخصية العربية في الأدب المعاصر ليست واحدة ، وذلك بفعل تعدد الكيانات والاقاليم العربية، هذا التعدد الذي يحاول ان يكرس مفهوم الشخصية الاقليمية المنقطعة عن الشخصية القومية ص ١٠٥ عمود ٢ »

ومرة اخرى حين اشار في الهامش الى الاستاذ اديب نحوي بعد أن مثل بنجيب محفوظ .. كأن احس ان نجيب محفوظ ليس المثل الافضل ، ولذلك قال عن اديب نحوي « انه يكتب منذ الخمسينات غير ان الظروف السياسية حالت دون ان يصنف واحداًمن افضل كتاب القصة في سورية ص ١٠٥ الهامش »

أليس معنى هذا ان ظروفاً اخرى سياسية — فكريةهي التي صنفت كتاباً آخرين في غير مكانتهم او تجاوزت بهم حجمهم الطبيعي ؟

النقد المذهبي ! ما اقسى ما يكون من آثاره .. لو لم يكن منه الا أن يحجب كل القوى الناشئة الاخرى اذا لم يستطع ان يجتذبها ، لكان ذلك وحده كافياً في رفضه .

شيء آخر في مقال الاستاذ صفوان هو الحديث عن هذا الخواء الذي قال بان الفكر العربي كان يشعر بـــه ، وان التيارات الفكرية الثلاثة (الماركسية والوجودية والفرويدية » وجدت هذا الخواء فملأته .

في رأيي أن الأمر هنا يحتاج الى شيء من تعديل في اذهان الباحثين .. ان التأكيد على هذا الخواء قد يفسر على أنه انكار لوجود الفكر العربي .

ان التيارات الفكرية في الوطن العربي لم تكن هذه الثلاثة ، وانما كان التيار العربي حياً ومتمثلاً : كان التيار السياسي حياً ومتمثلاً في بعض الاحزاب السياسية (عصبة العمل القومي على سبيل المثال) .. وكان التيار الحضاري حياً ومتمثلاً فيمئات من الاعمال اللغوية والادبية والفكرية ، مايتصل منها بالتراث وما يتصل بالابداع .

ليس من الدقة ابداً أن نقول إن الفكر العربي كان يعاني خواء .. انه كان فكراً مدركاً لما عنده مدركاً لما ينقصه .. ولكن الغارات التي سلطت عليه (أقصد الى استعمال اللفظين : غارات ، سلطت قصداً) والتي شغلته بالدفاع عن نفسه ، هي التي حالت بينه وبين تطوره الطبيعي .. وفي تتبع حركة الترجمة في جوانب منها ـ وهي في الأصل حركة ترجمة ـ ومعرفة ما كان يترجم ومن الذي يترجم والظروف التي نشطت فيها هذه الترجمات ، في ذلك كله مجال واسع لتتبع انتكاسات الفكر العربي .. ولعل اوضح دليل عملي على أن الفكر العربي لم يكن خواء أن تقوم الجامعة السورية على أساس اللغة العربية . أما الأمثلة من احداث السياسة فهي تاريخ القطر نفسه .

أفلا يرى الاستاذ القدسي أن الأمر في حاجة الى احتياط .. وان التيارات الفكرية الأجنبية لم تكن بحال تيارات عفوية ، وان الأمر لم يكن ملء خواء ؟

هل في وسع المرء أن يتمنى على الكاتب أن يتابع هذه الدراسة في أضواء جديدة؟

١٠ ـ مقابلة مع زكريا تامر

المقابلة واحة في مسيرة العدد ومتابعة موضوعاته .. انها مجموعة غنية من القضايا ومجموعة ذكية من الاجابات .

قد تبدو المقابلة شخصية .. ولكن الجانب الشخصي فيها لايصدق على كاتب بعينه ولا على بلد بعينه ولا على أسماء بأعيانها فحسب ، وانما يمتد ليكون أحياناً تعبيراً عن النقد العربي والكاتب العربي .

لقد أكدت المقابلة على أمرين : أحدهما الحاجة الى ناقد صارم ، والآخر هو صلات مابين الدولة والأدباء وكان منطلق الكاتب في هذه أن الأديب لايجمل واجبات الآخرين وليس لهم ان يطلبوا منه كل شيء .

ولكن الغريب أن المبدأ النظري في الحاجة الى ناقد صارم لم يجد تطبيقه عند الكاتب نفسه .. ذلك أنه تجنب ذكر أسماء النقاد في حديثه عن تجربته مع النقد والنقاد وتجاوز في كثير من المرات الأخرى ايضاً ايضاح الأحداث التي استشهد بها ..

صفحات مجهولة في تاريخ القصة السورية

عادل ابو شنب

يطالعك الاستاذ أبو شنب في هذا العدد وتتبدى لك صورته المنطلقة وبسمته التي تأخذ أقرب الطرق الى شفتيه في مقاله هـذا مرة وفي الاستفتاء الذي جاء بعد ذلك مرة أخرى .

لا أدري لماذا وددت لو أني قابلت الاستاذ عادل مرة واحدة في الاستفتاء، ولم أقابله في المقال . المقال أقرب الى اصطناع منهج البحث ، أما الاستفتاء ، فهو أقرب الى التعبير الأصيل عن روح الفنان . ولقد ارتضيت عادلاً فناناً ومتحدثاً عن فنه بأكثر ممـا أرتضيه باحثـاً يأخذ نفسه أخذاً بالتصنيف والتسلسل والكشف عن بعض الورقات المجهولة ..

لو لم يكتب الاستاذ شاكر مصطفى تاريخ القصة لكان عمل عادل أدنى الى القبول . ذلك أني لم أستطع أن أعلام كفي بجديد بعد ان قرأت ما كتبه الاستاذ شاكر مصطفى مرة ، وما كتبه الاستاذ عدنان ذهبي مرة ثانية .

قد تقول : ولكن كاتب المقال وقف على عدد من القصص لم يطلع عليها غيره . انه يذكر ذلك (اننا أمام عدد محددمن القصص أطلع عليها الاستاذ شاكر مصطفى ثم عدنان الذهبي ، وعدد آخر أتيح لي وحدي الاطلاع عليه .. لهذا سيكون بحثنا منصباً على القصص التي قدمها القاص بنفسه إلي ، بعد ان وجدها محفوظة في دفتر يعود عمره الى أكثر من ربع قرن (١) . وفيه القصص التالية .. ثم يذكر عناوين سبع قصص ، ويدرك القارىء بعد ذلك أن أربعة منها كانت نشرت في « ربيع وخريف » وأن خامسة منها هي « فتاة الحانات » كانت على حد تعبير عادل أردأ قصص علي خلقي فلم يبق من ذلك إلا قصتان .

ليكن .. ان نصاً واحداً ، صفحة من نص جديد نكتشفه ، قد تغير نظرتنا الى الكاتب . ويبقى السؤال : اذن ما الذي قدمته هاتان القصتان من جديد في التعريف بالاستاذ خلقي ؟

---

(١) هل يريد عمر القصص ؟ انها تقترب من نصف قرن .. أم يريد عمر الدفتر ، أي نسخ القصص ؟ .

الحق ان الجديد في عمل الاستاذ عادل ليس في كشفه عن مجهول من آثار خلقي ومن عمله الفني .. ولكن الجديد حرصه على أن يلبس أكرم خلقي أثواباً خاصة ،يخيطها هو له في شيء كثير من الحب والتقدير وما يقود اليه الحب والتقدير من تسامح .

الكاتب يمنح علي خلقي سلسلة من الاولويات ، وتتكرر كلمة أول في ثنايا الدراسة مرات ، وتنتهي بها هذه الخاتمة : (إنه الأول تقريباً الذي كتب القصة وهو يعرف أنه يكتب قصة ..) والأولويات هذه ، فيا أقدر ، تحتاج الى قدر أكبر من الأناة ، كما تحتاج الى قدر أكبر من التتبع ، والى قدر أكبر من المقارنة :

آ — هو في حاجة الى قدر أكبر من التتبع لان البحث الجديد لايمكن ان يقوم على قصتين جديدتين .. وكان في وسع الاستاذ عادل أن يمنح بحثه قدراً من « العلمية » لو أنه جمع قصصه الاخرى التي قال انها موجودة (هامش ١٤٤) في مجلات سورية ولبنانية كثيرة .. أليس غريباً ، في منطق البحث العلمي ومقتضياته ، أن يقول الاستاذ عادل (لم يسع الى هذه الصحف التي باحث) ثم لايسعى هو إليها وقد عرفها .

ب — وهو في حاجة الى قدر أكبر من المقارنة لان الاستاذ عادل يحدثنا ان خلقي كان يكتب القصص على طريقة المنفلوطي «ص ١٤٩ » . ثم يحدثنا أن حياته الادبية يمكن أن تنقسم إلى مرحلتين : مرحلة البواكير ومرحلة النضج « ١٤٩ هامش » ولكننا لانجد أثراً لذلك في هذه الدراسة .

جـ — ثم هو في حاجة الى قدر أكبر من الاناة حتى نمتحن مثلا أثر اخيه « الذي فتح عينيه فوجده يمثل في مختلف الفرق وفي معظم المسارح المعروفة وقتئذ ص ١٦٠ هامش » وحتى نعرف مقدار الجدة في قصصه التي احدثت « نكهة جديدة ودوياً هائلا »

واذا كان الاستاذ الكاتب يشك فيا يقوله القاص عن نفسه « هامش ١٤٩ » وأنه لم يتوقف عن الانتاج ، فان نزعة الشك يجب ان تتناول ، بالقياس ، ماروواه له عن نفسه من انه « التهم كتب الظاهرية وقرأ معظم القصص والروايات المترجمة في ذلك الوقت كما قرأ الأساطير اليونانية والهندية وتعرف على موباسان و .. هامش ١٥١» .

اما اذا غلب اليقين على الشك فان من الحق ان تعرف آثار هذه الاشياء في نتاجه القصصي حتى لاتكون الدراسة ، كما ظهر من تلخيصها نوعاً من العناية بتصنيف القاص من نحو فكري بأكثر من تصنيفه بنحو ادبي .

ان حاجة الاحكام الفكرية الى الاداة لاتقل عن حاجة الاحكام الادبية . . والافكيف استجاز الاستاذ عادل ان يقول عن لغة القاص علي خلقي ؟ « استخدم لغة سهلة قريبة من الكلام المحكي » ثم جمع بين اللغة والاسلوب وتابع ليقول : « فكان اسلوبه من النوع السهل الممتنع » ثم تابع ثالثة ليقول : « وان شابته ركاكة في بعض الاحيان » .

كيف يكون الاسلوب سهلا ممتنعاً وتشوبه الركاكة ؟

اغلب الظن ان كلمة « ممتنع » جاءت . عفواً من غير قصد . . قفزت قفزاً من الذاكرة . . او لعل نزعة التمجيد قادت اليها . . والا فان الجمع بين الاسلوب السهل الممتنع الذي تشوبه الركة نوع من «التكعيبية الجديدة » في التعبير . .

ان الذي يبعث على الاعجاب في عمل الاستاذ عادل روح الوفاء للاستاذ خلقي . . ولكن الوفاء لرائد قصصي لايقتضي حصره في تصنيف معين . والبحث العلمي لايكتسب علمية من شرح كلمة « الزبداني » في الهامش بانها « مركز قضاء (هل الزبداني الان قضاء ؟) يبعد ٥٠ كيلومتراً اعتاد سكان العاصمة . . ص ١٥٢ هامش » . . ولا ان الصافي دمج « كل وما » في كلمة واحدة (هل النص الذي كتبه الصافي بين ايدينا ؟) . . ولا ان كلمة الرادات تبدو جمعاً لكلمة راديو « هامش ١٥٣ » لانها جمع لكلمة رادة (الآلة الرادة الجهاز الراد ، الراديو) وترجمة لكلمة راديو تجمع بين وظيفة الجهاز وبين اسمه الاجنبي وقد كان اقترحها احد هؤلاء الذين يسميهم بالمترمتين ممن كان الاستاذ خلقي على صلة به، وهو الاستاذ الطنطاوي وقد شاعت اللفظة حيناً على بعض الأقلام .

ترى هل استطعت أن ادل لماذا احببت عادل ابو شنب الفنان فوق ما أحببته الباحث ؟

١٢ – « طريق » نجيب محفوظ

الأستاذ جورج سالم

الذين يعرفون الاستاذ جورج سالم من خلال مايكتبه مدركون اية قدرة له على اكتناه الظواهر الادبية وتفسيرها

ودراسة الاستاذ سالم في هذا المقال لنجيب محفوظ في رواية الطريق تعبير جديد عن هذه القدرة وتمثيل لوخة من وجوهها .

ان مقدمة الدراسة تذهب الى انها ستتيح مزيداً من التوسع والتعمق في فن نجيب

محفوظ من جهة وفهم عالمه الفكري من جهة ثانية . ولذلك تناول الاستاذ الناقد الرواية من مستويين : مستوى الاحداث والاشخاص والحركة ثم مستوى ماوراء الاحـداث والاشخاص للوصول الى المدلول العام الذي ينبثق منها .

ولاادري اذاكان مقال الاستاذ سالم وفياً لهذين : الدراسة الفنية والخلفية الفكرية. ام انه سخر الجانب الفني للجانب الفكري ؟

ان طغيان احد الاتجاهين في الدراسة على الآخر قد يكون نابعاً من طبيعة الاثر المدروس . ولذلك لن نتوقف هنا طويلا .. وانما الذي يستوقفنا هذه النتائج التي انتهى اليها الاستاذ سالم .

ان المقال يضع نجيب محفوظ الروائي الذي ظل نموذجاً للواقعية الاشتراكية ، وداعية التغيير ، وعاملا في نطاق الفن للمجتمع — في هذا الموضع الذي تمثل اطرافاً منه النقاط التالية:

١ — البحث عن الاب (الرحيمي) في الرواية هو بحث عن الرب القادر على كل شيء .

٢ — صابر الذي يبحث عن أبيه هو صورة عن أبيه . وهذه الملاحظة تذكر الكاتب على نحو حاسم بالآية المشهورة في الانجيل : « وخلقه على صورته ومثاله »

٣ — الطريق الصحيح في الوصول الى الاب طريق المحبة . ولا طريق سواه .

٤ — الاب بعيد . وسبب ذلك يعود الى الخطيئة . ولابد ان نذكر هنا زلة آدم والخطيئة التي اخرجته من الفردوس .

٥ — للأب — الرب اولاد كثيرون ولكنه لايتحدث الا عن الحب ولاعمل له الا الحب . لايقيم في مكان بل هو في كل مكان .

٦ — المتسول الأعمى كان مجرماً فتاب وراح يتسول . التقى به صابر في القاهرة وتناهى اليه صوته في مديح الرسول . الا انه ما كان يثير في نفسه الا التقزز والاشمئزاز. هذا المتسول يمثل الايمان الاعمى الذي لايهتدي به الانسان . وصابر بحاجة الى ايمان من نوع آخر او قل بحاجة الى المحبة .

٧ — الهام أحبت صابراً ومن غير حدود . اماهو فلم يستطع ان يتعالى تعاليها . لذلك هبط هو وارتفعت هي ، لم يصل الى « ابيه » اما هي فوصلت الى ابيها .

اما الرواية فهذا تقييمها عند الاستاذ سالم :

١ — بهذه النبرة الصوفية ترتفع رواية الطريق الى مستوى فكري لم تبلغه رواية عربية اخرى .

٢ — تصبح الرواية بهذا نشيداً للحبة ، باعتبارها السبيل الاوحد لمانقة الوجود وسيد الوجود .

٣ — الرواية تؤيد سقوط الانسان الازلي مع بدء الخطيئة .

٤ — الرواية تذكر بقول الرسول بولس : لماذا أفعل الشر الذي لاأريد ولاأفعل الخير الذي اريد .

٥ — الرواية من نوع رواية المشكلة والبطـل صابر يدعو للقيام بعملية بحث تجريدي ، والقارىء مدعو لمشاركة البطل في عملية البحث عن ابيه الذي سيهبه الحرية والكرامة والسلام .

ان هذه الجمل تكشف عن مدى النفاذ والتعمق اللذين يمتاز بها الاستاذ سالم . ولكن يبقى أن يجد المرء جواباً عن السؤال : هل هذه نبرة مفتون أم هي عالم لاهوت ؟ وماهو هذا الذي يستحتر تحبيب محفوظ فنه له في هذه الرواية ؟ أهو فتح الطرق الى الله ام اغلاق الطرق الاخرى كلها الا طريق المحبة ؟ أهو عمل فني أم عمل تبشيري ؟

* * *

وددت لو وقفت عند الابحاث القيمة الاخرى : بحث الاستاذ هاني الراهب عن عنصر الموت في الشخصية الصهيونية وبحث الاستاذ عدنان بن ذريل عن علم الجمال والنقد الادبي ، وبحث الاستاذ هشام دجاني عن النص والكاتب بين النص والفكرة .

ولكن حجم المقال وعمق الموضوعات واختصاص بعضها يحول بيني وبين ذلك .

وووددت بخاصة لو وقفت عند الاستفتاء الذي طرحته المجلة على عدد من الادباء

والكتاب عن آثار النقد الذي يمارسه النقاد والنقد الداخلي الذي تولده ممارسة العمل الفني .

ولكني وجدتني في المقدمة امام اسم صدقي اسماعيل . . ثم سرعان ماوجدتني امام صورته . . ثم سرعان ماوجدتني امام صراعه الخاطف مع الموت . . فغشت الدموع عيني واطبقت المجلة .

أكان صدقي اسماعيل يؤرخ لحياته الفنية في هذه الصفحات قبل ان يتخطفه الموت ؟

اني لم اعرف صدقي اسماعيل طويلا من قرب . . عرفت نزعته الانسانية من خلال كتاباته ، وعرفت سموه الاخلاقي من خلال ومضات من سلوكه ، وعرفت ابة فجيعة به من خلال حاجة الوطن الى مثل هؤلاء الافراد المتميزين .

بقي بعد ذلك شيء لعله ان يكون اضخم مافي العدد من نقد تطبيقي : معالجة الاستاذ محيي الدين صبحي للكتاب « لعبة الحلم والواقع : دراسة في ادب توفيق الحكيم تأليف جورج طرابيشي » .

ان دراسة العملين : دراسة عمل الاستاذ طرابيشي في كتابه وعمل الاستاذ محيي الدين في مراجعة الكتاب تحتاج الى وقفات طويلة طويلة .. كلاهما يحشد قدرته النقدية في اتجاه . والعمل بينهما اشبه بمباراة محكمة ذكية ، في الهجوم وفي الدفاع القدر الذي انفقه الطرابيشي في كتابه ، والقدر الذي اختزنه صبحي من قبل والذي أثاره في الرد ، هذان القدران يحتاج مراجع العدد الى مثلهما كي يستطيع ان يكون حكم المباراة.. حتى لايكون عمله شبيهاً بعمل الاخطل حين دخل في هذه المباراة بين جرير والفرزدق فاكتفى بان قال : الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر .

ومن المؤكد ان المباراة تجري على ارضية جديدة ، في غير آفاق الدراسات السابقة للحكيم .

اني اتمنى ان يتـاح لي ، او الى أي من الذين يعنون بالحكيم ان يتولى ذلك في عدد قريب .

* * *

وبعد ، فلم يكن هذا عدداً في النقد ، وانما كان طرحاً وتسجيلا لمشكلات النقد الادبي : لغته ورجاله وكتبه وتطبيقاته ونظرياته ، وماوراء النقد الادبي من امور الفكر العربي والشخصية العربية .

أنه يتميز بهذه الاتجاهات الكبرى :

١ — تأصيل النقد بمعناه الواسع : النقد الادبي والنقد العربي .

٢ — التأكيد على ان النقد العربي القديم ثروة نقدية لابد من تداولها واغنائها برصيد من العصر الحاضر .

٣ — التأكيد على استقلال النقد في منهجه وعلى فنية هذا المنهج .

٤ — تصحيح مسار النقاد العرب .

لعلي اقرب الناس الى تقدير الاثر الذي يخلفه مثل هذا العدد عند المثقفين العرب.. انه يتجاوز بهم آفاقهم الى آفاق جديدة .. وهل تتطلب من الكتاب والمجلة شيئاً وراء اطلاق الناس في الآفاق الأبعد والاسلم .

رسائل ...
بين دريل وميلر

ترجمة :
سعيد القضماني

لم يكن رصيد لورانس دريل ، سنة ١٩٣٥ ، الا بضع قصائد ورواية قرأوها نفر قليل ، وكان عندئذ في الثالثة والعشرين من عمره، اما هنري ميلر فقد نشر في السنة السابقة « مدار السرطان »، وبعد ان اعاد دريل قراءة هذا الكتاب كتب اليه يظهر اعجابه دون اي تحفظ . اجابه ميلر على رسالته ، ومنذ ذلك الحين ، امتدت بين الرجلين مراسلة منتظمة وقامت بينها صداقة لم تنقطع ابداً .

ومع ذلك فهما لم يلتقيا الا سنة ١٩٣٧ في باريس . انها الحقبة الحاسمة حيث كتب دريل « الكتاب الاسود » ،

وكما انه من المحتمل ان يكون « مدار السرطان » قد اعان دريل على ان يكتشف نفسه ، فان ميلر سيكون مديناً ، لذي اصبح منذ الآن صديقه ، في اثارة الرغبة في نفسه لاكتشاف اليونان التي ستوحي اليه، سنة ١٩٣٩ ، بواحد من خيرة كتبه (Theolassusof maraussi)

وفي سنة ١٩٥٣ ، عندما وصل ميلر الى مونبيليه برفقة زوجته الجديدة ايفا ، كان لورانس دريل في قبرص ، ولكن بعد بضع سنوات استقر ، هو ايضاً ، في سومبير بالقرب من مونبيليه حسب نصائح ريشارد الدانغتون ، وهناك اتم (Mountolive) كما بدأ بكتابة (Clea) الذي انهاه في الكوخ الصغير الذي سيختبىء به سنة ١٩٥٨ بجوار نيم .

كان هنري ميلر حينئذ في الولايات المتحدة ، ولكنه جاء سنة ١٩٥٩ ليلتقي صديقه الذي لم يره منذ رحلة اليونان سنة ١٩٣٩ .

فالرسائل المنشورة هنا تشير اذن الى لقائين ، لقاء سنة ١٩٣٧ حيث سعى لورانس دريل الى ميلر ليراه ويحيه بوصفه الاستاذ ، ولقاء سنة ١٩٥٩ حين جاء ميلر الى الجنوب ليرى دريل ويحيه بدوره كزميل وكند له . ولكن الصداقة لا تعلق اهمية على هذه المجاملات . فاذا كان دريل قد وعى عبقريته الخاصة واتخذ ، شيئاً فشيئاً ، ابعاده بالنسبة لآثار ميلر ، فان ميلر لم يمتنع عن اصطناع التحفظات حول بعض النصوص التي نشرها دريل في بعض المجالات والآن فان الشهرة قد وضعتها على قدم المساواة ، ولكن يبدو أن شهرة دريل الخاطفة قد نظر اليها ميلر باهتمام حنون .

عند قنصل بريطانيا ــ العظمى ، دارة
اكازيفي ، بيراما ، كورفو . آب ١٩٣٥

عزيزي السيد ميلر

فرغت لتوي من اعادة قراءة (مدار السرطان) ، وحتم علي ان اكتب لك كلمة حول ذلك . من المؤكد انه بالنسبة لي ، المؤلف الوحيد الجدير بالانسان ، ويستطيع ان يفخر به هذا القرن . أود ان اصيح مرحى ! منذ السطر الاول . فما هو ضربة مدوية أدبية وفنية تلطم بطن كل فرد فحسب ، بل هو كتاب يثبت على الورق دم عصرنا واحشاءه . لم أقرأ مثله ابداً . ولم يدر بخلدي ان في الامكان كتابة مثل هذا الكتاب ، ومع ذلك فانه لأمر غريب انني اعتقدت عند قراءته اني عرفت شيئاً كنا جميعاً على استعداد تام لمعرفته . الطريق كان ممهداً لكي يتمكن (مدار السرطان) من التقدم . هذا الكتاب يلف حول نواصي الطريق ويجرنا الى حياة جديدة عادت فبعثرت أحشاءها . كل اطراء ، بالنسبة الى كتابك ، يصبح تفاهة ، لذلك ارجو منك المعذرة ان دوت هذه الرسالة في اذنيك بما يشبه مأمأة لغد عتيق . يعلم الله انني لأزن كلماتي ما وسعني الجهد ، ولكن هــذا الكتاب العتيد الرهيب قد هز ، كزلزال ، موازيني هزاً ، ومنذ ذلك الوقت لم يعد في مقدوري العودة الى ما اعتدت عليه من مقاييس وموازين . جرأته فتنتني . اني شغوف بأن أشهد انهيار ما اعتاد الناس عليه من مشاعر منحرفة وانفعال أدبي جميل . اني شغوف ان ارالا تضع السياد تحت اهواء ومصانعات معاصريك من اليوت حتى جويس . وليمنحنا الرب ، نحن الشباب ، الشجاعة لكي نزرع فوقها ازاهير الاقحوان حتى تتم رسالتك .

الحق ان « مدار السرطان » هو الكتاب الذي حاولوا ، كلهم ، كتابته منذ الحرب ، انه الترجمة الخاصة لتلك المحاولات الباهتة ، ولتلك الخطوط الفجة والمشوشة أمثــال : شاترلي ، اوليس ، تار ..... وليس المدار أفضل منها فحسب ، بل هو افضل من كل ماسيأتي بعده .

أني احيي في (مدار السرطان) الكتاب الذي يعبر عن جيلي . انه كتاب في حجم الانسان ، وقد انضم مباشرة الى قائمة تلك الكتب النادرة جداً التي كتبها الناس باحشائهم ، ليغفر لي الرب إن اصطبــغ كل ذلك بالمبالغة والتبجيل ، ولكن ماعساي أن اقول غير ذلك ؟

وسحقاً لجميع المتملقين !
مع كل اخلاص

لورانس دريل

* * *

(١٨) دارة سوراة ، باريس(١٤)
اول ايلول

عزيزي السيد دريل

هزتني رسالتك انا ايضاً . أنت اول بريطاني يكتب لي رسالة ذكية تتصل بكتابي وأنت ، أيضاً ، أول من تجرأ على تسمية القط قطاً. لقد اكبرت رسالتك اكباراً شديداً هي على غرار ماكنت سأكتبه ، انا نفسي ، لو لم اكن مؤلف الكتاب . ولك انتصدقني باني لم أقل هذا ابداً بدافع من الانانية أو الغرور المحض . لقد أدهشني جداً أن أرى القليل من الناس يعرفون مايعجبهم في كتاب من الكتب .

الجملة التي اثارت اهتمامي اكثر من غيرها هي قولك : « اعتقدت عند قراءته انني عرفت شيئاً كنا جميعاً على استعداد لمعرفته » هذا صحيح . فالعالم مستعد حقاً من اجل النهوض بشيء مغاير ، شيء جديد . ولكن احساساً يداخلني من ان تحقيق ذلك يستلزم قيام حرب أو وقوع كارثة خطيرة حتى يلحظه الناس وتتجه اليه الانظار .

رسالتك حية جداً ، ناعمة جداً ، حتى ان بي رغبة حقة لمعرفة اذا لم تكن ، انت ايضاً كاتباً . كيف عثرت على كتابي ؟ هل بواسطة باركلاي هيدسون ؟

مع خالص الود
هنري ميلر

* * *

بواسطة بنك لويغن ، كورفو ، اليونان
ايلول ١٩٣٥

عزيزي السيد ميلر

شكراً على الرسالة اذ تلقيتها أمس من قبل المركب الذاهب الى كورفو ، لقد سرتني رسالتك . نعم باركلاي هيدسون هو الذي اعطاني (المدار) لأطالعه . ان قيامه بالتبشير لكتابك سيفضي حتما الى طبعة جديدة له . انه يقيم مع امرأته، جان ، في البيت الفينيسي القديم الذي يقع على الجبل فوق منزلنا . اننا نأكل معاً، ونسبح معاً ، ونمعن في التسلية كثيراً وفي اغلب الاحيان . قرأ لي باركلاي مقاطع من احدى رسائلك . انا مسرور جداً اذ أرى جميع عناصر انكلترا الأدبية قد عادت لتتجمع من جديد حول الراية . انها

تقضي وقتاً طويلا في التحسر على ندرة الرجال الافذاذ ممن ينتظر قدومهم ، لدرجة لايتعرف المرء على احدهم عند ظهوره ، اني لأجزم أن جميع كتاب انكلترا وامريكا سيشعرون ، عندمايقرأون كتابك ، انهم أصبحوا من الضآلة ، كديدان الجبن . ، والحدث ، بالطبع ، عن الكتاب الذين ماز ال لديهم بقيــة من ضمير . كم أود ان يكون د . ه . لورانس على قيد الحياة ليستطيــع ان يصفق فرحاً لمثل هذه القربة الناجحة عندما يرى كل هذا !

انك لتقدر بيسر ، حسب ظني ، مدى مايثير فضولك نحوي واهتمامك بي من تمدح واغراء . نعم انا كاتب واغفرلي هذا التعبير ، كاتب له افكار مبهمة عن صناعته : اليسر وضعف المستوى في البدء ، وربما الخصب والنجاح آخر الأمر . أسفت كثيراً عندما قرأت « المدار » لأنني لست ناقداً ناجحاً منتجاً حتى ارتضي بمقال صغير جيد حوله ، ولكن باللأسف ؟

دهشت جداً ان أرى اناساً قد فتنوا « بالنثر الاليزابيثي » ككتابك . وبدا لي ذلك امراً غريباً مستهجناً . فللأليزابيثين الشجاعة الكافية كي يكتبوا « المدار » الذي يتصل بعصرهم ، ولكنهم لم يكونوا متحررين من قيود الأسلوب والشكل تحرراً كافياً . بعض انماط من الزواحف الأدبية قضى عليها الأسلوب الفخم . وذكر بن جونسون ان كتابك لم يكن من صنع فنان ، ويا لها ، يعلم الله ، من حماقة أخرى . والغريب انه يخيل الي بان فرانسوا فيللون كان الرجل الوحيد الذي استطاع ان يعطي « المدار » حقه فحاول ، هو نفسه ، كتابته في عصره وحسب اسلوبه الخاص . ولكن بما أنني أقرأ الفرنسية بصعوبة ، او اذا تيسرت قراءة عن طريق ترجمة انكليزية ادبية ، فلربما لن اكون حكماً صالحاً جداً في هذا المجال . وعلى كل حــــال ، فان مؤلفاته تثير في نفسي شعوراً كالذي أحسه عند قراءة « المدار » ، انه شعور غريب . ويخيل إلي انني اكون في وضع نفسي واحد في الحالتين : فوق اي احتمال للعدوى . مناعة محببة من اجل الحيـاة القاسية المشرقة . على ان في هذا الكثير من الزهو .

وبالنسبة للوقت الحاضر ، فان بار كلاي يطلعني عن سير نشاطاتك . ولكن يؤلمنا جداً الا يذهب آل بار كلاي الى الجنوب عندمـا يسوء الطقس . سأكون ممتناً جداً لو تكرمت باعطاء اسمي وعنواني الى ناشرك وبان تطلب اليه اعلامي بكل ما سوف تكتب .

مع كل اخلاص

لورانس دريل

١٨ ، دارة سورات ، باريس
(١٤) ايلول ١٩٣٥

عزيزي لورانس دريل

أرى جازماً انك كنت كاتباً ! فلماذا لا ترسل الي بعض نتاجك ليكون في مقدوري اعادة اطرائك الجريء الذي خصصتني بـه ؟ فكتابي لم يأخذ ثقله أخذاً حقيقياً إلا في هذين الشهرين ، وكانت النتيجة سيلاً لا ينقطع من الرسائل والزائرين والدعوات ، مما أخذ يثقل علي بشكل جدي ، اذ انقضت الآن فترة غبطة البدء . وهذا ، بالطبع ، لا ينطبق عليك . اني اتحدث عن الثقـــلاء المتمنين الذين يسقطون بعنف ويسدون عليك المنافذ . اعتقد انك تفهمني جيداً !

ملاحظاتك حول فيللون ، وحول الاليزابيثيين ... قد أثارت اهتمامي . الواقع ، ان كتابي قد رفضته « المجلة الفرنسية الجـــديدة » (مترجماً بالطبع) لا بسبب جرأته وخدشه للحياء ، بل لاسباب « أدبية » ! انت محق تماماً في قولك ان «الفن » يفتقد فيه . وهذا ، على التأكيد ، ما يحقق وجود « الفن » فيه . خسارة الا يكون لدي متسع من الوقت لأشرح لك فكرتي شرحاً اكثر وضوحاً . وسوف أتحدث ، باسهاب ، عن هـذا الموضوع في كتابي عن د . هـ . لورانس الذي سيكون ، بدوره ، كتاباً « نقدياً » إذ سيخلو من « النقد » . أريد ان أتحـــدث عن موقف جديد من الفن الذي يخيل إلي أنه ضروري للفنان في هذه الأيام . واعتقد ان كل ذلك قد شرح أيضاً شرحاً أوفى في كتابي الثاني « الربيع الأسود » (Black' Spring) الذي حطم كل المواصفات والذي أفضله ، أنا شخصياً ، على « المدار » مع العلم ان الذين يشاركونني هـذا الرأي م قلة من الناس . وربما عمدت مؤسسة (اوبليسك بريس) الى نشره هذا الشتاء . فالأمر قد بت به من الوجهة العملية .

وبينا انا على هـذا الحال من الانتظار ، مر بي شخص يدعى كرايل كونللي وقال انه يرغب في اعداد مقال حول « المدار » في « النيوستاتسمان » لم استطع لهذا الأمر فهماً ولا تأويلاً . فلو انهم ادركوا المدى الذي اريد ان أصل اليه بكتـابي ، لا تنفث عندم ، حسب ظني ، كل رغبه لاعـــداد مقال حوله . يجب ان يكون الضباب قد غشى على أعينهم أجمعين .

سأكتب لك بتفصيل في يوم من هذه الأيام. ابق على اتصال بي . اما الآن فلنصرف اهتمامنا ، بعض الشيء ، الى ما تكتب . مودتي الى آل باركلاي .

مع خالص الود
هنري ميلر

* * *

بواسطة لونيان بنك ، كورفو ، اليونان
كانون الثاني ١٩٣٧

عزيزي هـ . م

لقد ولدت في ٢٧ شباط ١٩١٢ صباحاً . أما موضوع الدم الهندي ؟ فمن المؤكد انك ارتكبت خطأ . فوالدي كان انكليزياً ، وامي ايرلندية . بها من الله خشية ، وهما فرحان ، باشان، بروتستانتيان ، ثائران . هذا هو اصلي. كانت جدتي تشاهد جالسة في الرواق ، بندقية صيد على ركبتها ، تنتظر المتمردين(١) . ولكن عندما يرون رأسها سرعان ما يبدلون من اتجاههم . من هنا كانت الملامح المشتركة لجميع افراد العائلة . ربما كان شيء من الدم الهندي يجري في عروقي ، فمن يدري ؟ وعلى كل حال ، فانا واحد من مغتربي هذه الأرض . يشعر المرء بانه وحيد عندما يفصل عن أصله . وهذا هو الحال بالنسبة الى انكلترا التي احببتها كثيراً وابغضتها كثيراً ، بقي لدي منها اللسان الانكليزي. احاول ان امحوه من فمي ، ولكنه ممسك به . أية تعاسة أن اكون احد احفاد هاملت !

مع كل اخلاص
لورانس دريل

أشعر بأني احسن حالاً هذا الصباح . نعم أحسن حالا . سأقوم ، على الفور ، بجولة صغيرة مع بندقيتي وسأتصيد بعض الطيور لتمنحني الشجاعة. قرأت هذا الصباح (Max) وأنا ممدد على السرير قبل تناول طعام الافطار . انه لشيء مخيف . وقرأت أيضاً « عين باريس » هل هذه النصوص حديثة العهد ؟ من أين لك الشجاعة لتظل قابعاً

---

(١) يتعلـق الأمر بالتمرد الكبير للجيوش المحلية في البنغال سنة ١٨٥٧ وهي التي نقلت الهند من سلطة الشركة الهندية الى سلطة العرش .

في هذه المنعة ؟ أما انا فستزداد عزلتي شيئاً فشيئاً ، وسأنهي حياتي في جزيرة المنبوذين البيض . ولن اصطحب معي إلا مجموعة نظيفة من الأثواب الرومانية الطويلة وبعض الزامرات عقولهن كعقل عصفور . لن أعلم شيئاً ، ولن امارس مهنة المنتقد الشافي . كلا ، سارتضي بأكل البطيخ ، وربما أخذت في تعلم النفخ في المزمار . أرجو ايها السيد م . م ، ألا تباشر أية دعاية لكتابي « الدفتر الأسود » قبل ان تقرأه انت نفسك ، أليس كذلك ؟ إذ لا اريد خداعك ، فربما لايكون من الجودة على المستوى المطلوب . انت قصة العبقرية الشابة التي يرفض الكبار الأخذ بيدها قصة معروفة ، وطالما انت على هذا القدر من الكرم والأريحية ، فاني لأشعر بعظم المسؤولية لأكون على المستوى الذي اتخذته بالنسبة لي ، هذا كل شيء . ولسوف اوافيك بالكتاب منذ ان افرغ منه .

ولادتي ، وتربيتي ؟ ولدت في الهند ، وهناك ذهبت الى المدرسة ، انها تقع تحت جبل همالايا ، أفضل ذكرياتي ما يتصل بأحلام التبت قبل سن الرابعة عشرة . ثم كانت هذه الجزيرة(١) الصغيرة القاسية البليدة التي انتزعتني من نفسي ، وحاولت ان تقضي على كل ما بي من تفرد واصالة . لم تكن هذه التربية الا تمرداً . قطعت على الدوام حبال مراكبي عندما كنت يائساً . وقائمة المدارس التي ترددت عليها تبلغ متراً من الطول . رسبت في جميع الامتحانات والمسابقات التي يتطلبها العمل العام .

مارست جميع الاعمال في لندن : عملت في فرقة للجاز في ناد ليلي ، وفي تأليف الأغاني للجاز ، وفي بيع الأثاث . الحقيقة ، ان الجوع لم يشتد علي ابداً ، ولكنني اتساءل مع ذلك : ألا تؤدي المقادير الغذائية القليلة الى نمط من انماط المجاعة ؟ وجدت نفسي على حال شبيهة بحالي ، فعقدنا شراكة فريدة ، حلم زجاجات مكسورة ، بصاقات ، غذاء من المحفوظات ، لحم متفسخ ، مبـاول ، رائحة المستشفيات . لقد ادرنا معاً محلاً للتصوير ، والنتيجة افلاس . جربنا العمل في الملصقات الدعائية ، في الاخبار ، في الصحافة ، مارسنا كل المهارات لكي نقدم أنفسنا لمن يدفع اكثر . كتبت روايةً وبعتها . فتبدلت الأمور . اذ اهتديت عندئذ الى مهنة مستقرة : الفن من اجل المال . فتفرغت لذلك وانهيت روايتي الثانية عندما وصلنا الى هنا . ومن بعد يكون الطوفان . هذه الالياذة الملحمية سيطرت علينا ثلاث او اربع سنوات ، ولكنني احسست انها امتدت مليون سنة .

---

(١) بريطانيا العظمى .

هذا هو واقع الأمر ، فحياتي أشبه بدودة قطعت الى أجزاء . ذكريات رائعة حتى الحادية عشرة من عمري . هيالايا يشع بياضاً في بياض من خلال نافذة المهجع . والجزويت اللطاف السود يصلون للقديسة العذراء ، والصينيون، في الخارج على مشارف الحدود ، يمشون في استقامة مستقيمة ، ثم ناس من التيبت يلعبون بالورق على الأرض ، والفجوات الزرق بين الهضاب – اي حم يا إلهي – والشعاب المؤدية الى لاسا ، ثم زرقة الجليد الذي يذوب قليلاً على حوافي المدينة المقدسة المحرمة . اعتقد ان التيبت بالنسبة لي كالصين بالنسبة اليك . لقد عشت فوق سفوح التبت ، انها نوع من السعادة الخانية الغافية . وبي شوق للعودة ، مرة أخرى ، في صيف ما ، الى هذه الشعاب المتجلدة . لقد وعدت بأن يأخذوني اليها ، حتى أنني عندما ذهبت الى هناك لم أقم بهذه الزيارة – وا أسفاه ! – وعندما أفكر بذلك يخيل لي أن الأمر أشبه بمرض غير معقول . فأنا ، مرة أخرى ، كطفل يجافيه المنطق . تارة أئن ، وتارة أجمجم بالبكاء . .

حتى جاء اليوم الذي حفر فيه « المدار » بئراً في دماغي . لقد حررني بضربة واحدة . داخلني شعور عظيم من الغفران ومن التحرر من عقدة الذنب التي أحببت أن اكتب لك كلمة موجزة عنها .

علمني « المدار » درساً رئيسياً هاماً . الكتابة عن الأشخاص الذين اعرف حياتهم . وانك لتلاحظ ذلك ! كان لدي مجموعة من الأشياء الغريبة ثابتة أمامي لا تريم ، ولم أكتب سطراً واحداً عنها . لم أتحدث الا عن انكليز أبطال ، وعن فتيات وديعسات ناعمات كاليمامات (الجزء بخمسة فرنكات) . وهذه المجموعة الكاملة من الرجال والنساء انكشفت أمامي لكأنما شقت بسكين . لقد استعرت الحاضر التاريخي لأجلس فوقه . عليك ألا تحكم على هذا الكتاب وفق مقاييس عالية جداً . ما هو الا بداية . ولكن أحسست بـه يجيش ، آخر الأمر ، في نفسي ، فأنا اتوغل في ذاتي الخيالية . وليس من مسؤولية .

ثم ان الخلاص على طريقة رامبو يستأثر بي ويغريني دوماً . فان كانت هناك حرب ، في جهة ما ، فسأكون في صف المقاتلين .

أرسلت لك بعض الفصول النقدية فعسى أن تبعث في نفسك السرور . حجاثية رائعة لا لدانفنون يهجو بها اليوت . قصيدة عن النادي الليلي الذي كنت أعمل فيه . وكذلك نسخة تضم مجموعة قصائد قديمة جداً . وأتقدم باعتذاري ونيتي الطيبة بسبب المستوى المتواضع لهذه الأعمال . ولقد فديت نفسي ، منذ ذلك الحين ، ببعض قصائد من الشعر الصحيح .

لا تتعب نفسك بالكتابة الي . اني لأعلم كم أنت مرهق . تكفني بطاقة بريدية اذا لاح في الافق أمر جدير بالاهتمام .

مع كل اخلاص
لورانس دريل

★ ★ ★

باريس ، شباط – آذار ١٩٣٧

عزيزي دريل

شرعت ، منذ فترة ، بمغادرة السرير بعد هجمة من الزكام . لذلك فأنا عاجز ، في هذا الحال ، عن اتخاذ أي قرار ، وعن تنفيذ أي مشروع مهما كان صغيراً ، وخاصة بما يتصل بقضاء العطلة . أنا أقدر كثيراً كل ماترغب في عمله هناك من أجلي . ولكنني ، في الوقت الحاضر ، مرتبك جداً .

حتى أنني لن أستطيع الذهاب الى كوبنهاغن . لاقرش في جيبي . أقضي جلسات طويلة متلاحقة عند طبيب الأسنان ، عذاب متصل رهيب وباهظ الثمن . وقد انتهى ذلك ، والحمد لله ، في الوقت الحاضر . وسوء التغذية هو السبب .

صورك جذابة جداً . ياما من شمس ! أعتقد أني مرضت بسبب الامطار التي لاتنقطع وبسبب رطوبة الجدران ، ناهيك عن مجاري الهواء كما يقولون هنا . شتاء باريس متعب ثقيل . بي بعض خشية من الشمس اذ أخاف أن يفسدني الاستسلام الى الراحة الطويلة . لم أظفر بأية راحة أبداً خلال هذه السنوات الاخيرة . أشعر برغبة ملحة تستحوذ علي لكي أطرد الراحة من فكري . ولن يتوقف هذا أبداً . قدري أن أكتب على الدوام . وعسى أن يتبدل ذلك في يوم من الايام . أحب أن أراكم جميعاً وأن أرى أيضاً البحر المتوسط .

أنهيت الآن الفصل المتعلق برحلتي الى لندن ، الرحلة التي ولدت ميتة . وسأرسل لك حالاً نسخة ، وظني أنها ستعجبك . فهي أيضاً قصة من أربعين صفحة .

هل ترغب في لوحات أخرى ؟ لقد أنجزت بعضاً آخر منها عندما كنت مريضاً .

م . ه

★ ★ ★

باريس في ٨ آذار ١٩٣٧

عزيزي دريل

وصل « الدفتر الأسود » ، فتحته وقرأته بعيون تكاد تخرج من بؤبؤها ، قرأته برعب ودهشة واعجاب ، تابعت قراءته ببطء إذ أود ان أتذوق كل سطر فيه وكل كلمة، انت سيد اللغة الانكليزية. مقاطع رائعة هي أعظم من ان يضمها كتاب . انه يلغي حدود الكتاب ، يفيض ويقذف بطوفان يكف عن ان يكون كتابا بل يصبح نهراً جياشاً من الكلمات . البت في هذا الكتاب أشياء لم يجرأ أي انسان من قبل على اثباتها . كتابك وحشي قاس ، مكتسح ، رهيب . فما زلت مندهشاً مبهوراً . اذن ليس الذي اكتب فصلاً من فصول النقد ، ثم هل أنت راغب في نقد ما ؟ كلا ، انها تحية موجهة الى المعلم ! عندما سأنهي قراءته ، ثم اعيدها مرة أخرى والتهمه باجمعه ، عندئذ سأكتب اليك بشيء من الهدوء . اما الآن فلا يتعدى الأمر الا ان يكون بمجرد حملة او هجمة أوجهها الى « دفترك الأسود » .

لا أظن ، بالطبع ، ان اخوان فابر سيقومون بنشره ، افلا ترى ذلك أنت أيضاً ؟ اذ لا يجسر أي ناشر انكليزي او اميركي على طبعه . علينا ان نجد ، نحن بانفسنا ، ناشراً . لقد سبق ان فكرت في هذه القضية . ثم برزت مشكلة أخرى في الحال . قلت لي ان هذه النسخة هي نسخة وحيدة . فتصبب العرق بارداً على وجهي .

استطيع ، بالطبع ، ارسال النسخة الى فابر مع اتخاذ كل الضمانات والاحتياطات ولكن حتى في هذه الحالة فلن انام هادئاً مرتاح البال . ثم خبرني ، قبل ان اقوم باي تصرف ، اذا كنت تفضل بان انسخ لك منه بعض النسخ . يمكنني ان اقوم بذلك بواسطة شخص أثق به . انه عمل ضخم . ثم لا أدري عدد الصفحات لأنك لم ترقمها . ولكن اذا وجدت ان عملية النسخ مجدية فسأقوم بها وسأتدبر النفقات بنفسي .

عزيزي دريل ، اخبرتك في هذه الكلمة الصغيرة أنك لن تكتب أبداً شيئاً يعجبهم اكثر من ذلك . لقد تجاوزت الحد ، وانتهت مهنتك التجارية . انت . منذ الآن ، فوق مواضعات القانون ، وامتنك على ذلك بكل ما أستطيع من قوة . ارى في كثير من الجدية انك « الانكليزي الأول ! » اي انك تسبق لورانس وأفراد قبيلته باشواط بعيدة .

كتابك باجمعه قصيدة ، قصيدة فخمة ، واني لأتساءل لماذا تحاول ان تكتب ،

يوماً ما ، مقطوعات شعرية منمقة متقنة . فكل قصيدة ، بعد هذا الكتاب ، لن تكون الا نفحة هواء تتلاشى في الجو . « كتابك هذا هو القصيدة » . لقد يبرني ؛والشيءالوحيد الذي آخذه عليه هو ان ليس لفخامته وروعته حد ، وعلى المرء ان يكون خارقالقدرة ليستطيع التام كل مايحتويه .

أرى ، في الوقت الحاضر ، ان كاهان هو الناشر الوحيد الذي يمكن ان يحتضن كتابك . وربما شاركه فرانكل في ذلك ايضاً . من أجل هذا أود ان يكون لدي عدد من النسخ . ولن يقبل نشره اي ناشر عادي وطيد الأسس ولديه حس بالاعمال سليم . ولكأني أرام وقد أغمي عليهم الواحد بعد الآخر بعد قراءته . وكاهان الذي يتولى نشر كتبي يبدو لسوء الحظ ، انه ضدك . وانه لأمر مؤسف جـداً واتحمل أنا بعض وزره ، ذلك ان ناشري يناهض كل الذين يعجبون بي اعجابا شديداً . شيء غريب ولكنه أمر واقع ، انه نوع من المنافسة والغيرة المهنية . فهو يتعاطى الكتابةايضاًباسم مستعار (سيبسيلبار). اوه! لايكتب شيئاً جديداً أبداً ، انه انتاج تافه منحط جداً ، ممن في الانحطاط أكثر ممـا يتصور ان يكون عليه اي انتـاج ادبي ، وهو نفسه يعترف بذلك ولا ينكره ولكن بعدم مبالاة انكليزية تجمد مني الدماء في العروق . ومع ذلك ، وبعدموافقتك ، سأحاول اقناعه . سأقوم باي تطرف ، سأرقص ، سأتهمه بجرائم سأهدده اذا اقتضى الأمر ، لأنني أؤمن بكتابك من كل قلبي . ولا أرى له في الأفق ناشراً آخر سوى فرانكل . وسنواجه ، هناك ايضاً ، المشكلة نفسها المتعلقة بالغيرة المهنية . ومع ذلك فان فرانكل اكثر استجابة لدوافع الموضوعية ، وحتى انه اشد اعجاباً ببعض الآثار التي لايستطيع كتابتها بنفسه . المال متوفر لديه وكذلك مطبعة . ولكن هل تتوفر لديه الشجاعة والمبادهة الضروريتان ؟ وهل في الامكان طبع كتابك طبعة فاخرة تباع عن طريق الاكتتاب ؟ علي ان افكر في كل هذه الأمور .

وعلى كل حال ، فانا أفهم الآن ماضيك المياِلاوي . عليك ان تشكر برجك السعيد الذي جعلك تولد على ابواب التبت . ففي كتابك بعد جديد لايمكن ان يصدر الا من هناك . يقال انك تتجول بنا وسط مجرة جديدة . يا الهي كم من الوقت صرفت لكتابة هذا الكتاب ؟ اني ادرك انك استنفدت كل قواك .

وداعاً ، عندما سأنهي قراءته سأرسل لك رسالة اخرى . وسلام عليك .

م ٠ ه

* * *

باريس في ١٣ آذار ١٩٣٧

عزيزي دريل ،

احد الأدلة البينة على علو مكانة كتابك انني لم أتم قراءته بعد . لا تأخذ قولي هذا على انه تناقض رائع . اريد أن انهي اليك ، بكل صدق ، ان كتابك احدث ثورة هنا ، وله قدرة خصبة ، فالدافع القوي لمناقشته لايترك للمرء وقتاً لاتمامه . لقد أجلت قراءة الخاتمة مختاراً . وجدته دسماً جداً طيب المذاق فليس من الخير ان التهمه دفعة واحدة مهما كنت شرهاً نهماً . ولست ارغب في التحدث عنه حديثاً مطولاً حتى أنهيه وأعيد قراءته مرات عدة . وترجع رغبتي في اعادة نسخ الكتاب الى حرصي على الاحتفاظ بنسخة منه لأتذوقه من وقت الى آخر أو لكي اطلع الآخرين عليه .

هذا المساء ، كنت مستلقياً على السرير وغارقاً في الصمت عندما طرق بابي صديقي ادكار . جلسنا على حافة السرير ورحنا نغوص غوصاً عميقاً في عالم الانفصام . حانت ساعة الطعام . بقينا نتابع مناقشة كتابك من دارة سورات حتى وصولنا المطعم . انقضى الان منتصف الليل . ومنذ خمس ساعات ونحن نتابع الحديث عن دريل . وكان الأمر بالامس على هذا المنوال. كنا على استعداد ، في منتصف المناقشة ، لارسال برقية اليك . وكنا سنلقي عليك سؤالا حيوياً جداً . ماذا كان السؤال ؛ لن أفضي اليك به . اذ يحتاج الامر الى وقت طويل كي نشرح لك كيف استطاع هذا السؤال أن يطرح نفسه. ولكن كنت مضطراً جداً للقول انه لمن المؤسف حقاً الا تكون بيننا لتستمع الينا.

هناك مقاطع طويلة في كتابك هي في منتهى الاعجاز . مثل غرامي ، مس سميث ، الرحم . ولا اريد ان اسرد غيرها . والظاهر انك ملكت قدرة التعبير عن النهائي . وتأتي مزية اسلوبك الشيطانية من وعيك الشامل لكنه الامور الذي يعتبر مجرد سر من الاسرار. والله وحده يعلم كيف توصلت الى ذلك. انك تشكل وحدة متكاملة مع كل ماتكتب ، ويرى ادكار انك تعيش حتماً ، وباستمرار ، في وفاق مع هذا المستوى الرفيع من التعبير. أنا لا استطيع تصديق ذلك، لأنه انصح رأيه هذا فستصبح حقاً في مصاف الآلهة . على كل حال انت كاتب غامض رمزي .

★ ★ ★

١٥ آذار

قراءة كتابك حادث خطير في حياتي . كان يخيل الي انني ابتعث مؤلفاً في منتهى الضخامة يضم الفين او ثلاثة آلاف من الصفحات. ومرجع ذلك ، في بعض اسبابه ، الى ناحيـــة الشكل ، الى القالب الذي صبرت كتابك فيه ، شكل فرض عليك بسبب طبيعة كتابك نفسها ، ويرجع كذلك الى المعنى الشعري للكتاب وطبيعته الرمزية . انه قصيدة عصرية من البعد الأول ، انه لايحررك من «انا» المؤلف فحسب بل «انا» القارىء ايضاً . كم م قراؤك قلة ! فكتابك جعل للعارفين وكم عددم الآن في هذا العالم؟ انه عمليـــة جراحية ، ولادة ذاتية : حبل السرة قطع قطعاً نهائياً . فليس هناك من عودة محتملة . وها انك ملقى الآن في العالم ، عالم ابداعك ، عالم ستكون فيه وحيداً . انه لمنظور مخيف إن جهلت طبيعة تكوينه ولم يكن لديك عنه وعي شامل ، وعي قد فريد . فالموضوع هنا يتناول الموت والبعث والاحياء ، وهو الموضوع ذاته الذي تلبأت به في الكتاب الذي كتبته عن لورانس ، وهو الذي يجب ان يكون موضوع جميع الكتاب الذين سيظهرون في المستقبل ، انه الموضوع الوحيد المقبول أو الممكن . احياؤك اعنف فعل من افعال الهدم . هو فعل ايجابي يقابل الحركة الشريالية مقابلة تامة . هناك ، في الظاهر ، أوجه شبه بين فنك وفنهم ، ولكنه شبه ظاهري فحسب . فالخلاف الحقيقي خلاف واسع جداً، انه هوة سحيقة . ويعود ذلك ، بالطبع ، الى حكمتـــك والى قدرتك بعد نضال رهيب لتحقيق وحدة متكاملة . فمها بدا كتابك مشوشاً مختلطاً في الظاهر اشبه بكتلة من الثلج هشة فهو ، في الواقع ، متين البنيان ، جيد التكوين كالماسة . يرى ادكار أنك نجحت بالجهد الخارق في تقصي النفسية الفصامية حتى الحل المنطقي النهائي لها ، يرى أنـــه بدلاً من الحركة القهقرية ، العصابيـــة ، بالعودة الى الرحم — أي الشيء البعيد المنال ، فردوس المثل الاعلى ، — فانك وسعت معنى الانتماء الى هذا الرحم بحيث شمـــل العالم أجمع . كل شيء رحم ، اذن ، أنت في استمرار مع الإله . واذن أنت فصامي شامل متكامل ، قادر على الحركة وانت تخلق وتبدع بسهولة وبحرية وفي جميع الاتجاهات والابعـــاد . وعندما حاولت أن أجد حلاً للمشكلة الاساسية لكتابي حول لورانس كانت تتملكني فكرة كهذه. كنت أشعر ان العودة الى الرحم كانت طبيعية ولكنها بعيـدة المنال لانها شيء محال . (المجانين وحدهم يتوصلون الى ذلك !) ولكن تقدم مفهوم التحول والتطور والرمز هو العودة عودة تامة الى الرحم ولكن بصورة عكسية . يموت الانسان ، كما في كتابك،

بشكل يستطيع معه الوصول الى حياة تقوم على مستوى من الحقيقة جديدة كل الجدة . هذا شيء واضح في كتابك ، كامل جداً ، وحاسم جداً ولكن بشكل يضني الفكر في متابعتك .

أيا اللاما العظيم القدير ، كيف ورثت حكمتك البالغة ؟ اعطنا لمحة شخصية عن حالتك النفسية الآن . هل انت واقف على الدوام على قمة افرست ؟ وهل مازال الثلج يبهرك ؟ ماهو لونك المفضل في الوقت الراهن ؟ وما هي كلمة السر اليومية ؟

المخلص

م . ه

دولة اتحاد الجمهوريات العربية

الدكتور جمال أتاسي

دولة الإتحاد

وأثر هزيمة حزيران في مفهوم الوحدة

باذن خاص من مجلة « الثقافة العربية ٧١ » التي تصدر في بيروت ، ننشر « المعرفــة » النص التالي المجتزأ من لقاء أجرته المجلة مع الدكتور جمال أتاسي ، ونشرته في عددها الخاص عن « الوحدة والثورة العربية ».

ماذا قدم وماذا يمكن ان يقدم اتحاد الجمهوريات العربية لقضية الوحدة ؟

لقد قام هذا الاتحاد بعد انحسار طويل عن طريق الوحدة . الهزيمة طلبت الوحدة رداً عليها، ولكن هذا الرد كان يتطلب حركة تجاوز ثوري كبرى من قبل النظم التقدمية،

والحركات العربية التقدمية، وهذا ما لم تقو عليه النظم والحركات . كانت هناك اجابات على الهزيمة ، ولكنها مع ما حملته من بعض ظواهر التلاقي والوحدة والتوحيد ، ظلت تتحرك من مواقع متفرقة . لقد صنعت مصر بقيادة عبد الناصر صمودها في وجه العدوان ، وبذلك أعطت ركيزة الصمود العربي كله ، ولولاها لما كان الصمود ولما وقفت الهزيمة حيث وقفت . صعدت القوة المقاتلة لمصر ، وكذلك صعدت القوة المقاتلة لسورية . جرى تغيير باتجاه التلاقي معمصر وعبد الناصر في السودان وكذلك ثورة في ليبيا . وحصلت تغييرات جزئية هنا وهناك في المواقع العربية وتطورات ... ولكن ظروف الهزيمة ظلت غلابة وأقوى من التغيرات الجزئية لم تكن كافية ما لم تعط تغيراً كلياً . والقوى التي تنامت وصعدت من هنا وهناك ، لا يمكن ان تفعل فعلها الجدي، ما لم توحد ، ووحدتها لا يمكن ان تتم الا في مستوى جديد من الوحدة والتوحيد .

لقد بدأت المبادرات الأولى من ميثاق طرابلس،ولكن مصر وسورية هما الموضوعتان قبل غيرهما على طريق الوحدة ، من خلال مصيرهما المشترك ومسؤوليتها المشتركة وامكانياتها المشتركة في معركة المصير . ان دخول سورية ميثاق طرابلس بعد تغيير تشرين هو الذي أعطى بلا شك امكانية تجديد المسيرة الوحدوية من خلال ظروف المعركة.

وأية مسيرة وحدوية عربية صحيحة اليوم ، لا يمكن ان تتجدد ، الا من خلال تمكين هذا الجسر الذي يصل المشرق العربي بمغربه والذي يلحم بين مصر وسورية .

ان قيام اتحاد الجمهوريات العربية جاء بعد تعثر طويل في العمل الوحدوي ، فهو قد وضع قضية الوحدة من جديد على طريق . انها الطريق الممكنة في الظروف الراهنة ، من خلال تباين النظم التقدمية وافتراقاتها . انها تضع هذه النظم على أرض مشتركة من خلال النقاط والمواقف التي تتلاقى عليها ، لتطورها وتنميها نحو ما هو أقوى وأوثق . انها ليست الوحدة بمعناها الحقيقي ، ليست حركة ثورة وتجاوز كما كان طريق وحدة عام ١٩٥٨ ، ولكنها يمكن ان تكون تمهيداً للوحدة وصعوداً نحوها . وهذا الاتحاد لا يملك بعد مقومات دولة اتحادية أي فدرالية بالمعنى الصحيح للكلمة ، ولكن يمكن ان يضع تحرك النظم التي يؤلف بينها في هذا الاتجاه .

ان اجراءات هذا الاتحاد تسير على طريق (رصينة) واحكامه مرنة وكذلك دستوره . ان هذا يحمي من التعثر والانتكاس ، ويفتح الطريق عريضة للتلاقي الدائب والحوار المستمر في سبيل بلورة التجربة المشتركة ، ولكن الوقوف عنده أو البقاء على طريقه لا يمكن ان يحقق مطامح الجماهير ، ومطامح

الجماهير تتطلع الى بناء دولة للوحدة ، أو دولة وحدة اتحادية كما تجسدت في المطمح العام لميثاق ١٧ نيسان عام ١٩٦٣ .

لقد اندفعنا لتأييد هذا الاتحاد مع جماهير عريضة في الوطن العربي ، ولا بد للجماهير أن تدفع دفعاً حثيثاً على طريق املاء هذا الاتحاد بمضامين اتحاد حقيقي ، أي بمضامين دولة اتحادية متماسكة .

وهذا الاتحاد يخضع اليوم لعدة اختبارات ليؤكد سلامة طريقه واستمرار صعوده ، فهو لا يمكن ان يعطي طريقاً للوحدة القومية ما لم يكن صعوداً مستمراً وما لم يصل الى نقطة تجاوز حقيقية لاقليمية النظم التي ضمها أو يتسع لها اطاره .

١ — ان الاختبار الاول هو المعركة ، طريقة سير الاتحاد في اتجاهها ، وقدرته على ان يوحد الاستراتيجية السياسية والقتالية بين اطرافه . ان لهذا الاتحاد قيادة اليوم ومجلساً رئاسياً وستكون من حولها جبهة قيادة سياسية ، ولتكون هناك مسيرة صحيحة في بناء الاتحاد وفي بنائه من خلال المعركة وعلى طريقها ، لابد ان تكون القيادة الموحدة العليا التي تقود وتوجه على قدر كبير من الانسجام في التصور والتفكير ، والوحدة في القتال تعني بالضرورة استراتيجية سياسية واحدة وسياسة دولية وعربية واحدة ، وكذلك لابد ان تكون السياسة العسكرية واحدة والجيش المقاتل واحداً ، تلك حدود لابد منها ، ومطالب ملحة لابد ان يأتي مايؤكدها .

ان يكون من اهداف هذا الاتحاد حماية تقدمية النظم وحماية النظم لبعضها من قوى الردة والانتكاس ، ذلك هدف مقبول ومطلوب ، ولكن هذا الاتحاد تتطلع اليه الجماهير في سبيل حماية مصير الأمة والقضية ، وذلك مطلب فوق كل المطالب ، وهو المبرر الاول لقيامه كما جاء في اعلانه وبيانه .

٢ — ان الاتحاد بالاساس ليس اتحاد حكام بل هو ارادة في توحيد أمة وتوحيد شعب . والوحدة الصلبة لاتصنع من فوق وبارادة الحكومات وحدها ، وانما بالارادة الموحدة لجماهير الشعب التي تصنع ارادة الحكام والنظم . فتماسك الاتحاد هو بمقدار قوة وتماسك القاعدة الجماهيرية التي يستند اليها . ان الاحكام الاساسية للاتحاد تطرح موضوع الوحدة الوطنية داخل كل قطر وكمقوم لبناء كل نظام من نظم هذا الاتحاد تطرح موضوع الجبهة الوطنية والجبهة السياسية الموحدة وتطرح هدف الحركة العربية الواحدة ، ان هذه الطريق ، طريق الوحدة الوطنية للقوى ووحدتها القومية ، لايمكن ان ترسم الا من خلال تجاوز الواقع القائم ، ومن خلال تصور تجاوز النظم الى نظام موحد . والوحدة الوطنية لابد أن تحيط بأوسع الجماهير ولابد

ان تقدم اكثر طلائعها تقدماً ، أي انها لابد ان تجد صيغة متقدمة وجديدة لوحدة القوى الوطنية التقدمية على المستوى القومي والقطري . ان القيادات السياسية الراهنة في اقطار الاتحاد هي التي صنعت هذا الاتحاد من خلال تعاونها وتلاقيها ، ولكن هذا التلاقي لايعني تكريسه في هذه الحدود. ان ذلك يعني تكريس اقليمية النظم ، والمطلوب وحدتها، ووحدة القاعدة الشعبية العريضة التي تستند اليها ، ذلك هو اختبار ثان لصعود هذا الاتحاد ولمايمكن ان يحققه من مطامح الجماهير .

٣ - ان الاتحاد الحقيقي لاتتمكن اواصره وتتعمق ، الا بخلق وحدة في المصالح أي بايجاد الصيغة المتقدمة لبناء القاعدة الاقتصادية الصلبة والمتكاملة والمترابطة لهذا الاتحاد . وامام هذه الصيغة مازالت هنالك معوقات ، وهي صيغة لايمكن ان تصمد الا من خلال تخطيط اشتراكي النهج والتفكير يتطلع الى المصلحة القومية الكبرى ، والى مصلحة الجماهير العريضة بقواها العاملة والمنتجة ويهدف فعلاً الى بناء مجتمع عربي اشتراكي موحد . ان امام ذلك عقبات من المصالح الاقليمية ومن اختلاف درجة التطور الاجتماعي والاقتصادي ، ولكن هذا هو اختبار كبير لمدى قدرة هذا الاتحاد على ان يصعد نحو اهدافه وعلى ان يتجاوز تلك العقبات .

ان هذا الاتحاد قد شق طريقاً بعد العناء الكثير ، ودستوره مرن ويتيح المجال لأن يمتلىء بمحتوى يتجاوب مع مطامع الجماهير ويصعد بها على طريق النضال وطريق الوحدة الا ان هذا الامتلاء يحتاج دوماً وفي كل يوم الى جهد ثوري يغذي التجربة ويدفعها على طريق تخطي العقبات والمعوقات . ولا بد للجماهير من أن تدفع هذا الاتحاد بزخم ثوريتها ليأخذ أقصى مايمكن ان يأخذ من محتوى ، ولا بد للقوى التقدمية العربية من أن تدفع به كلها ، وان تدفع لتجاوز اقليمية النظم بل ولأن تتجاوز نفسها لتصنع وحدة الثورة العربية ولتصنع وحدة الامة على أرض المعركة .

— ماذا أضاف الخامس من حزيران وماذا اضافت حركة المقاومة الى مفهوم الوحدة ، وما هو الخطأ في تجربة المقاومة ؟

هزيمة حزيران كانت الكاشف الكبير وحركة المقاومة بما وضعته فيها الجماهير العربية من آمال عند صعودها بعد الهزيمة دلت الى طريق ، ولكنها انحرفت عنها وماقوبت عليها .

لقد كتب الكثير والكثير جداً عن آثار حرب حزيران على حركة النضال العربي وعلى قضية الوحدة وكذلك عن حركة المقاومة وماأعطت وماأخطأت وما كان يمكن ان تعطي ولقد اسهبت في الاجابة على سؤالين لا اكتفي الآن بالاجابة بعناوين عريضة .

الخامس من حزيران ، اضافت لحركة النضال العربي وبالتالي لقضية الوحدة الكشف الكبير ، الكشف التآمر الخطير على الامة العربية ومصيرها — مصيرها ، على تقدمها وعلى امكانيات وحدتها ، والكشف الكبير أيضاً لما صنعته في جسد الامة العربية من ضعف وعجز ، عوامل التجزئة والتخلف ، كما كشفت جميع التناقضات العربية وجميع نقاط الضعف في الانظمة العربية المتصدية للمواجهة ، وكشفت اقليمية النظم وتصديها من مواقع متفرقة وفقدان ابسط مقومات التآزر بينها ، لما تقتضيه وحدة المصير .

والهزيمة طلبت جوابا وحدويا عليها ، ولكنها طرحت الوحدة على ارض مباشرة ، الوحدة في سبيل المعركة ومن اجل التحرير . ولكن الانقسامات التي صنعت الهزيمة ، الانقسامات العربية بوجه عام ، وانقسامات القوى الوطنية التقدمية على الصعيد القومي وفي داخل كل قطر ، وفقدان الاستراتيجية العربية الواحدة للتصدي ، كلها ظلت تفعل فعلها وتطرح مسائلها .

ان ظروف الأخطار والحروب تصنع وحدة الشعوب ، ولا تستطيع أن تقاتل وأن تدافع عن مصيرها الا شعوب موحدة ، تلك حقيقة أثبتتها الثورات والحروب التحريرية للشعوب كما اثبتتها سلبياً هزيمة حزيران .

ان نداءات الوحدة الوطنية والوحدة القومية ترتفع ، وترتفع بالنسبة للقوى والنظم التقدمية المؤهلة وحدها ، والمطالبة وحدها تقريباً بالمواجهة والتصدي . ولكن العوامل التي صنعت الهزيمة ، وما زالت ونحن في العام الخامس من الهزيمة ، تفعل فعلها ، ولم نتجاوزها الا في قليل وقليل جداً .

الوحدة من أجل القتال والوحدة في القتال ، أو وحدة القوة وقوة الوحدة كما قال القائد عبد الناصر ، ذلك ماطرحته كضرورة لا بد منها هزيمة حزيران .

تجاوز التناقضات الفرعية بين النظم والقوى في سبيل مواجهة التناقض المصيري بين الامة واعدائها ومحتلي أرضها وداعمي الاحتلال .

ان أملاً يصعد اليوم بعد التعثر الطويل ، من خلال صعود «اتحاد الجمهوريات العربية» تحت شعار « من موقع الصمود ، وفي سبيل معركة المصير » ، ولكنه مازال املا أو في بداية الطريق نحو الامل ، ولا بد للجماهير أن تدفع دفعاً حثيثاً ليأخذ طريق هذا الامل .

وثمة امل آخر كان قد بدأ يصعد بصعود حركة المقاومة مباشرة بعد الهزيمة ، ولكنه أمل انحسر اليوم وتداعى . انصورة المقاومة في احلام الجماهير العربية وآمالها ، عندما توجهت اليها في البداية بحماسة كبرى لتعطيها الدعم والتأييد ، هي صورة الطليعة المقاتلة

المستشهدة التي يمكن ان توحد من حولها قوى النضال العربي وان تمشي بها على طريقها نحو التحرير .

كان الأمل الكبير في ان تتجاوز حركة المقاومة واقع النظم وواقع الانقسام في الحركات الوطنية والقومية ، لتجسد وحدة النضال ولتلحم في نار المعركة وحدة الأمة من خلال وحدة المقاتلين ، فهناك نداء كبير بوحد الجميع ، القتال في سبيل تحرير الأرض .

ولكن حركة المقاومة ، لم تتحرك على طريق هذا المطمح الكبير الجماهير ، ولم يكن هذا المطمح أصلاً مطمح الكثيرين من فرقائها ، بل هي تأقلمت أيضاً في كثير منها وتحركت من نظرة اقليمية ، كما لعبت فيها اقليميات النظم التي أحاطت بها وانقسامات القوى والحركات التي عملت في صفوفها أو تدخلت او اثرت فيها .

ان قضية فلسطين هي قضية العرب جميعاً ومن خلالها يرتسم اليوم المصير العربي كله ، وطلائع الشعب الفلسطيني المحشودة في حركة المقاومة ، كانت مطالبة وهي تتقدم معززة بارادة الجماهير العربية كلها بالصمود والقتال ، ان تتطلع الى مسؤولياتها من خلال ذلك . ان من حقها ان تطالب العرب جميعاً بدعمها والالتزام بطريق القتال في سبيل التحرير ، ولكنها كانت مطالبة أيضاً ان تلزم نفسها بالمصير العربي وبقضية وحدة النضال العربي .

وهكذا فهي قد قدمت في البداية الأمل بطريق ، ولكنها في النهاية لم تعط إلا صورة سلبية لوحدة النضال العربي ، بما أعطته من صور سلبية لوحدتها الوطنية ومن صور سلبية لقدرتها على السيطرة على نفسها ، القدرة على صنع وحدتها ، القدرة على الصمود في مواقع واحدة في وجه المؤامرات الرهيبة التي احاطت بها ، كان ذلك هو الشرط لتعطي أملاً بالاستمرار ولتعطي دفعاً جديداً لقضية الثورة العربية ، أي بالضرورة لقضية الوحدة .

لقد كان التآمر كبيراً على قضية المقاومة ولقد أحاط بها من كل جانب وفعل فعله في داخلها ، ان المقاومة تأكل اليوم نفسها ، بعد الهزيمة التي الحقها بها النظام المتواطىء في الاردن .

ان هزيمة المقاومة اليوم ليست مأساة فلسطينية بل مأساة قومية كبرى تضاف الى الرصيد السلبي لهزيمة حزيران . وهي خسارة لرصيد كان كبيراً وبصورة خاصة من الناحية

المعنوية ، على طريق المواجهة وعلى طريق التحرير .

ان نقول لابـد من الافادة من دروس الهزائم والنكسات ، ان لابـد من صعود جديد لحركة المقاومة ، ان لابد لها من ان تجدد نفسها وان تصنع وحدتها ، ذلك يبقى كلاماً عاماً وعناوين . فقضية النضال العربي اليوم في مأزق كبير ، واستمرار الجمود على خطوط المواجهة مع العدو ، بحيث لايحركه تحرك بل ولا قوى المقاومة ، شيء خطير ، يزرع الخيبة والحيرة ، ويبقى على عوامل الهزائم تفعل فعلها انحساراً وتمزقاً وانقساماً.

ولكن هذا لايمكن ان يستمر ، أنه ضد منطق التاريخ ، وثورة الجماهير لابد ان تنفجر ، لتعطي طريقاً جديدة ومساراً جديداً .

الدكتور شكري فيصل

من دولة الاتحاد الى دولة الوحدة

تمهيد (١)

اذا كان قيام دولة الاتحاد من أكبر الاحداث عام ١٩٧١ فان بيان الاول من آب الذي وقعه الرئيسان : السادات والقذافي « باقامة وحدة اندماجية شاملة بين مصر وليبيا على أقوى أساس ممكن في موعد أقصاه اول ايلول ١٩٧٣ » يبدو أضخم الاحداث في عام ١٩٧٢ على صعيد الحركة الوحدوية .

لقد مضت سنوات طويلة بين نكسة الانفصال وبين الرد عليها رداً عملياً مباشراً بقيام دولة الاتحاد ، ذاقت فيها الحركة العربية مرارة التجربة وذل الفرقة ، وتعرضت الحياة السياسية لجملة من الأحداث الخطيرة كان ذروتها حرب عام ١٩٦٧ .

ب – ومن المؤكد أن حرب ٦٧ ما كان لها أن تكون ، وما كان لها على الأقل أن تكون في مثل هذا الذي انتهت اليه ، لو أن الوحدة بين مصر وسورية لم تلق ضربتها الموجعة عام ٩٦١ .

ان احداث الوطن العربي متواشجة ، ذلك لان المستويين الرئيسيين اللذين يتحرك عليهما هـذا الوطن متضادان شديدا التناقض : تضافر القوى التي تقف لهذا الوطن من نحو ، وتطلعات أبنائه نحو حياة موحدة كريمـة من نحو آخر .. ولعل التفسير الكلي للاحداث لايخرج في جملته عن هذا التناقض المتصادم بين هذين المستويين .

ج – وعلى هـذا لايبدو لي الفارق الزمني بين حركة الانفصال وقيام دولة الاتحاد فارقاً زمنياً ضخماً ، اذا نحن أدركنا أية قوى رهيبة تعطل حركة الركب العربي وتشتته .

وكذلك لايبدو لي هذا الفارق الزمني بين قيام دولة الاتحـاد وبين اعلان العزم على اقامة وحـدة شاملة فارقاً زمنياً ضئيلاً ، اذا نحن أدركنا أية حركة داخلية عنيفة متفجرة أو قابلة للتفجر ، يغلي بها هذا الجيل .

د – ان السنة الواحـدة بين ٩٧١ و ٩٧٢ تعبير عن تطلعات الجيل وطموحه من نحو وردود فعله عنـده من نحو آخر ، وتصميمه على أن يكون دائمـاً في الآفاق الوحدوية من نحو ثالث .

ان نكـة الانفصال كانت في حاجـة الى هذه السنوات – على طول وثقلهـا وضخامة أحداثها – من النقاهة .. ومبادرة اعلان الوحدة الاندماجيـة كانت تجسيداً للاحساس العارم بضرورة الحركة العريضة نحو الأهداف الوحدوية .

ﻫ – وكذلك يجد الوطن العربي نفسه أنه امام منطلق جديد .. أمام دعوة هي، في جوهرها ، موقف كامل من كل ما قيل ومن كل ما كان : في تجربة الوحـدة وفي نكسة الانفصال وفي حرب حزيران .. وهي استمرار مشروع أو متابعة طموح للبدايات الأولى التي بشرت بها حركة الاتحاد الثلاثي .

فماذا عن هذه الدعوة ؟.. وماذا عن هذه الوحدة الاندماجية ؟

– ٢ – مدخل

أ – تهيبت في البداية أن أضع السؤال .. ان طرح السؤال في نظري موقف سلبي .. لاننا انما نثير هذا السؤال أو ذاك حين نواجه عديداً من الطرق ، وحيث تكون لنا القدرة على احد اختيارين .

ولكننا هنا لسنا أمام طرق متشعبة وانما نحن أمام طريق واحد .. اننا لانملك حرية الاختيار لأن هناك خياراً واحداً ..انه كذلك – اذا أردنا الدقة – ليس خياراً لنا ولكنه قدرنا .. ان الوحدة قدر من أقدارنا ، ولسنا نحن الذين نصنع لذلك أدلتـه من التاريخ أو من الواقع ، لأنه جزء من ايماننا ومن وجودنا .. وانما على اولئك الذين يقفون على الشاطىء أن يلتمسوا الأدلة .. نحن هذه الموجة أو هذه الموجات .. ولسنا الذين يجلسون على الرمل ، يدخنون ويراقبون ويديرون الحديث في أفواههم والموجـة تتحرك ، تعلو ، تهبط ، وحركتها هي التي تكون هذا المحيط .. وليس المحيط في حاجة الى براهين نظرية على وجوده .

السؤال اذن منذ البداية لايلتئم بحال مع ايماننا وحركتنا وتطلعنا .. لايلتئم مع وجودنا في الماضي المستمر ولا مع وجودنا في الحاضر المتحرك نحو المستقبـل .. اني أشعر أن لساني يتعثر حين أديره بمثل هذا السـؤال .

ومع ذلك فلنتجاوز ذاتنا لحظات.. ولنردد السؤال : ماذا عن الوحدة الاندماجية؟

ب – في البداية الثـانية ، بداية الجواب عن السؤال يحسن أن نؤكد أن هـذه الدعوة ليست أمراً جديداً ينهض به السادات والقذافي .. اننا اذا تجاوزنا أبعادها القومية حركة جديدة على الطريق الذي بدأه الاتحاد الثلاثي .. فالاتحاد الثلاثي ماقام ليكون غاية ولم ينشىء ليكون سداً ، وانما كان كما تكون الافتتاحية في قطعة موسيقية مدخلا لها.. يبشر بها ويفتح آفاقها ، ويتيح للمتذوق أن ينغمر فيها ، أريد أن أقول : أن يغيب فيها ، في استجابة كاملة تصطلح عليها القلوب والمشاعر .

الاتحاد الثلاثي اذن – في نطاق الحركات القريبة دون أن ترتد الى البعيد ودون أن ننطلق من البعيد البعيد –البذرة..وبيان أول آب هو البواكير الاولى لهذه البذرة... فماذا اذن عن استكمال هذه المرحلة في آفاق العمل الوحدوي ؟

٣ – منهج

آ – في الوسع أن نصطنع كل برود العقل ، وأن تأخذ أنفسنا بشيء مما يسمونه الدراسة والموضوعية والمنهجية .. ان نخرج من جلودنا لنبرهن على أنهـا جلودنا .. في الوسع أن نفعل ذلك فقد كان من أقسى غزو الاستعمار لنا أنه وضع هـذه الأشياء ، معتقداتنا ووجودنا ، موضع التساؤل ، وموضع الشك والارتياب ، وموضع الحاجة الى الحوار والمناقشة والجدل .. علمنا أن ندمر أنفسنا أولاً بالشكوك لنحاول بناءها باليقين ، وان كان منحنا من أدوات التدمير فوق ما منحنا من ادوات البناء .

ب – في الوسع اذن أن نقول ونحن نجيب عن سؤال ماذا عن الوحدة الاندماجية أننا امام موقفين : موقف ايجابي من هذه الوحدة ، وموقف آخر سلبي .. أو اننا امام سؤالين الجواب عنهما معاً هو الجواب عن السؤال الأول الكبير ، هذان السؤالان هما :

ما الذي يدفع اليها هذه الوحدة الاندماجية ؟ وما الذي يدفع عنها ؟

٤ – ما الذي يدفع عنها ؟

لنتجاوز المسلمات مادام هناك من يشكك بهذه المسلمات .. ولننطلق من الواقع الذي حيينا ونحيا فيه جميعاً .. لنرى ما الذي يدفع الى الوحدة .

ان استعراض هذا الواقع من اقرب مراحله ، من الحرب العالميـة الاولى ، في نظرة كلية شاملة يضعنا أمام الجواب الكلي الشامل : كل شيء في الواقع والحياة يدفعنا الى هذه الوحدة .

أ – كل شيء في الواقع :

كل شيء في الواقع يصرخ بنا ، يدفعنا الى ذلك دفعاً .. سواء في ذلك هـذا الواقع الذي يرتد الى الحاضر او هذا الذي يرتد الى الماضي .. منذ أيام الجاهلية الى قيام اسرائيل .. تناوب الليل والنهار كأنه النداء المتكرر .. في فترات القوة ينهض الدليل الايجابي ، وفي فترات الضعف ينهض الدليل السلبي .

الواقع الذي يتصل بالعقيدة ، والواقع الذي يتصل باللغة ، والواقع الذي يتصل بالارض ، والواقع الذي يتصل بالتاريخ .. الرسالة والمصلحة .. التراث والمستقبل ..

التجانس والتماثل ، التقارب والتكامل .. الآمـال العريضة التي تفتح عيوننا عليهـا لتسكب الضوء في هذه العيون .. والآلام العنيفة التي تعتصر القلب .. كل ذلك يتحدث باتجاه واحد ولغة واحدة ، دافعة نحو هذه الوحدة مؤكدة عليها .

ب ـ كل شيء في الحياة :

كل شيء في الحياة : الحياة الخيرة التي لاتغلبها شهواتها ، ولا تستأثر بها خرافاتها، ولا تضلها البدع والاهواء ـ يدفع بنا في هذا الطريق .

١ ـ في الحياة العسكرية :

اني لاأريد أن أتحدث عن الحياة العسكرية لأني لا أريـد أن أحكي هنـا حكاية اسرائيل في آسيا وحكاية اسرائيل في افريقيا .. ولا هذا المجال الحيوي الذي لابد من مطاردته .. لاأريد أن أقول أن سنوات ماقبل ٦٧ لم تكن سنوات سلم ، ولكنها كانت حرباً متصلة في كل عاصمة افريقية ، وكانت تشبه هذه المناورات ـ التجربة .. من غير سلاح أو بالسلاح الخفيف .

ان حقائق الحياة العسكرية حقائق كالشمس في ظهيرة يوم حار ، لاتضيء فحسب بل تلذع .. انها لذلك فوق أن تحتمل الحديث .

٢ ـ في الحياة الاقتصادية

ولا أحب أن أتحدث عن الحياة الاقتصادية .. لا لأن الارقام ضلال أحيـاناً ، ولكن لأن حساب الربح والخسارة هنا حساب خاسر .. والتفكير فيه مضلة ..

وإلا فما ينفعني أن افكر هذا التفكير ، من الذي يضار في الوحدة ومن الذي ينتفع بها ، اذا كان التنين سيبتلع الذين يسمونهم المنتفعين والمتضررين ، واذا كان الحريق يمتد ليلتهم أولئك وهؤلاء ؟!

التفكير في المصالح الاقتصادية نوع من التجديف .. لا أشك في ذلك لحظة.. لأننا اذا كنا ندرك الخطر الداهم فماذا ينفعنا أن نتحدث في الصادرات والواردات ، ما هو موجود وما هو محتمل .. ما نأخذ وما نعطي ..

وهل يفكر أخوان في الثمرة على الشجرة ، اذا كان هناك منجل يقتطف الثمرة ، ورصاصة توجه الى صدر هذا أو ظهر ذاك ومحفار يشق لهما اللحد ؟

وإذا نحن أغمضنا أعيننا عن هذا الخطر .. فما فائدة أن نتحدث عن تنافر

المصالح الاقتصادية اذا كنا سنأخذ بنظام اشتراكي عادل لمصلحة الافراد والجماعات على السواء ؟

ثم .. أين يبقى الحديث عن وحدة المصير اذا كان هنالك دائماً هذا الحديث عن تنافر الاقتصاد ؟ أذاك هو الذي يقوله القرآن الكريم حين يتحدث عن اليهود أو عن المنافقين : يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ؟!

ومع ذلك ، هل يعجز العقل العربي عن تجاوز هذا التنافر الى ايجاد نوع من التكامل ؟ ألم تكن التجربة الاوروبية ، تجربة السوق المشتركة درساً حياً ؟ .

ما أشد ما نعاني من ضلال .. كل شيء عندنا يذكر بالبهلوان الذي يمشي على رأسه وقدماه الى أعلى .. الدواء عند غيرنا داء عندنا .. السوق الاوروبية المشتركة ضربت أبرع الامثلة على أن من اليسير تجاوز صعاب التاريخ كله وحل اشد القضايا تعقيداً في الحياة المالية والاقتصادية .. بل وحتى في الحياة النفسية (التصويت في الدانمارك على دخول السوق) ..

كانت كذلك السوق الاوروبية المشتركة في اوربا ، على حين كان ما يماثلها عندنا ، على النقيض : اثارة للمشاكل وبعثاً للتناقض ، واحياء للخصومات ، وشكوكاً تلقى كثيفة على المستقبل .

وهذا دون أن ننسى أن حجم العمليات التجارية والاقتصادية عندنا لايكاد يوازي ماعند دولة واحدة عندهم .. وبساطته عندنا بحيث لايبدو شيئاً أمام تعقيده هناك .. الانواع عندنا كلها لاتتجاوز أنواع الجبن الفرنسي .. وكل ماعندنا من أرقام الصادرات لايعادل أرقام شركة واحدة .. والارقام الضخمة لاتخرج عن نوع واحد هو البترول .

٣ — في الحياة السياسية

وكدت أقول : ولا أحب ان اتحدث عن الحياة السياسية لولا ان الحدث ، في صورته القريبة ، حدث سياسي .

ويستهويني أن اتحدث عن هذه الحياة السياسية من جانبين :

الحياة السياسية لأقطار الوحدة الاندماجية مجتمعة .

الحياة السياسية لكل قطر .

٥ – الحياة السياسية لأقطار الوحدة مجتمعة

١ – من جانب :

آ – في شيء كثير من صراحة ، تبدو الوحدة الاندماجية استنقاذاً للوطن العربي من وضعه الذي يتردى فيه .. ان الحياة السياسية لهذا الوطن كله تتلخص ، في مقال ضيق بأنها حياة سياسية منفعلة .. أنها ليست أبداً الحياة الفاعلة .. فنحن نترقب الاحداث ونحن نخضع لها دون ان يكون لنا مشاركة في صنعها .. ثم نحاول ان نواجهها ولذلك لايتأتى عن هذه المواجهة أية نتيجة .

لقد خسرنا كل معركة سياسية خضناها من نيويورك الى الخليج العربي . ولم يعلق في ذاكرة العالم كله أي موقف لنا جدير بالإكبار .. أصدقاؤنا وأعداؤنا على السواء يحتارون معنا ويحيروننا ، لأنه ليس لنا « نحن » على الصعيد المشترك ، وليس لنا «أنا» على الصعيد المنفرد .

كان هنالك شخص واحد على طول الوطن العربي وعرضه يمثل العنصر الفاعل .. لم يمت ولكنه اغتيل .. العصا النخرة التي اتكأ عليها انهارت .. ثم لم يكن لهذا الوطن العربي كله من يستطيع أن يجسد طموحه .. القادرون غارقون في اقليميتهم يحسبون انها عاصم ، وينشرون مبدأ التقوية الداخلية كأن هنالك أوطاناً متفرقة لكل منها داخل وخارج ، وكأن الاعداء من الغفلة بحيث لايقدرون ذلك .. أما غير القادرين فهم غارقون في ضعفهم واقليميتهم معاً .

ب – ان الخروج من أسار الموقف المنفعل الى طلاقة الموقف الفاعل لايتأتى لقطر ما وحده .. انه لايتأتى الا لكتلة من هذه الاقطار يكون عملها المشترك الموحد تكثيفاً لطاقاتها المتبددة ، في طاقة واحدة قادرة على أن تقول « لا » حين تفيدها « لا » ، وقادرة على أن تقول « نعم » حين تفيدها « نعم » .. ولكنها لاتخرج بالصمت أو مايشبه الصمت – وما أكثر ظواهره في الدوائر الدولية واحداثه – عن لا ونعم .. لاأريد قادرة على القول فحسب ولكنها قادرة على العمل ، ولو أقل على العمل كذلك .

ان الوحدة الاندماجية توشك أن تكون الطريق الأوحد للاستنقاذ حتى نكون وطناً عربياً أو رقعة من وطن عربي متميز .. لا أقطاراً أوشك أن أقول من غير هوية ، على خريطة ليس اسمها خريطة الوطن العربي وانما اسمها خريطة الشرق الاوسط ، بعض قواها الفاعلة أو أبرز قواها الفاعلة اسرائيل .

٢ — من جانب آخر :

جانب آخر من الحديث عن هذه السياسة الخارجية يرتد الى مواقف بعض البلاد العربية ذاتها .. وتفسير ذلك أن على الارض العربية الآن مواقف ضعف .. ولسنا في مجال يسمح بالحديث عن هذا الضعف ولا تسميته، ولا ينفعنا كذلك هذا الحديث ولا هذه التسمية .. غير ان هذا الضعف يوشك أن يكون مرضاً .. بل يوشك أن يكون من هذه الأمراض التي تنتقل بالعدوى .. أقطار على المتوسط وبعيدة عن المتوسط في الجناح الآسيوي ، وأقطار متاخمة لمجموعة افريقية . في الجناح الافريقي .. تقف ، لسبب أو لآخر ، بعيدة عن المشاركة .

ولن ينقذ هذه الاقطار من أن يستفحل عندها الضعف والمرض مثل أن تجد علامات السلامة تجسدها أقطار أخرى .. كل ما يمكن أن يفعله الوطن العربي بالقياس الى هذا القطر أو ذاك من الأقطار التي تعاني أزمة قومية لا يعدل موقفاً واحداً من كتلة عربية يكون هو الموقف السليم .. العملة الجيدة هنا هي التي تطرد العملات الزائفة .

٣ — من جانب ثالث :

بل ان الموقف بالقياس الى المغرب العربي يحتاج الى هذه الوحدة الاندماجية الرائدة .. وقليل الكلام أحياناً أو اشارات منه تغني عن الخوض فيه .

٦ — الحياة السياسية الداخلية لكل قطر

هذا عن السياسة الخارجية من هذه الجوانب الثلاثة .

اما عن الحياة السياسية الداخلية فان الوحدة الاندماجية أفضل ما تفعله هذه الأقطار لمصلحة النظام الذي تقوم عليه .. إن عملاً وحدوياً جاداً وعميقاً ومخلصاً يغني عن كثير من الأشياء الأخرى التي نقوم بها .. جهدنا الاعلامي الداخلي كله لاحاجة اليه اذا نحن حققنا مثل هذا الانجاز .. والسير فيه هو الذي يولد تلقائياً ثمراته وهو الذي يخلف أطيب آثاره .

أجدني هنا في حاجة الى أن أضيف شيئاً آخر — لعله لايبدو غريباً — لايضاح هذه الفكرة .

كثيرون يدرسون الانظمة في الاقطار المختلفة ويتحدثون عن تعاقبها ،ويذكرون جملة من الأسباب التي أدت الى هذا التعاقب (السوء .. الانحراف .. الرشوة ..)

ولكنهم يغفلون ، في الحق ، عن سبب رئيسي هو غياب الانجاز الضخم في نطاق الحركة نحو الوحدة .

ان الانظمة تكاد تتماثل في أخطائها .. من لم يأته الخطأ ، أو من لم يأت الخطأ ، من هنا ، أتاه من هناك .. والاخطاء الداخلية لاتؤلف وحدها السبب الرئيسي في ذلك على عميق أثرها لانه يداخلنا دائماً شيء من التسويغ حين نرد ذلك الى هذا المعلوم — المجهول : التخلف ، الاستعمار ، أطوار التنمية .

ولست ابالغ أو ابتعد عن الصواب .

ذلك امر طبيعي .. اذا كنا نتحدث عن الوحدة في كل ساعات الليل وفي كل ساعات النهار ، واذا كانت الوحدة طريقنا وقدرنا ، واذا كنا لانجد بعد ذلك شيئاً من الانجاز الذي يتصل بهذه الوحدة .. فإذا تكون اذن العاقبة .

ان الاصلاحات الداخلية وحدها لاتؤلف القاعدة للحكم القومي ، ولا تؤلف المسوّغ المشروع أمام التاريخ .

ان المواطن العربي مستعد ان يخرس تذمره من كل شيء في الداخل اذا كان هناك في الخط الأساسي : الوحدة ، شيء ينسيه هذا التذمر والمتاعب التي تسوق إلى هذا التذمر .

من هنا تكون فكرة الوحدة الاندماجية خيراً أيضاً على الحياة السياسية الداخلية قدر مايكون من خيرها على السياسة الخارجية .. وذلك دون ان ننسى تشابك هاتين الجانبين والأثر المتبادل للواحدة على الاخرى .

٦ — ما الذي يدفع عنها ؟

هل أنا بعد هذا في حاجة إلى السؤال الآخر : ما الذي يدفع عنها ؟

ان السؤال هنا نقيض السؤال الأول .. أفلا يكون الجواب كذلك هو النقيض ؟

٧ — خاتمة

من الاتحاد الثلاثي الذي يعبر عن الانتصار لمبدأ الوحدة الى الوحدة الاندماجية التي تعبر عن الحاجة الى التطبيق وعن سلامة هذا التطبيق .. من مرحلة الانبعاث الى مرحلة الحياة نفسها .. ذلك هو الذي يجب ان يكون .

ان ذلك هو الذي يعطي الاصفار العربية قيمتها .. الوحدة الاندماجية هي الرقم ، هي الواحد الذي تقف الاصفار منه على يمينه لينفخ فيها الحياة .

وليس هذا ضرورة توازي الوجود ولكنه ضرورة ملحة .

اما الذين يريدون ان ينشبثوا بالهدف ، والذين يتحدثون عن عامل الزمن ، فجديرون ان يذكروا ان الزمن — في كميته — لهم ولاعدائهم على السواء .. واما الزمن في نوعيته ، في استثماره ، فيكاد يكون لاعدائهم وحده .

أفلا تكون الوحدة الاندماجية تعديلاً لهذا الزمن ، وقيمة اضافية له في وجودنا حتى نستوي مع اعدائنا على الأقل في حساب الايام والشهور ؟

* * *

ليست هذه دراسة . . انمـــا دعوة ونداء للذين يملكون القدرة على الفعل ان يفعلوا .

انها دعوة من العقل ومن القلب . . والدعوة آخر ماتقدم الجماهير قبل انينعطف بها الطريق نحو.. نحو ماذا .. هل أقولها .. انكم تعرفونها .. نحو اليأس .

ولكن متى كان لليأس سلطان على الأمة التي صارعت الزمان ؟

يحيى عرودكي

الوحدة العربية والتكتلات الاقتصادية في العالم

كانت الوحدة العربية ولا تزال أمل الشعب العربي وقدره في مختلف أقطاره ، والهدف الذي تناضل الجماهير العربية لبلوغه . وتسعى لتحقيقها القوى المؤمنة بها والواعية لحقيقة الأوضاع والمآسي التي تشكو منها الأمة العربية ، سواء بسبب حالة التجزئة والتفتت التي تعيشها تلك الأقطار ، أو تبعاً لطبيعة الصراع الذي يتعرض له الوطن العربي من مختلف المصادر والاتجاهات .

وكان التاريخ المشترك ، واللغة ، والعادات والتقاليد ، والدين ، والصلات العائلية ، تشكل دعامة تلك الوحدة ولاتزال الى حد بعيد .

على انه في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وبعد ان تكشفت حقيقة ماآلت اليه تلك المجزرة من صور جديدة للعلاقات الدولية ، ومن تقسيم جديدللقوى المحركة لتلك العلاقات، ثم من الاتجاه الذي تبدت الحاجة اليه في اقامة نوع من التوازن بين هذه القوى . والمتمثل بقيام العديد من التكتلات الاقتصادية في انحاء عديدة من العالم .

نقول — بعد هذا كله وغيره — بدأت تظهر عوامل جديدة تؤكد على ضرورة قيام تلك الوحدة بين الاقطار العربية ، وعلى وجوب العمل المتواصل والسريع لتحقيقها وتمثلت هذه العوامل ، بأهمية الدور الذي يمكن أن يقوم به قيام تكتل اقتصادي بين الاقطار العربية في تحقيق الوحدة العربية ، ثم بالنتائج الهامة التي يستطيع هذا التكتل أن يبلغها ،سواء في درء الاخطار التي تواجه هذه الاقطار نتيجة قيام التكتلات الاقتصادية في انحاء عديدة من العالم ، وفي مقدمتها السوق الأوربية المشتركة ، أو في دعم الاقتصاد العربي ، من خلال الفوائد التي تحظى بها فروع هذا الاقتصاد تبعاً للميزات التي يوفرها هذا التكتل بينها ، على الصعيدين الداخلي والخارجي .

ان ادراك أهمية تلك التكتلات ، وأثرها على اقتصاديات الدول النامية ، ومنها الأقطار العربية ، يقتضينا التعرف على العوامل والاسباب التي أدت لقيامها ، ثم استعراض الاهداف التي تسعى لتحقيقها . وهذا بالتالي يتيح لنا أن نستبين أهمية قيام تكتل اقتصادي عربي يكون نواة للوحدة العربية ودعامة أساسية لها .

أولا — العوامل والاسباب التي أدت لقيام التكتلات الاقتصادية :

لم يكن النزوع لاقامة التكتلات الاقتصادية في العالم الا استجابة لحقيقة الاشياء ومقتضيات التطور ، التي تولدت عن العديد من العوامل الاقتصادية والسياسية ، التي نجملها بالآتي :

١ — النمو المتزايد للانتاج العالمي ، في أعقاب استخدام البخار والكهرباء والبدء بانتاج المفاعلات الذرية وارتياد الفضاء ، وظهور طرق وأساليب جديدة في الادارة والانتاج ، مما أتاح استثمار مساحات جديدة وواسعة من الارض واستخراج الكثير من الثروات الطبيعية ، وابتكار العديد من المنتجات الصنعية وتطوير الآلات والأجهزة والمعدات بما جعلها أكثر قدرة على الانتاج والاسراع فيه ، بشكل باتت معه الحاجة ماسة للخلاص من أساليب تسويقه السابقة ، والبحث عن الاسواق الكبيرة والمتحررة من القيود التي تصطدم بها المبادلات التجارية الدولية .

١ — ارتفاع تكاليف الانتاج ، نتيجة استخدام الآلات والمعدات الحديثة والاساليب

والطرق المبتكرة . فلقد أدى ذلك الى زيادة الطلب على الايدي العاملة ، وخاصة الفنية والخبيرة منها، وعلى المواد الاولية والأساسية اللازمة للانتاج ، التي لم تكن وتائر الزيادة في انتاجها على نفس المستوى والمعدلات التي تحققت في الآلات والتجهيزات . ثم أن التطورات التي حدثت في أشكال معدات الانتاج وأساليب تشغيلها قد تكشف عن أخطار واصابات بات يتعرض لها العمال ، وتستوجب حمايتهم منها والتأمين ضدها . كما استوجبت تلك التطورات ادخال تعديلات جوهرية على طرق واعداد وتغليف وشحن السلع والمنتجات ، وأسباب التعريف بها في الداخل والخارج .

كل هذه الامور تستتبع ارتفاع تكاليف الانتاج ، وهذا الارتفاع أصبح يتطلب لكسر حدته ، البحث عن أساليب جديدة تتمثل في رفع الطاقة الانتاجية وزيادة مردودها .

٣ — ظهور منتجات جديدة ، تتطلب البحث عن منافذ وأسواق كافية للتسويق فيها ، بعيدا عن أية قيود أو صعوبات تصطدم فيها ، وتحول دون وصولها الى أيدي المستهلكين . ومثل هذه المنتجات ليس من السهل احلالها محل المنتجات التقليدية ، أو تعريف المستهلك بها ، اذا لم تكن السوق توفر لها نوعا من الحماية والحرية الكافية .

٤ — ازدياد توفر رؤوس الأموال التي تبحث عن المجالات والمشاريع التي تعطيها مزيدا من الربح ، بعد أن أصبح من العسير عليها بلوغ مثل هذا الهدف في نطاق البلد المتوفرة لديه ، ولقد نجمت هذه الزيادة من رؤوس الاموال نتيجة استخدام مبتكرات التقدم التقني والعلمي في أرجاء عديدة من العالم ، وكان على أصحاب هذه الاموال الاتجاه في أحد سبيلين ، أولهما توسيع المشاريع الخاصة بهم في البلدان الموجودة فيها ، وهذا يعني ضرورة توفير قنوات جديدة لتصريف فائض انتاج هذه المشاريع وثانيهما البحث عن مجالات أخرى لاقامة مشاريع جديدة فيها . وكلا من الاتجاهين يفترض توسيع رقعة السوق .

٥ — القيود الادارية والجمركية والمزاحمة في الاسواق التقليدية ، والتي بدأت معظم الدول ، في أعقاب أزمة الثلاثينيات من هذا القرن ، في الأخذ بها ، والتي امتدت بعد ذلك حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، مما أصبحت تشكل معه حجر عثرة في طريق الانتاج المتزايد والمتنوع ، الذي يفتش على الاسواق المفتوحة بعيداً عن مثل هذه القيود وتلك المزاحمة . وقد وجد في اقامة التكتلات الاقتصادية والاسواق المشتركة السبيل التي تحقق له بغيته الى حد كبير .

٦ — التوازن السياسي ، الناجم عن

فقدان عدد من الدول – التي كانت تعتبر عظمى – مكانتها السياسية والدولية في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وضياع المستعمرات التي كانت تسيطر عليها من أيديها ، واستقلال هذه البلاد واتجاهها نحو اصلاح ما أفسده الاستعمار في أجهزتها وحياتها طيلة مكوثه في أراضيها ، وظهور صراع جديد بين القوتين الكبيرتين في العالم ، ومحاولة البلدان الأوربية الغربية تشكيل قوة فيما بينها ، عن طريق التعاون الاقتصادي للوصول الى الوحدة الأوربية ، وكذلك محاولة العديد من البلدان كمجموعة البلدان الاشتراكية ، وبلدان امريكا اللاتينية ، وبلدان غربي أفريقيا ، والبلدان العربية ، وبلدان أفريقيا الوسطى .. الخ .

ثانياً – الأهداف التي تسعى التكتلات الاقتصادية لتحقيقها :

مامن شك أن السوق الأوربية المشتركة ومجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة بين بلدان الكتلة الاشتراكية (كوميكون) يعتبران النموذجين الأكثر تقدماً من نماذج التكتلات الاقتصادية في العالم ، والتي يقتضينا القاء الضوء على أهدافها للتعرف على مدى أهمية الاسراع بتحقيق الوحدة العربية .

آ – السوق الاوربية المشتركة ، يأتي في مقدمة الاهداف التي تسعى هذه السوق لتحقيقها الآتي :

١ – تحقيق حرية انتقال السلع الوطنية والاجنبية بين بلدانها .

٢ – اقامة جدار جمركي حول بلدانها .

٣ – تحقيق حرية انتقال الاشخاص ورؤوس الأموال بين بلدانها .

٤ – وضع السياسات الزراعية وتلك الخاصة بقطاع المواصلات بصورة مشتركة .

٥ – اتخاذ الاجراءات اللازمة لتنسيق السياسات الاقتصادية والاجتماعية للدول الأعضاء .

٦ – العمل على تقريب التشريعات القومية في هذه الدول الى الحد اللازم لحسن سير السوق .

٧ – تشجيع ضروب النشاط الاقتصادي المتناسق في مجموعة بلدان الدول الأعضاء ، والتوسع الاقتصادي المستمر المتوازن والاستقرار المتزايد .

٨ – الاسراع برفع مستوى المعيشة في بلدانها .

٩ – زيادة توثيق الروابط بين تلك الدول بما يحقق التكامل الاقتصادي بينها .

وقد سنت السوق الأوربية المشتركة بعض الأساليب لتحقيق تلك الأهداف والمساهمة في بلوغها ، ومنها :

١ – انشاء جهاز للمحافظة على روح المنافسة ومراقبة التكتلات ضمن دول السوق .

٢ – تقديم المساعدات المتبادلة بين دول السوق في حال عجز ميزان المدفوعات مع المحافظة على الاستقلال النقدي لكل دولة .

٣ – انشاء صندوق اجتماعي لتيسير

استخدام واعادة تشغيل العمال وتدريبهم اذا ما فقدوا أعمالهم نتيجة لالغاء التعريفة في السوق .

٤ – انشاء بنك أوربي للتثمير ، لتوجيه التثميرات في السوق وخاصة لتنشيط التثمير في المناطق المتخلفة عن السوق .

٥ – ربط بلدان ما وراء البحار التابعة للدول الأعضاء بالسوق المشتركة .

ب – مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة بين بلدان الكتلة الاشتراكية (كوميكون) : ويهدف هذا التكتل الى تحقيق الآتي :

١ – اقامة نوع من التعاون والتنسيق بين الدول الأعضاء .

٢ – التحسين المنهاجي للاقتصاد الوطني للدول الأعضاء .

٣ – الاسراع بتحقيق التقدم الاقتصادي والفني لهذه الدول .

٤ – التحسن المستمر في مستوى المعيشة .

وقد اعتمد هذا المجلس مجموعة من الأجهزة التي تعني بمهمة دراسة وتحضير الاقتراحات والابحاث والمشاريع المتعلقة بالتعاون الاقتصادي والعلمي والتقني بين الدول الاعضاء وتقديم النصائح والارشادات ، ومراقبة قيام الدول الاعضاء بالتزاماتها تجاه المجلس . هذا بالاضافة الى البنك الدولي للتعاون الاقتصادي الذي يقوم بعمليات التقاص الجماعية بين الدول الاعضاء .

وعلى هذا فان هذا المجلس يسعى الى تحقيق قيام سوق مشتركة بين الدول الاعضاء من خلال تنسيق الخطط الاقتصادية المرعية لدى كل منها ، بشكل تعمل فيه المشروعات الاقتصادية وفروع الانتاج المختلفة بعيداً عن أية منافسة خارجية في بلدانها من جهة ، وبما يمكنها من أن تنطلق في علاقاتها الاقتصادية ومبادلاتها التجارية مع البلدان الاخرى وفق مقتضيات حاجاتها ومصالحها من جهة ثانية .

ثالثاً – الآثار والنتائج التي تعكسها هذه التكتلات على الدول النامية :

ان العرض الموجز لنموذجين من التكتلات الاقتصادية الكبرى في العالم ، التي تضم في عضويتها بلداناً متقدمة اقتصادياً وفنياً ، يتيح للقارىء ان يخرج بعدد من النتائج التي تستطيع أن تعكسها هذه التكتلات وأمثالها على اقتصاديات الدول النامية ومبادلاتها التجارية معها ، وذلك تبعاً لما تحققه تلك التكتلات من مزايا اقتصادية لفروع الانتاج المتقدمة لديها ، سواء من حيث تخفيض تكاليف الانتاج نتيجة نمو والارتفاع بكفاءة وسائله وأساليبه ، أو من حيث القدرة على المزاحمة ، أو من حيث التحكم في فرض معدلات الرسوم والقيود الجمركية والادارية على البضائع الأجنبية ، أو غير ذلك من المزايا الأخرى . ويأتي في مقدمة تلك النتائج الآتي :

١ – الحد من استيراد منتجات الدول

النامية ومنها الاقطار العربية نتيجة قيـام الجدار الجمركي حول بلدان الدول الاعضاء في التكتل الاقتصادي ، واتباع سياسة الاكتفاء الذاتي من جهة ، والتطور الذي تتوصل اليه الاجهزة الانتاجية في التكتل نتيجة التقدم التقني والفني لديها من جهة اخرى .

٢ - فرض الأسعار والشروط التي تتلاءم ومصالح فروع الانتاج في بلدان التكتل على البلدان الأخرى وفي مقدمتها النامية لشراء المنتجات والمواد الأولية منها ، نظراً لأن الأولى تعتبر المستهلك الأكبر لها . ولأن الثانية لا يتوفر لديها سوى هذا النوع من الصادرات وهي مضطرة بحكم هذا الوضع ، وبما تفرضه عليها حـالة التخلف الاقتصادي من ظروف اقتصادية صعبة ، أن تتجه للبلدان المتقدمة لبيعها ما تحتاجه من منتجاتها بأسعار أقل من التكاليف الحقيقية لهذه المنتجات .

٣ - التعرض لمزاحمـة المنتجات التي تصدرها الدول المتقدمة الى البلدان النامية بأسعار وشروط إغراقية ، لا تقوى على التصدي لها ، الا عن طريق وضع القيود والتعريفات الجمركية العالية ، وغالبـاً لا تفلح هذه الوسائل تماماً في بلوغ الأهداف المرجوة منهـا ، تبعاً للظروف الدولية أو للموقع الجغرافي الـتي كثيراً ما تعمد الدول المتقدمة الى الاستفادة منها في خرق التدابير المفروضة لحماية الانتاج الوطني في البلدان النامية .

٤ - عرقلة مشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية نتيجـة الوقوع تحت سيطرة الاحتكارات الكبرى وما تفرضه من الحد من قيام المشاريع التي تتعارض ومصالحها ، حتى تبقى البلدان النامية أسيرة رغبات ومصالح تلك الاحتكارات .

٥ - وتبعاً لهـذه الرغبات والمصالح ، فانه كثيراً ما تنتهي مثل هـذه السيطرة الاقتصادية الى سيطرة سياسية بأشكال وصيغ متنوعة . تفقـد بنتيجتها بعض البلدان الناميـة مقومات استقلالهـا الاقتصادي والسـياسي .

رابعاً - مقومات الوحـدة الاقتصادية بين الاقطار العربية :

اذا كان صحيحاً ، أن السوق الاوربية المشتركة قد قامت بين عدد من البلدان المتقدمة صناعياً ، ولديها من المشروعات الاقتصادية المماثلة تقريباً سواء من حيث أساليب الانتاج او النظام الذي تعمل في ظله ، أو التطلعات التي تنظر اليها في التطور والتقدم . وكان صحيحاً أيضاً أن التعاون الاقتصادي المتبادل بين الدول الاشتراكية قد قام بين بلدان ذات انظمة سياسية واجتماعية واقتصادية متماثلة ، بالاضافة الى التقارب في أساليب الانتـاج ومؤسساته لدى كل منها ، فانه يمكن القول إن لدى الاقطار العربية المقومات والعوامل التي يمكن اعتمادها لقيام تكتل اقتصادي فيما بينها

يكون منطلقاً وأساساً لبلوغ الوحدة العربية الشاملة .

فاقتصاديات البلدان العربية تعتبر من زمرة اقتصاديات البلدان النامية ، اذ مازالت اقتصاديات تغلب عليها الصفة الزراعية . والقاعدة الصناعية في أكثر البلدان العربية تتشكل بمعظمها من مشروعات صناعية صغيرة أو من الحرف الاستهلاكية . أما صادرات هذه البلدان فتتشكل بغالبيتها من المواد والمنتجات الأولية والثروات الطبيعية ، كما تتألف مستورداتها بشكل رئيسي من السلع والبضائع الاستهلاكية .

واذا كانت مثل هذه الأوضاع تعتبر عوامل ضعف لاقتصاديات البلدان العربية ، فانها بنفس الوقت تعتبر عوامل مشجعة بل دوافع ملحة لتلمس الطريق الصحيحة للخلاص من حالة التخلف التي تعيشها الاقتصاديات العربية خصوصاً اذا قرنت بالمقومات التي تتوفر لدى هذه البلدان والتي نوجزها بالآتي :

١ — عوامل الانتاج ، والتي تتشكل من المواد الاولية ، والقوة البشرية ورؤوس الاموال والاراضي الزراعية التي من شأنها تسهيل اقامة قاعدة صناعية تكون اساساً ثابتاً للتقدم والتطور . فلدى الاقطار العربية ثروة هامة من النفط الخام جعلته منطقة صراع بين الاحتكارات النفطية في العالم . بالاضافة الى امتلاكها لمكامن واسعة لانتاج الفوسفات تجعلها من أوائل البلدان المنتجة لهذه المادة ، كما تتوفر لديها بعض خامات المعادن والأملاح .

وإلى جانب هـذه الثروات الطبيعية التي يزخر بها الوطن العربي والتي تشكل إحدى دعامات التصنيع ، فانه ينتج عدداً من المواد الزراعيـة الرئيسية كالقطن والحبوب والحمضيـات والتبغ والزيتون والثمار والخضروات التي تعتبر مواد أولية لعـديد من الصناعات ، يضاف الى ذلك امتلاكه لثروة حيوانية هامة من الأبقار والأغنام والجمال والمسطحات المائية الغنية بالأسماك ، وامتلاكه كذلك لثروة حراجية جيدة وما نجده من وفرة عوامل الانتاج المادية يمكن أن يقال أيضاً من حيث وفرة العوامل البشرية ، حيث يبلغ عدد سكان الوطن العربي أكثر من مائـة مليون موزعة بـين أقطاره بشكل لا يتناسب ومساحة كل من هـذه الاقطار وخاصة مساحة الأراضي الصالحة للحياة .

فاذا أضيف الى كل هذا وذاك ، مايلاحظ من سوء توزيـع رؤوس الأموال المتوفرة في الوطن العربي . اذ يمتلك نحو ربع عـدد سكان العالم العربي من الثروات ورؤوس الأموال أكثر من ضعف مايمتلكه باقي عدد سكان هذا العالم . في وقت تحتاج فيه مختلف هذه الأقطار الى تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، التي تعتبر رؤوس الاموال عنصراً أساسياً من عناصرها .

٢ – الموقع الجغرافي والمساحة : ويشكل الموقع الجغرافي الممتاز للوطن العربي الكبير الممتد ضمن قارتين من الخليج العربي الى المحيط الاطلسي ومن تخوم أوربا وسواحل البحر الأبيض المتوسط الى أواسط أفريقيا وعلى الطرق الرئيسية الدولية عاملاً هاماً وعنصراً فعالاً في قوة التكتل الاقتصادي الذي يقوم بين أجزائه وبالتالي في قوة الوحدة العربية . بما يوفره من سوق كبيرة ومن قربها لمصادر الانتاج والاستهلاك الواسعة .

٣ – التطور والنمو الاقتصادي : ان وضع التجزئة الذي تعيشه الاقطار العربية ، وحالة التخلف الاقتصادي والتبعية الاقتصادية التي عاشتها ولا تزال في العديد منها نتيجة رزوح هذه الأقطار تحت حكم السيطرة الاجنبية فترة طويلة من تاريخها قد حال دون تطورها ونموها وتقدمها الاجتماعي والاقتصادي ، كما أخر قيام القاعدة الصناعية القوية لديها ، وجعل مبادلاتها التجارية فيما بينها ضعيفة الى حد ما نظراً لتشابه انتاجها ، ولاعتمادها في الغالب على المنتجات الأجنبية ، وخاصة الاستهلاكية أو نصف المصنوعة . هذا بالاضافة الى الخلل المستمر الذي يلاحظ في موازين تجارتها الخارجية ، نتيجة تزايد المستوردات وضآلة حجم الصادرات لدى معظمها .

٤ – عوامل أخرى : تتمثل في التاريخ المشترك لاقطار الوطن العربي سواء في عصر الدولة العربية الواحدة ، أو في ظل السلطة العثمانية ، أو بعد ذلك وحتى الآن ، الى جانب اللغة والدين والتقاليد المتقاربة كما تتمثل بتشابه الامراض التي تشكو منها من حيث التمزق السياسي الذي فرض عليها ، أو المطامع الاستعمارية التي كانت عرضة لها ولا تزال . أو من حيث خطر الهجمة الصهيونية في جزء من الارض العربية على باقي أجزائها تبعاً لتلك المطامع التي لاتقف عند حد إلا إبقاء الامة العربية مجزأة الاوصال ، ضعيفة وغير قادرة على استعادة وحدتها وقوتها .

خامساً – الميزات والنتائج لقيام الوحدة الاقتصادية العربية :

لقد استهدفت اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية التي ابرمت عام ١٩٦٤ بين كل من : سورية ومصر ، والعراق ، والاردن ، والكويت ثم اليمن والسودان تحقيق الاهداف الآتية :

١ – حرية انتقال الاشخاص ورؤوس الأموال .

٢ – حرية تبادل البضائع والمنتجات الوطنية والأجنبية .

٣ – حرية الاقامة والعمل والاستخدام وممارسة النشاط الاقتصادي .

٤ – حرية النقل والترانزيت واستعمال

وسائل النقل والمرافىء والمطارات المدنية .

٥ — حقوق التملك والايصاء والارث.

فاذا ما قرنت هـذه الأهداف بالوسائل والأسس التي تضمنتها الاتفاقية لهذه الغاية ، فان التعبير العملي لذلك يعني هو الوصول الى مرحلة الاندماج الكلي لاقتصاديات الاقطار العربية الأعضاء ، وبالتالي قطع شوط بالغ الأهمية على طريق الوحدة الشاملة فيما بينها . وقد ترك الباب مفتوحاً أمام جميع الاقطار العربية للانضمام الى هذه الاتفاقية . مع افساح المجال لمراعاة الأوضاع الخاصة لكل منهـا لفترات انتقالية .

وما من شك أن بلوغ تلك الأهداف يتيح للبلدان العربية ميزات عديدة في اطار المجموعة الدولية وبمواجهـة التكتلات الاقتصادية الاخرى ، كما يسمح لها ذاتياً بتحقيق نتائج هامـة في مجال التنمية والتطور الاجتماعي والاقتصادي ، والقضاء على أمراض التخلف والتبعية الاقتصادية . ويأتي في مقدمـة تلك الميزات والنتائج الآتي :

١ — اعادة بناء الهياكـل الاقتصادية العربية من خلال التنسيق والتكامل بين اقتصاديات الأقطار العربية ، بما يتيـح بناء قاعدة اقتصادية عربية قوية ، قادرة على مواكبة النمو والتطـور والتقـدم العلمي في العالم ، وعلى اللحاق بركب الأمم الأخرى المتطورة .

٢ — تصحيح مسار التنمية الاجتماعية والاقتصادية في العديد من الاقطار العربية بما يجعلها في خدمة الانسان العربي ومستقبله الأفضل ، بدلا من أن تكون تابعة للاحتكارات وتعمل على مساعدتها لزيادة سيطرتها واستغلالها للشعوب النامية .

٣ — توفير القدرة والقوة اللازمتين للمفاوضة والمساومة على المستوى الدولي ، وبمواجهة التكتلات الاقتصادية الأخرى ، بما يحفظ حقوق ومصالح الاقطار العربية ، ويمنع الاستنزاف الذي تتعرض له في الوقت الحاضر بسبب تجزئتها وتخلفها الاقتصادي ، واضطرارها التساهل أو الخضوع أحيانا لسيطرة الدول الاخرى وتكتلاتها الاقتصادية تحت وطأة الحاجة لمساعدتهـا ومعوناتها الاقتصادية أو الفنية أو العسكرية .

٤ — تغيير البنية الهيكلية للصادرات والمستوردات العربية تلبيـة لحاجـات ومتطلبات السوق المشتركة فيما بينها ، ونتيجة لقيام مشاريع انتاجية جديدة تتطلب توفير الآلات والمعدات اللازمة لهـا والمواد الأولية الضرورية لانتاجهـا ، كما تؤمن الحصول على أنواع جديدة من المنتجات كانت الاقطار العربية تحصل عليهـا من البلدان الأجنبية .

٥ — اعادة توزيع التجارة الخارجيـة لبلدان الوحدة الاقتصادية العربية ، في ضوء

العلاقات الجديدة التي تنشأ في ظل هـذا التكتل العربي ، سواء بينه وبين البلدان العربية الأخرى غير الأعضاء فيه ، أو مع البلدان الأجنبية والكتل الاقتصادية الاخرى وذلك تبعاً لما يمنحه من ميزات تفضيلية وتسهيلات لبعضها أو يحجبه منها عن بعضها الآخر .

٦ – اتاحة ظروف ومناخ جديد لنشاط ونمو الاستثمارات العربية من خـلال اتساع ونمو القاعدة الانتاجية وازدياد الطلب في السوق الكبيرة التي تحققها الوحدة . مما تدفع بأصحاب هـذه الاستثمارات للعزوف عن توجيه أموالهم نحو المصارف والمشاريع في الخارج واستغلالها في المشاريع الوطنية .

٧ – توفير القاعدة الاقتصادية السليمة من أجـل الصمود والمعركة مـع العدو الصهيوني ، ذلك أن متطلبات المعركة والصمود فيها أكبر من أن تتحملها الموارد المحدودة للأقطار العربية منفردة ، وهي في حالة التخلف الاقتصادي الذي تعيشه . وان من شأن اعادة بناء الهيـاكل الاقتصادية العربية من خـلال التنسيق والتكامل بين اقتصادياتها ، توفير مصادر جديدة واكثر تدفقاً للموارد التي تحتاجها هذه الأقطار في صمودها ومعركتها .

٨ – اعطاء الفرص الكافية لليد العاملة العربية المتعطلة في البلدان العربيـة الوافرة لديها للعمل في سوق كبيرة تتطلب أعداداً متزايدة من هذه الايدي نتيجة قيام مشاريع عديدة وكبرى فيها . مما لم يكن متوفراً من قبل .

سادساً – الوحدة العربية أمام التحديات :

لم يعد هنالك مجال للشك بأن العالم يسير في حل قضاياه ومشكلاته نحو التعاضد والتكتل في وحدات اقليمية أو دولية ، وفي أدنى الاحوال نحو التعاون الثنائي . ذلك ان التطور والتقدم اللذين تحققا في مجالات العلوم والفنون والانتاج لدى العديد من بلدان العالم لم يعودوا ليسمحا بالانعزال والترقب .

ولقد أصبح واضحاً أن ماتعانيه الأقطار العربية من تحديات على الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية انما سببها حالة التخلف الاقتصادي والاجتماعي التي تعيشها ، والتي لا تستطيع كل منها بقدراتها الذاتية أن تتخلص منها . كما أصبح واضحاً أيضاً أن بقاء هذه الاقطار على الأوضاع القائمة لديها ، من شأنه تعريض مصالحها ومستقبل وجودها لأخطار عديدة ، أقلها أن تصبح أسيرة الأمر الواقع الذي تفرضه عليها الدول الأخرى المتقدمة عليها خصوصاً ، تلك التي اندمجت في التكتلات الاقتصادية ، وأصبحت تتمتع بمزيد من القوة والقدرة على تحقيق مصالحها ولو حتى على حساب الدول الضعيفة . هـذا بالاضافة الى بقاء الانسان العربي في حالة من الفقر والتخلف وعدم اللحاق بركب العالم المتحضر .

وتبعاً لذلك ، وللميزات والنتائج التي يمكن أن تتوصل اليها الأقطار العربية من خلال الوحدة فيما بينها ، فانه لم يعد هنالك مجال للشك بان الوحدة العربية هي الدواء لجميع المشاكل والأمراض التي تعاني منها الامة العربية .

وقد يكون من تكرار القول أن من شأن قيام هذه الوحدة الوقوف في وجه التكتلات الاقتصادية الاخرى ، وتيسير التعامل معها على أسس المصالح المتبادلة والاحترام الكامل لمختلف الاطراف .

ان هذه الحقيقة حرية بأن تثير التساؤل أكثر من مرة ومن أكثر من جهة ، من أنه قد مضى على ابرام اتفاقية الوحدة الاقتصادية بين عدد من الدول العربية نحو ثماني سنوات دون أن تبلغ الاهداف التي تنشدها ، فهل ذلك يعود لقصور ذاتي أو للاسباب في التنفيذ ؟؟

وفي اعتقادنا أنه من أجل القاء اللوم على اتفاقية الوحدة الاقتصادية فانه لابد من أن تطبق نصوصها وتحترم أحكامها حتى يلقى اللوم عليها في عدم بلوغ الاهداف التي تنشدها والواقع العملي يشهد بأن تطبيق تلك النصوص والاحكام قد أبرز بشكل لا لبس فيه أو غموض أن بعض الدول الاعضاء لم تقم بتنفيذ تلك الاحكام أو القرارات الصادرة لتحقيق تلك الاهداف ، وبالتالي فان القصور يتعلق بالاسلوب وليس في النصوص .

وهنا يحق التساؤل عما اذا كانت هذه الاقطار قد استطاعت ان تحقق نتائج أفضل من خلال واقعها الحالي المتمثل بالتجزئة والتخلف بل وحتى تبعية معظم الاقتصاديات العربية لاقتصاديات الدول المتقدمة صناعياً؟ ولعل معدلات التنمية المتدنية ، وبطء ازدياد معدلات الدخل الفردي والقومي في هذه الاقطار تعطي الجواب الكافي على هذا التساؤل . كما أن انخفاض قدرة هذه الدول على المفاوضة والمساومة مع التكتلات الاقتصادية والدول الأخرى ، يمكن أن يتبدى بوضوح فيما حصلت عليه بعض هذه الدول منفردة من ميزات هزيلة في تعاملها مع السوق الاوربية المشتركة أو مع غيرها من كتل وبلدان أخرى .

وما من شك أن هذا الواقع بكل جوانبه ومعطياته كان له أبعد الاثر في تصميم الاقطار الثلاثة : سورية ، مصر ، ليبيا ، على تحقيق الوحدة العربية فيما بينها ، من خلال قيام اتحاد الجمهوريات العربية كمرحلة على هذا الطريق ، ومن البدء بالخطوات التنفيذية اللازمة لجعل هذه الوحدة حقيقية قائمة بين هذه الاقطار ، ونموذجاً مفتوحاً أمام الاقطار الاخرى للانضمام اليها وتوسيع قاعدتها ، وترسيخ جذورها بما يخدم الامة العربية جماء على دروب التحرير والتطور والنمو .

ومع هذه الخطوات ، يبقى المواطن العربي يتابع باهتمام بالغ النتائج التي تحققها أية حركة وحدوية . ولن تتبدى هذه النتائج بدون العمل المتواصل والدؤوب والاحترام البالغ للمبادىء والشعارات التي أقيمت الوحدة على أساسها وبهدي منها .

نعيم قدّاح

الاتحاد الثلاثي جسر جديد بين العرب وافريقية

هل يمكن أن نتجاهل أن هناك قارة افريقية شاء القدر أن نكون فيها وشاء أيضاً أن يكون فيها اليوم صراع حول مستقبلها وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا سواء أردنا أم لم نرد .

من كتاب فلسفة الثورة
لجمال عبد الناصر

كثيرة هي الصلات والوشائج بين العرب وافريقية ، فهي تاريخية جغرافية حضارية ثقافية ، اقتصادية ، سياسية ويمكن القول ان العلاقات بين العرب وافريقية تعتبر خاصة وهي التي دعت الرئيس الراحل عبد الناصر في كتابه فلسفة الثورة الى اعتبارها الدائرة الثانية في الاهمية بعد العروبة في مجال التحرك المصري .

كان العرب والافريقيون على موعد في لقاء القدر الحضاري منذ القرن العاشر الميلادي. وكانت الحضارة العربية المستندة الى تعاليم الاسلام هي التي حملت تيارات الثقافة العربية الى افريقيا ، ولقد سلكت الحضارة العربية الاسلامية طرقاً مختلفة الى القارة الافريقية اهمها ثلاث :

الأولى : الهجرات العربية المتقطعة التي وصلت الى افريقية الشرقية من سواحل عمان وجنوب الجزيرة العربية من القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر .

الثانية : الاشعاع الثقافي العربي الذي اتجه من مصر عبر واحات الصحراء الكبرى ووادي النيل .

الثالثة : انسياح عدد من الرعاة العرب المسلمين من شمال افريقية باتجاه غربي القارة .

واتسم اللقاء العربي الافريقي في كل مكان مر به بسمات جعلت الكثيرين من مؤرخي الغرب على الاعتراف بان صلات العرب بافريقيا انما كانت اول لقاء مفيد مثمر ايجابي لافريقيا بالعالم الخارجي .

فلقد شهد الافارقة ، خلال عصور الظلمة في اوربا ، التجار العرب والدعاة والمعلمين يحملون الى بلدانهم المعرفة والعلم والاخاء والمساواة والتعلق بالحرية وكان هؤلاء العرب باعتراف الافارقة ، مثلا يحتذى في الاخلاق الانسانية ، لذا فقد اشتد اقبال الافارقة على الاسلام بما يحمله من حضارة بنساءة . فاذا بالمساجد تشاد واذا بالمراكز الثقافية الاسلامية تتسع ، واذا بالمدن مثل طومبوكتو (في مالي) تقام على طرق القوافل القادمة من مصر والمغرب .

ويذكر التاريخ ان الصحراء كانت موئلاً لعدد كبير من المراكز الثقافية العربية التي مازالت آثارها ماثلة للعيان .

وفي الوقت الذي كان الاوربيون يسعون فيه الى تقصي سبل المعرفة كان الافريقيون في طريقهم الى الاراضي المقدسة يرحلون الى مراكز الثقافة الكبرى في شمال افريقية ومصر ومكة ، ويشهد الرواق التكروري في الجامع الازهر على سلسلة الوفود الافريقية التي قدمت بحثاً عن المعرفة وكانت مدن فاس (المغرب) والقيروان (تونس) وتلمسان (الجزائر) وفزان (ليبيا) ودارفورد (السودان) وزنجبار وكلوة (تانزانيا)

معاهد كبرى تعلم فيها الكثيرون من الافارقة ليعودوا الى بلدانهم رواداً وأئمة للحضارة والثقافة .

وقد بلغ انتشار الحضارة العربية الاسلامية شأواً بعيداً وظهر تأثير الثقافة العربية في المؤلفات التي كتبها الافارقة باللغة العربية في السودان الغربي (مالي) وفي نيجيريا مثل :

(التاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش واكابر الناس للقاضي محمود كعت الطنبكتي) و(انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور تأليف الامام احمد بلو بن عثمان) .

أما تأثير العربية فمازال ماثلا حتى الآن في اللغات الافريقية المنتشرة في عدد من البقاع الافريقية كالسواحلية في شرق افريقية والهاوسا في نيجيريا وماجاورها ولغة الفولا في غرب افريقية وكلها كان يكتب بحروف عربية .

ذلكم – باختصار – التفاعل الحضاري العربي في افريقية وتلك هي امجاد العرب في هذه القارة وهي في الوقت نفسه مفاخر أبدية على نوعية الصلات الانسانية للعرب وهي ماعناه الرئيس عبدالناصر ، في الخمسينات ، من علاقات العرب في افريقية ومايعنيه العرب في مجال التقائهم بالحلفاء الاخوة .

غير ان هذه الصورة الزاهية للعلاقات الافريقية قد تعرضت مع حلول وباء الاستعمار في افريقية الى التمزق والتشويه .

كانت الثقافة العربية والتآخي العربي الافريقي أول صرح باشر المستعمرون في هدمه في افريقيا ، فلقد قام المستعمرون والمبشرون باستخدام معاول الهدم الثقافي للتاريخ الافريقي وبدأت سلسلة الكتب الاستعمارية التضليلية تنشر الابحاث عن همجية الشعوب الافريقية وعن بدائيتها ، ووضعت النظريات حول السبق الاوربي في حمل المدنية الى افريقية التي كانت ، حسب مزاعمهم ، بلا تاريخ وبلا ثقافة ، وفي قطع الصلات التاريخية والحضارية بين العرب والافارقة ، وطمست معالم الثقافة الافريقية الاسلامية عن طريق نهب المكاتب الافريقية. وحذفت أسماء العلماء الافارقة من التاريخ ووضع بدلا عنها كرومويل وروسو ، وحيل بين الافارقة والاتصال بالوطن العربي ، ووضعت العراقيل أمام كل من يريد العلم في غير اوربا .

فبعد ان كانت السنغال مأوى لعدد من العلماء الافارقة ، امضت مايقارب ثلاثمائة عام دون ان يكون من ابنائها جامعي واحد .

واوعز المستعمرون وعملاؤهم المبشرون في نزع الصفات الحضارية الاسلامية الافريقية . وأوحوا لعملائهم بضرورة الاستغناء عن منهل الحضارة العربية والتوجه نحو الغرب وساعدوا

المحاولات التي جرت لكي تكتب اللغات الافريقية بالحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية ، بل انهم شجعوا اللغات الشفهيـة للأقليات القبلية امعاناً في تهديم المجتمع الافريقي الذي كان ينعم بالاخاء والوحدة والمساواة في ظل الحضارة العربية الاسلامية .

والان بعد ان تحرر العرب والأفارقة من ربقة الاستعمار فان عليهم ان يفتشوا عن اسباب التـلاقي ، وعليهم ان يعوضوا عن القطيعة التي اصطنعها الاستعمار ، ان عليهم أن يتلاقوا متساندين في ميدان العلاقات المجدية واللقاءات المثمرة .

وان مثل هذا الامر ليس باليسير ، ذلك ان مخلفات الاستعمار في افريقية مازالت تقوم هنا وهناك بشكل ظاهر أو خفي .

فلقد غرس المستعمرون في نفوس كثير من حكام افريقية ان هناك تناقضات بين افريقيا الناطقة بالعربية وافريقية الناطقة بغير العربية ، وقـد اعتبر البعض العرب وافدين على القارة ، ولقد استغل الاستعمار الجديد والصهيونية هذه الفرصة الخبيثـة واتخذها سلاحاً لمقاومة الدبلوماسية العربية عن طريق الايحاء بأن العرب يريـدون أن ينقلوا قضاياهم الى افريقية ، ومما يزيد مهمة العرب صعوبة أن كثيراً من الدول الافريقية المستقلة تعتقد أن اسرائيل دولة صغـيرة آسيوية غير استعمارية وهي نموذج للاشتراكية

فماذا فعل العرب حتى الآن لعودة الاخاء التاريخي بين العرب وافريقية ؟

ان الضمير القومي يقودنا الى الاعتراف بالحقيقة الموضوعية وهي ان العرب قاموا حتى الآن بجهود هائلة في مضمار العلاقات مع افريقية وان الجزء الاكبر من هذا المجهود قد وقع على مصر .

ان مصر منذ القرون الوسطى قد قامت بدورها كاملاً في مساعدة افريقية وان البعوث الازهرية الى بعض الانحاء الافريقية ووفود الطـلاب الى الازهر الشريف شاهد كبير على ذلك .

وما ان اطل فجر الاستقـلال حتى توسعت مصر في القيام بدورها في افريقية فقدمت المساعدات الى جميع حركات التحرير ومازال كما انها تستمر في ارسال البعوث التعليمية وتفتتح المراكز الثقافية وتقدم المنح الدراسية للالاف من الطلبة الافارقة وتعقد مصر اتفاقيات اقتصادية مع اكثر الدول الافريقية ، وترتبط باتفاقيات للمعونة الفنية والثقافية ، مع عدد من الدول بينما تقيم علاقات دبلوماسية مـع ٢٥ دولة افريقية .

واذا كانت مصر سباقة في هذا الميدان فذلك لأنها بحكم موقعها الجغرافي ودورها التاريخي ونهضتها الحديثة قادرة على تغطية

جزء ضخم من المجهود العربي في افريقية مع عدم الاخلال من اهمية الجوانب العربيـة في هذا الصدد .

ومنذ أوائـل الستينات نجد التواجد العربي في أفريقية أمراً واقعياً وشاملاً وأخذ الرأي العام الافريقي يؤمن تدريجياً بالكفاح المشترك ضد الاستعمار الاستيطاني العنصري في كل من روديسيا وجنوب افريقية واسرائيل والمستعمرات البرتغالية وتوسعت أرضية التعاون العربي الافريقي ووقف الكثير من دول افريقية الى جانب العرب في المؤتمرات الدولية وحققت من جراء ذلك الدبلوماسية انتصارات قيمة .

الا ان قيام الاتحاد الثلاثي للجمهوريات العربية في العام الماضي أو أي اتحاد آخر قد يقوم به العرب ، قـد طرح مسؤوليات جديدة ، في مجال الدبلوماسية العربيـة في افريقية وفي القيام بمبادهات أخرى بطبيعة موقعه وأهدافه مما نوضحه فيما يلي :

١ — ان الاتحاد الثلاثي ثقلا افريقيا في الامتداد الجغرافي والسكاني لدولتي ليبيا ومصر وهو بهـذا مؤهل ليكون احـد الجسور الهامـة في العـلاقات العربية الافريقية .

بهذه الصفة سيعتبر الاتحاد امثولة للجماهير الافريقية المتطلعة الى الوحـدة وتجربة جديدة بعد اتحاد تانجانيقا وزنزبار باسم تانزانيا المتحدة .

٢ — ان اهتمام الاتحاد بافريقية سيزداد ويتطور بالادوار التي تقوم بها حاليا دوله الثلاث فمصر كانوهنا ، ماتزال الدولة العربية الاولى في الوجود العربي في افريقيـة . وسورية الثورة قد بدأت منذ عام ١٩٦٥ تقيم العلاقات مع افريقية فأنشأت عددا من السفارات في عدد من الدول الافريقية وما زال تمثيلها يتوسع في هذه القارة وعقدت معها بعض الاتفاقيات التجارية واستقبلت كثيرا من الوفود الافريقية وقدمت عددا محترما من المنح للطلاب الافارقة .

اما ليبيا ، فقد حققت ثورتها انتصارات القضية العربية لدى جيرانها في الدول الافريقية كالنيجر وتشاد واوغندا ، ولقد اعـاد مجهودها في الذاكرة ماكان يقدمة عرب ليبيا من اعمال لنشر الثقافة العربية الاسلامية عن طريق المدارس والزوايا التي تخرج منها عدد كبير من الدعاة الى الاسلام والعلمـاء الافارقه الذين كانوا نواة النهضة الثقافية في واحات الصحراء الكبرى والمراكز الثقافية في مدن وادي النيجر الاوسط وشمال نجيريا ومنطقة تشاد .

٣ — ان الاتحاد الثلاثي للجمهوريات العربية حشد هائل للطاقات والقدرات المتكاملة التي تستطيع ان تقدم لافريقية كل امكانية

الوجود العربي في ميادين التطوير والتعليم والانشاء وليس من شك في ان التجربة الجديدة التي خاضها الاتحاد الثلاثي في مساندة اوغندا امام التهديدات الاسرائيلية كانت تطبيقا عمليا على ما يمكن ان يقدمه الاتحاد العربي لافريقية .

من هذا يتبين لنا ان دور الاتحاد الثلاثي في افريقية اساسي وطبيعي ومعقد الامال والرجاء لانه يستطيع طبقا لاهدافه ان يحقق كل ما من شأنه تعزيز قوة العرب وكسب الاصدقاء لمعاركهم السياسية .

ان ميدان افريقية مفتوح امام انتصارات جديدة على الصعيد الديبلوماسي ذلك ان هذه القارة لم تتخذ موقفاً نهائياً في قضية العرب الأولى ، فلسطين ، وما زالت مواقف الدول الافريقية تتطور منذ العدوان الاسرائيلي من عدم الاهتمام الى الحياد ، الى التفهم الى المشاركة والتفاعل .

وان القرار الذي اتخذته احدى وأربعون دولة افريقية (ثلث الامم المتحدة) في مؤتمر القمة الافريقي الذي عقد في الرباط في حزيران عام ١٩٧٢ ليدل على ان الدول الافريقية قد أخذت تتجه الى اعتبار معركة العرب التحررية ضد الصهيونية معركتها ، كما هي حال العرب حينما يؤيدون الافارقة ضد الاستعمار والاستيطان العنصري .

ان موقف افريقيا الأخير ، يهيب بالعرب وبالاتحاد الثلاثي ـ نواة دولة الوحدة المرتقبة ـ أن يولوا مزيداً من مجهودهم للتواجد في افريقية .

وليس ذلك بعسير بعد أن انكشفت مؤخراً – في انحسار النفوذ الاسرائيلي في اوغندا – اساليب الضغوط والابتزازات الاسرائيلية التي تمارسها الصهيونية من وراء المساعدات الاسرائلية لافريقية .

ولقد ذكرت صحيفة هآرتس بتاريخ ١٩٧٢/٣/١٧ ان على الرأي العام الاسرائيلي ان يتخلص من أوهام ثلاثة ، في المساعدات لدول افريقية :

١ – ان نطلب العرفان بالجميل لمساعداتنا عن طريق التصريحات (من المسؤولين الافارقة) أو عن طريق التصويت (في الهيئات الدولية ضد العرب) .

٢ – ليس صحيحاً ان اسرائيل لاتجني فوائد من المساعدات ، وان الفوائد كبيرة مقابل الاستثمارات .

٣ – لا تقدر المساعدات الاسرائيلية بالاموال الطائلة ، فنحن لا نصرف في هذا المقام الا حوالي ٣٠ مليون ليرة استرلينية سنوياً .

ان الاسرائيليين يعترفون بانهم حصلوا من افريقية على فوائد تحت ستار الدعاوة

لساعداتهم، وجنوا مواقف هامة من المبالغ القليلة التي صرفوها تحت ستار مايسمى بمساعدة افريقية التي تبين انها خرافة .

فهلا تـدبر العرب مبررات وجودهم في افريقية فلديهم القدرة على تقـديم المعونات غير المشروطة غير التجـارية بمبالغ تفوق أضعاف ماتقدمه اسرائيل في افريقية .

ولدى العرب في هـذا السبيل المساندة الهائلة من العلاقات التاريخية والصلات الثقافية والكفاح المشترك ضد عدو واحد هو الاستعمار والاستيطانية المتمثلة بالصهيونية والعنصرية، وهي مساندة ستستنهض همم الافارقة الاحرار للقاء اخوانهم العرب في النضـال من أجل تحرير افريقية من النظم العنصرية الاستيطانية التي تقوم بالعدوان في جنوب القارة وفي شمالها الشرقي .

الدكتور هشام سمعان

التكامل الإقتصادي بين أقطار دولة اتحاد الجمهوريات العربيّة

ان طاقات الامة العربية ضخمة وكبيرة ، وهي قادرة على تحقيق النصر . وعلينا أن نبذل جهوداً مثمرة ودائمة لايجاد الصيغ التي تضمن وضع هذه الطاقات الضخمة لخدمة هذه الامة ولحرية هذه الامة ولكرامة هذه الامة .

ان الصيغة التي تحقق ما نطمح اليه هي صيغة الوحدة العربية ، هذا الهدف الكبير الذي سعت اليه أجيالنا المتعاقبة والذي ضحى من أجله الكثيرون واستشهد من أجله الكثيرون ، هذا الهدف الكبير اذا ماتحقق فسيحقق لنا النصر وسيحقق لنا العزة والكبرياء .

الفريق حافظ الاسد

١ – الأصول النظرية لفكرة التكامل الاقتصادي :

تتدرج امكانيات التكامل الاقتصادي بين الدول تصاعدياً من الاتفاقات الثنائية للتعاون الاقتصادي والفني الى اشكال أعلى من التعاون مثل مناطق التجارة الحرة والاتحادات الجمركية والأسواق المشتركة والاتحادات الاقتصادية . وغالباً ما يتم تتويج هذه الخطوات بالوحدة السياسية بين الدول التي انضمت تحت لواء خطوات التكامل . ومن الوجهة النظرية ، تعتبر جميع خطوات التكامل سواء في أوربا الغربية أو امريكا اللاتينية أو الأجزاء الاخرى من العالم ، منحدرة من أصل نظري واحد هو نظرية الاتحادات الجمركية التي كتب عنها كل من جيمس ميد J. Meode ، وجاكوب فانير J. Viner في الخمسينيات ، الأمر الذي دعا بعض الاقتصاديين الدوليين الى اعتبار التعاون الاقتصادي الثنائي خارج نطاق هذه الخطوات . وقد شجع قيام السوق الاوربية المشتركة اعتباراً من اوائل عام ١٩٥٨ كثيراً من الدول النامية على بناء نماذجها في التكامل الاقتصادي على نفس النمط الذي تم اتباعه في السوق المشتركة ، ولكن بدأت الشكوك تتسرب تدريجياً الى امكانية اتباع نمط التكامل في السوق الاوربية المشتركة من قبل الدول النامية .

وقد برز الى الوجود مؤخراً ما يدعى بنظريات التكامل الديناميكية التي تتلاءم مع الأوضاع الخاصة للتكامل في الدول النامية ، وحيث ظهرت فكرة التكامل بصورة حثيثة اول الأمر في الهيئة الاقتصادية لامريكا اللاتينية المتفرعة عن منظمة الامم المتحدة UN . Ecomomic Commission For Latih America بالاضافة الى تجربة الدول العربية في نطاق مجال الوحدة الاقتصادية والسوق العربية المشتركة ثم ما تم منذ عام مضى من قيام دولة اتحاد الجمهوريات العربية الذي سيكون مجال بحثنا هذا .

ولا أحد ينكر بأن نموذج التكامل الذي سارت عليه أوربا الغربية في فترة ما بعد الحرب يعتبر نموذجاً جيداً ، ولكن مايتمتع به اتحاد الجمهوريات العربية من مقومات تفوق في بعض النواحي مقومات السوق الاوربية المشتركة ، يجعل من وحدتنا أكثر تقدماً في بعض النواحي ، وخاصة السياسية ، الأمر الذي سنخصه بقدر كبير من الدراسة والتمحيص في هذا المقال خاصة بعد أن بدأت الشكوك تتسرب الى الحقيقة الكامنة في عدم صلاحية نموذج التكامل الاوربي للتطبيق في الدول النامية .

٢ – نظرية التكامل التقليدية وتطبيقها في الدول العربية :

لقد دمجت نظرية التكامل التقليدية فرضيـة التجارة الحرة التي اتخذت لها أساساً نظرية « ريكاردو » في التكاليف المقارنة Comparative Corts مع نظرية «ليست» التي تطالب بحماية مناطق التجـارة الحرة ، حيث نصت نظرية « ليست » على ضرورة شمول التكامل لعدد محدود من الدول المتجاورة التي تستطيع أن تغلق نفسها الى درجة ما عن العالم الخارجي . ان هذا النموذج من التكامل يجد أساساً له في الفكرة التالية :

إن الغاءالحواجز الجمركية والعقبات الأخرى امام تدفقات البضائع ضمن منطقة التجارة الحرة أو ضمن دول الاتحاد الجمركي غالباً ما يؤدي الى ازاحة المنتجين بتكلفة عالية من قبل منتجين آخرين لنفس السلع بتكاليف أقل ممن يعملون ضد الاتحاد ،الأمر الذي يؤدي الى تنشيط التجارةالداخلية ضمن هذه الوحدة بالاضافة الى زيادةالانتاجية فيها ، الامر الذي يعتبر من أهم عناصر التنمية الاقتصادية ، حيث من المفروض أيضاً أن ينتقل المنتجون الذين تم طردهم من منطقة معينة من مناطق الانتـاج الى نشاط آخر مستخدمين مقدرتهم في الحقول التي تتمتع بفوائد المنافسة .

ان خطوات التكامل هذه نفسها يمكن أن ينتج عنها ضياع في الثروة ، ويمكن أن نضرب مثلا على ذلك بلداً لم يصنع قط سلعة معينة ، وقام دوماً باستيرادها من دولة ثالثة رخيصة وباعتبار أن الدولة عضو في الاتحاد الجمركي ينتجها بأسعار أعلى . ان هذا الاتجاه يقال له الانحراف التجاري ويعتبر خطوة في الاتجاه المعاكس لمجرى المنطق الاتحادي .

إن الوحدات الناجمة هي تلك الوحدات التي يكون لاجراءات التوحيد هذه أثر كبير في زيادة فرص التجارة بين اقطار الاتحاد على أن يكون عدد الانحرافات التجارية التي لا بد أن تحدث قليلا جداً . والسؤال الذي يطرح نفسه الآن : متى تكون ايجابيات الخطوات الاتحادية اكثر من سلبياتها ؟ والاجابة على ذلك تكون بالشكل التالي :

١ – اذا كانت الدول الاعضاء في الاتحاد ذات تجـارة خارجية قليلة بالنسبة للانتاج الوطني .

٢ – اذا كانت الدول المتحدة ذات علاقات تجارية كبيرة أصلا فيما بينها .

ويعتقد كثير من الاقتصاديين بأن هـذين الشرطين لا يتوفران في الدول النامية حيث تقوم معظمها بتصدير جزء كبير من انتاجها المحلي الذي يتركز بصورة خاصة في

المواد الخام حيث فرضت الظروف التاريخية المتشابهة التي مرت بها الدول النامية نتيجة السيطرة الاستعمارية لعدة قرون ، تشابه المنتجات القابلة للتصدير في هذه الدول .

ومن هنا نجد أن المشكلة في الدول النامية ليست في توزيع المصادر المتوفرة وانما في تنمية المصادر المحلية والتصنيع والاستفادة من حسنات السوق الواسعة التي يتم ايجادها بواسطة الاتحادات مع خلق فرص الانتاج الجديدة بواسطة سياسة التوحيد المخططة التي تقوم عادة هذه الدول بوضعها ، هذا علماً بأن الأبحاث التفصيلية الدقيقة سواء على مستوى كامل الاقتصاد أو على مستوى المشروع الواحد تعتبر ضرورية جداً للوصول الى سياسة اتحادية رصينة ، سيما واننا نعيش في عصر التكتلات الاقتصادية الكبرى حيث لا مكان للاتجاهات الانعزالية الاقليمية والكيانات الاقتصادية الصغيرة .

٣ — التكامل الاقتصادي والوحدة السياسية :

يبدو للمراقب المتتبع لقيام الوحدات الاقتصادية والسياسية الحديثة في العالم أن هذه الوحدات تبدأ عادة بخطوات التكامل الاقتصادي حتى غدا لكثير من المفكرين في العالم العربي أن كل نموذج التوحيد يجب أن يكون على غرار ما تم في القارة الاوروبية سواء السوق الاوروبية المشتركة أو منظمة التعاون الاقتصادي المتبادل (الكوميكون) . وقد نمى هؤلاء أن الاهداف النهائية لخطوات التكامل الاقتصادي هذه هي الوصول بالقارة الاوروبية الى الوحدة السياسية ، ولعله من المفيد هنا ان نسرد تطور خطوات التوحيد في أوربا ، محددين معالم طريقها الاساسية ومقوماتها لمقارنتها بمقومات وحدتنا العربية وطرق ووسائل تحقيقها، وذلك للاستفادة من الاسس النظرية والتجربة العملية التي مرت بها هذه القارة مع الاشارة الى تجربة التوحد التي تمت بين الولايات في امريكا الشمالية وأدت الى قيام الولايات المتحدة الامريكية .

الاتجاهات الوحدوية الحديثة في اوربا :

لئن ظهرت الاتجاهات لتحقيق اوربا الموحدة بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، فان دوافعها الأساسية ترجع بعيداً في التاريخ ، الى الميراث الثقافي المشترك الذي تتابع في هذه البقعة من العالم منذ عصور اليونان والرومان . وقد كان التجسيد الأول للوحدة الاوروبية هو تأسيس الامبراطورية الرومانية رغم ما رافقه من حروب وغزوات وما تبعه من وصاية للسلطات الكنسية البابوية ونشر مفهوم الامبراطورية الرومانية المقدسة .

ولكن مع بزوغ عصر النهضة ، حلت المنازعات والتمرد على سلطة الكنيسة محل الوحدة الدينية لتميز القرنين السادس عشر والسابع عشر بحروب متعددة قامت بين دول أدت الى خلق دول ودويلات تزايد فيها تدريجياً الشعور القومي . الا أن هذا التشتت وهذه التفرقة استدعيا ظهور دعوات المفكرين الى الوحدة الاوربية منذ عام ١٥١٧ ، كما شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر موجة قوية من موجات المطالبة بالوحدة عندما تبنت معظم الأحزاب الاشتراكية فكرة أوربا المتحدة رغم ما نصت عليه مبادىء الماركسية من ان القومية مرض من أمراض المجتمع الرأسمالي .

وبعد الحرب العالمية الأولى نادى بعض المفكرين الفرنسيين والنمساويين بضرورة ايجاد وحدة فيدرالية في أوربا ضمن عصبة الأمم التي تأسست عقب هذه الحرب . ولكن هذه الأفكار لم تصمد أمام الاتجاهات الوطنية النازية والفاشية وظهور الأزمة الاقتصادية الدولية في الثلاثينيات من هذا القرن .

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية نادى كل من الحلفاء والمحوريين (النازيين:الفاشيين) بفكرة أوربا المتحدة كوسيلة لتدعيم مركزهما ، فقد كانت الفكرة سنداً للنازيين الذين قالوا بضرورة الوحدة الأوربية للوقوف في وجه الشيوعية ، ووسيلة من وسائلهم لجذب الناس للتعاون معهم في الأراضي التي احتلوها . ومن ناحية ثانية نمت هذه الفكرة في صفوف القادمين للاحتلال على أساس ضرورة تحقيق «دولة» اوربا الديمقراطية «المتحررة» مما أسبغ على هذه الفكرة صفة المطلب الشعبي كما نادى بها رؤساء الحكومات التي تم تشكيلها في المنفى أثناء فترة الاحتلال .

ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية ، حز في نفس الغزو الاوربي كون الدول الفعالة في العالم آنذاك هي الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتي وانحسار دور بريطانيا كدولة عظمى وشبه انعدام دور بقية الدول ، كما ظهرت بنتيجة تأثير الحرب العالمية الثانية النفسي اتجاهات في المحافل السياسية والجامعية والعلمية تقلل من أهمية السيادة القومية بعد أن فقد المواطنون ثقتهم بوطنيتهم وقوميتهم الضيقة كما فقدوا الثقة بأنفسهم وبممثليهم العليا . وقد اختلف الأمر بالنسبة لانكلترا التي خرجت آنذاك فخورة بنظمها السياسية والاقتصادية لذلك لم تظهر فيها هـذه التيارات وانما تأخر ظهور الاتجاه الاوربي فيها سنوات متعددة حيث لعبت في هذا الموضوع عوامل أخرى فيما بعد ، منها ازدياد نفوذ رؤوس الاموال الامريكية في هذا البلد وشعور الفرد فيه بضرورة ايقاف هذا التدخل

الذي لم يكن يعرف الحدود . أما في دول أوربا الشرقية فقد كانت فكرة الوحدة الاوربية على أشدها بعد انتهاء الحرب ، وقد تجلت بتأسيس عدد من الجمعيات ذات الاهداف الاجتماعية والثقافية واللغوية ، وأدت ضرورة انسجامها مع المبادىء الماركسية الى تحويلها من الاهداف الاوربية الى الاهداف العالمية مثل منظمة اللغة العالمية (سبيرانتو)، ورغم ذلك فقد تبلورت هذه الافكار لتنعكس في اطار اقتصادي هو مجلس القارة الاقتصادي المتبادل (الكوميكون) في أوائل الخمسينيات ، والمطالبة بعقد مؤتمر للامن الاوربي في أواخر الستينات ، ولكن مالبثت أن عادت في الستينات الى النطاق الاوربي من المطالبة لجعل اوربا منطقة غير نووية ثم الى المطالبة بعقد مؤتمر أمن أوربي لبحث قضايا نزع السلاح التقليدي في القارة ووضع أسس التعاون الاقتصادي والتجاري والثقافي والعلمي بين اوربا الاشتراكية واوربا الرأسمالية تمهيداً للتقارب السياسي وما قد يتبع ذلك من انشاء مؤسسات دولية جديدة تضع قواعد قانونية حديثة لتنظيم علاقات جديدة بين جميع الدول الاوربية على اختلاف نظامها ومفاهيمها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

وقد كانت التيارات الوحدوية في أوربا الغربية بعد الحرب مختلفة الحدة بين المطالبة باتحاد فيدرالي يلغي كل آثار السيادة القومية للدول ويتركز في حكومة اوربية واحدة ، والمطالبة باقامة اتحاد لايلغي السيادة للدول المنظمة اليه . وقد كانت هذه الاتجاهات صلبة كما كانت مقاومتها أصلب ، مما جعل الميل ، بعد محاولات وحدوية كثيرة فاشلة ، متجهاً نحو الاقتصاد على أمل أن تجد هذه التيارات في ميدانه مايحقق لها غايتها المنشودة .

وقد كان تأسيس الهيئة الاقتصادية الاوربية ECE

(Economic Commission For Europe)

بعد الحرب مباشرة ومباشرتها العمل في آذار سنة ١٩٤٧ أول تجسيد واقعي للأفكار الوحدوية الأوربية بعد الحرب ومن خلال منظمة الأمم المتحدة وذلك على مستوى القارة باكلها . ولكن دخول الولايات المتحدة الاميركية مع الاعضاء المؤسسين ورفض الاتحاد السوفييتي استلام المساعدات الاميركية بموجب خطة مارشال ، أفشل هذه المحاولة الوحدوية وان كانت هذه المنظمة قد تمكنت من اصدار نشرة سنوية عن الاقتصاد الاوربي استمرت حتى الآن (وبهذه المناسبة نريد الاشارة الى أنه لاتتوفر الآن نشرة اقتصادية

شاملة عن الدول العربية جميعها) ، مما أدى الى نشوء كتلتين اوربيتين منفصلتين هما المنظمة الاوربية للتعاون OEES

Orgamization For European Economic Cooperatian

للاشراف على تنسيق تقدم المساعدات الاميركية الى الدول الاوربية لاعادة إعمارها وتنسيق بعض أمور التجارة والمدفوعات بين هذه الدول (وقد تحولت هذه المنظمة فيما بعد أي في عام ١٩٦٠ الى منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OEC

(Organization for Economic Cooperatian and Development)

واصبحت تضم بالاضافة الى دول اوربا الغربية ، كنـــدا والولايات المتحدة وجنوب افريقيا « العنصرية » واليابان، والكتلة الثانية التي اصبحت تضم الاتحاد السوفييتي ودول اوربا الشرقية هي COMECON .

The Council For Mutuol Economic Cooperation

أي مجلس التعاون الاقتصادي المتبادل ، وقدتم تأسيسه عام ١٩٤٩ كما سبق وقلنا على أثر تأسيس المنظمة الأوربية للتعاون الاقتصادي ورفض الاتحاد السوفييتي للمساعدات الاميركية بموجب خطة مارشال .

وفي عام ١٩٥٠ اقترح موريس شومان وزير الخارجية الفرنسية ، تأسيس سوق مشتركة للفحم والفولاذ تشترك فيها الدول التي تقبل أن تتنازل عن سلطاتها على هـذا القطاع باعطائها الى سلطة مركزية اقليمية وذلك بدافع الحاجة الى اطار اوروبي اقتصادي وسياسي ولتجنب أي نزاع فرنسي الماني قد ينشأ في المستقبل . وبعد أن أبدت كل من المانيا وايطاليا ودول (البينيلوكس) (هولندا ، بلجيكا ولوكسمبورغ) موافقتها على هذا الاقتراح تم توقيع الاتفاقية في عام ١٩٥١ بتأسيس المجتمع الأوربي للفحم والفولاذ حيث نصت هذه الاتفاقية على :

١ — الغاء جميع الرسوم الجمركية والعقبات الاخرى امام انتقال هاتين المادتين بين الدول الاخرى .

٢ — وضع القواعد لمراقبة الاحتكارات .

٣ — وضع القواعد لتنسيق معدلات النقل .

٤ — مراقبة انتاج هاتين المادتين واسعارهما .

وقد عملت هذه المنظمة بنشاط لغاية ١٩٥٨ حيث انهارت امام منافسة البترول لمادة الفحم في مختلف الاستخدامات ، وذابت هذه المنظمة في منظمة السوق الاوربية المشتركة التي سنتكلم عنها فيما يلي :

السوق الأوربية المشتركة

مع انتهـاء مشروع مارشال لاعادة اعمار اوربا وبدء الاستثمارات الاميركية الخاصة بتحويل مبالغ كبيرة من الفوائد والارباح ، ازداد العجز في ميزان المدفوعات لجميع دول اوربا الغربية مما دفع هذه الدول لاقامة نظم للمدفوعات فيما بينها وفرض القيود الجمركية ونظم حصص الاستيراد (الكوتا) . وطالبت جميع هـذه الدول بمعالجة جماعية لمشاكل السياسة الجمركية ، فتم اعتباراً من عام ١٩٥٥ تشكيل ثلاث لجان لدراسة الامور التالية :

١ — لجنة دراسة الوسائل الكفيلة بتجميع موارد الثروة في اوروبا .

٢ — لجنة انشاء سوق اوروبية مشتركة .

٣ — لجنة الاتحاد الجمركي الاوربي .

وعندما اتخذت تقارير هذه اللجان شكلها النهائي ، وافقت جميع الدول الداخلة في اتفاقية المجتمع الأوربي للحديد والفولاذ على توقيع اتفاقية السوق المشتركة في ٢٥ آذار ١٩٥٧ على ان تصبح سارية المفعول اعتباراً من اول عام ١٩٥٨ .

ولعل أهم ما ترتب على هذه الاتفاقية هو :

— الغاء التعريفات الجمركية بين الدول الاعضاء على مراحل يتم في نهايتها وضع تعرفة جمركية موحدة تطبق في جميع البلدان على الواردات من خارج السوق .

— وضع سياسة زراعية مشتركة تشتمل أيضاً تثبيت مستويات عامة لأسعـار الحاصلات الزراعية .

— انشاء صندوق عام للزراعة للتعويض على المزارعين وحمايتهم من تقلبات أسعار حاصلاتهم العالمية .

— حرية انتقال عوامل الانتاج : العمل والخدمات ورأس المال .

— تنسيق النظم الضريبية على القيمة المضافة في كل دول السوق وتنسيق السياسات النقدية والمالية والاقتصادية العامة .

- وضع برامج اقتصادية طويلة ومتوسطة وقصيرة المدى .
- وضع سياسة مشتركة لقطاعي النقل والطاقة .
- تنسيق السياسات الاجتماعية وبصورة خاصة نظم العمل والتأمين .

وقد سارت السوق في تنفيذ برامجها سيراً جيداً اثبت نجاح هذه المجموعة في معالجة امورها بطريقة مشتركة ، مما ادى في الفترة الأخيرة الى توسيع السوق وضم عدد من البلدان الأخرى اليه . وهي بريطانيا والنروج والدنمارك وجمهورية ايرلندا .

وتعتبر عملية اقامة الوحدة الاقتصادية والنقدية بين دول السوق هي الانجاز الهائل الذي يتم تطبيقه في المرحلة الحاضرة من تاريخ السوق ، حيث سيتم بموجبها تثبيت معدلات تحويل العملات الأجنبية في مصرف مركزي خاص بالمنظمة ، وزيادة التعاون بين المصارف المركزية للدول الاعضاء ، وذلك تمهيداً لاصدار عملة موحدة تساعد على تبني نظام موحد للتكاليف في جميع الدول المنضمة اليها .

منظمة الكوميكون :

أو مجلس التعاون الاقتصادي المتبادل ، وهي منظمة تم انشاؤها عام ١٩٤٩ للاشراف على ترتيبات التجارة وتبادل القروض والمعونات الفنية بين دول اوربا الشرقية . وتضم الاتحاد السوفيتي ، بلغاريا ، تشيكوسلوفاكيا ، هنغاريا ، بولونيا ، رومانيا ، والبانيا التي تركت المنظمة عام ١٩٦١ ، والمانيا الديمقراطيـة اعتباراً من ١٩٥٠ وجمهورية منغوليا الشعبية اعتباراً من ١٩٦٢ ، أما بقية الدول الاشتراكية مثل كوبا والصين وكوريا الشمالية وفيتنام الشمالية فتشترك في اجتماعات المجلس كمراقبة ، وكذلك يوغوسلافيا التي أعلنت اعتباراً من عام ١٩٦٣ عن اشتراكها كمراقبة في هذه المنظمة .

وأهم أهداف هذه المنظمة :

- تنسيق النشاطات الاقتصاديه والعلمية وتقديم الدراسات المالية والاحصائية في حقول الانتاج المختلفة ، وكان أول مهامها تنسيق انتاج الفحم حسب حاجة هـذه الدول له .
- تجنب العزلة الدولية مـع السعي لتثبيت دعـائم الاستقـلال الذاتي الاقتصادي .
- تعميق التخصص الصناعي والقضاء على اتجاهات النمو المتوازي في اقتصاديات الدول الاعضاء عن طريق تعميق تقسيم العمل فيما بينها .

— تنسيق خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية الخاصة بكل دولة من الدول الاعضاء .

— القضاء على معيقات النمو والتغيرات الاقتصادية التي تعاني منها كل دولة من هذه الدول ،

— اقامة شبكة تبادل مدفوعات بين جميع هذه الدول لتحل محل التبادلات الثنائية ،

— اقامة بنك الدول الاشتراكية الدولي .

وقد نجحت هذه المنظمة ايضاً في تحقيق اهدافها كما كانت وسيلة من الوسائل التي رفعت مساهمة هذه المجموعة من الدول في التجارة العالمية .

وقد كانت الوسيلة الأساسية لتحقيق التعاون بين هذه الدول ، مجموعة من نماذج الاتفاقيات ، بعضها يعقد ما بين الصناعات وبعضها الآخر يعقد ضمن الصناعة الواحدة ، وذلك لتحقيق الهدفين الأساسيين من كل خطوة من خطوات التكامل وهما :

١ — تخفيض تكلفة الانتاج .

٢ — تأمين سوق متسعة كبيرة تحتاج اليها معظم الصناعات وبصورة خاصة ما كان منها يعتمد بدرجة كبيرة على الانتاج الواسع .

كما نجحت المنظمة بصورة خاصة في توسيع التعاون بين هذه الدول في قطاعات الانتاج الرئيسية والعلم والتكنولوجيا وتبادل المنجزات في هذه الفروع وذلك للتغلب على عقبة الندرة التي تقف عثرة في طريق كل تقدم اقتصادي . وكان للمشروعات المشتركة التي يتم تأسيسها بشكل تسهم فيه كل دولة من الدول المستفيدة من انتاج المشروع أكبر الأثر في تحقيق أهداف المنظمة والحصول على أحدث أنواع التكنيك والتعاون لتوفير المهارات وتجميعها في كل اختصاص . وعموماً كانت دراسات هذه المشاريع تجري بدقة متناهية لمنع حصول دولة من الدول على فوائد ومصالح خاصة على حساب مصالح بقية الدول المشتركة في هذه الاتفاقيات .

هذا وبالرغم من مواجهة كلا المنظمتين ، الكوميكون والسوق المشتركة ، لبعض العقبات التي اعترضت تنفيذ الاتفاقيات المحددة برامجها بأن النجاحات التي حققتها لجديرة بالاهتمام والتأمل واعادة النظر في سياسات الدول العربية لتسريع خطى التكامل فيما

بينها ، بعد أن رأينا أنه لا مكان للكيانات الاقتصادية الصغيرة في عالم اليوم ، كما أن توسيع السوق المشتركة وتحقيق الصلة بين الأقطار المنضمة اليها سيؤثر على تجارتنا مع هذه الكتلة الدولية ويجعل شروطها لمصلحة السوق أن نحن لم نتخذ الخطوات الوحدوية التي تدعم مواقفنا منها .

أما في الولايات المتحدة الاميركية فقد كان للخطوات السياسية أثر كبير في اقامة هذه الوحـــدة في بدايتها ، ولكن لم تلبث الخطوات السياسية ان أدت بدورها الى ارساء دعائمها عن طريق وضع خطوات الوحدة الاقتصادية موضع التنفيذ ، الأمر الذي يوحي لنا بأهمية الخطوات السياسية في التوحيد ، وعلى أية حال فإن العودة إلى السوق الأوربية المشتركة لتحليل أثر الأهداف السياسية (مثل تجنب نشوب حرب بين المانيا وفرنسا ، والرغبة في خلق قوة ثالثة في اوربا ، واعادة تأسيس اوربا كوحدة سياسية) في تثبيت العزم وترسيخ العمل في طريق التكامل الاقتصادي ، تجعلنا نصطدم بعقبة كبيرة هي صعوبة قياس تأثيرات العوامـــل السياسية وتحديد دورها في تسريـــع خطوات التكامل الأوربية بعد هذا العرض الموجز للخطوات الوحدوية نعيد فنؤكد على :

١ – ان الهدف النهائي منها هو الوحدة السياسية. نسوق هذه الكلمة الى المتباطئين في تحقيق الوحدة العربية وهي انه ان كانت الدول المتقدمة في أوربا قد شعرت بضرورة التوحيد والتنسيق فيا بينها لتحقيق المزيد من التقدم ، فما بال الدول الآخذة بالنمو ، وخاصة الدول العربية التي لديها من مقومات التوحيد ما يفوق ما لجميع الدول التي مر ذكرها والتي خطت خطوات كبيرة في هذا المضمار .

٢ – لقد اندفعت الدول الأوربية في طريق الوحدة الاقتصادية وشكلت المنظمتين التي سبق التكلم عنهما بسبب ظروف موضوعية خاصة فرضها تاريخ هذه المنظمة حيث عانت الدول الأوربية من خلافات مستحكمة فيا بينها ، فلم تنج دولة من دول تلك القارة من احتلال جارتها لها ، ولعدة مرات ، خلال القرون الماضية ، في حين لا يربط بين الدول العربية سوى رباط الوئام والمحبة بين الأفراد المنضوين تحت لواء دول متعددة، الامر الذي يعطي فكرة الوحـــدة العربية عاملاً ايجابياً هامـــاً افتقده الطريق الاوربي للوحدة ، مما يؤهلنا للرد على المطالبين بالسير على الخطوات الاوربية للوحدة في طريق تحقيق الوحدة العربية ويعزز فكرة اقامة الوحدة السياسية وتدعيمها بالوحدة الاقتصادية، خلاف الطريق الاوربي للوحدة .

٣ – ان السير في طريـق الوحدة العربية يقتضي قبل كل شيء الاستفادة من المقومات الذاتية للمجتمع العربي والخاصة بهذا المجتمع ، والمحافظة بشتى الوسائل على مقومات الوحدة في هذا المجتمع ومن ثم الأستفادة من المقومات الدولية وتجارب الامم الحديثة في هذا المضمار .

٤ – مقومات التكامل الاقتصادي بين اقطار دولة الاتحاد

يتبين لنا مما سبق أن هنالك اختلافاً جوهرياً بين الدول الأوربية وبين الدول العربية ، حيث أن الأمة العربية قد انتقلت من مرحلة الوحدة الى مرحلة التجزئة وهي الآن تحاول أن تعود الى وضعها الطبيعي الذي كانت عليه خلال حقبة طويلة من التاريخ ، وأن دولة الاتحاد هي نواة لهذه الوحدة التي تتطلع اليها الاجيال .

ان الوحدة الاقتصادية تؤدي في النهاية الى الوحدة السياسية ، بل هي الطريق الحتمي اليها . وان نظرة سريعة على المكونات الاقتصادية للأمة العربية ولدول الاتحاد بالذات تشير الى وجود تكامل اقتصادي على كافة المستويات .

ويمكن تلخيص مقومات التكامل الاقتصادي بين اقطار دولة الاتحاد بالنقاط الثلاث التالية :

أولاً : العزم السياسي والاتجاه الوحدوي الأصيل .

ثانياً : توفر الموارد الاقتصادية وتنوعها في دولة الاتحاد .

ثالثاً : تشابه النظم الاقتصادية في جمهوريات دولة الاتحاد حيث تأخذ هذه الجمهوريات بنظام التخطيط الاقتصادي الشـامل مما يسهل اتخاذ اجراءات التعاون والتكامل الاقتصادي .

بالنسبة للنقطة الأولى :

لقد رأينا فيما سبق كيف كانت الدوافع السياسية ذات أثر كبير في قيام جميع الوحدات وكيانات التكامل الاقتصادي . كما سبق وذكرنا ما تتميز به الوحدة العربية من وجود تيار سياسي قوي للتوحيد . كما ان الدراسات الأخرى في هـذا العدد من « المعرفة » والتي تتعلق بالجوانب السياسية للوحدة العربية تكفي للدلالة على عمق وأصالة هذا الدافع ، ويجب ان نذكر هنا بأن للعزم السياسي أهمية خاصة على مستوى القاعدة

الشعبية ولكن لم يتهيأ لهذا العزم البروز الى حيز الواقع واتخاذ ابعاده الايجابية إلا عندما توفرت القيادة السياسية العازمة على بناء الوحدة ، تلك القيادة التي تمثلت أهداف الشعب لأنها خرجت منه فعملت على تحقيقها .

أما بالنسبة للنقطة الثانية ،

فغني عن القول بأنه لدى دولة اتحاد الجمهوريات العربية موارد كثيرة طائلة تتنوع بين الموارد الزراعية النباتية والحيوانية والمعدنية ، ومعظمها مستغل جزئياً وليس كلياً ، كما ن الامكانيات متوفرة بشكل واسع لإقامة الصناعات الهامة والتوسع فيها كصناعة الحديد والصلب والبتروكيماويات والأسمدة والغزل والنسيج والورق والسكر وغيرها بالإضافة الى وجود الفنيين على مختلف المستويات وتوفر الخبرات اللازمة للنهضة الاقتصادية .

على مستوى السكان :

يبلغ عدد سكان دولة اتحاد الجمهوريات العربية في ١٩٧٢/٩/١ حوالي ٤٤ مليون نسمة موزعين بين أقطار دولة الاتحاد على الشكل التالي :

جمهورية مصر العربية	٣٥،٢٠٠	مليون	نسمة
الجمهورية العربية السورية	٦،٧٠٠	«	«
الجمهورية العربية الليبية	٢،١	«	«
المجموع	٤٤،٠٠٠	«	«

أما معدلات تزايد هؤلاء السكان فهي ٢٥،٤ بالألف في مصر و ٣٢٠٧ بالألف في سورية و ٣٦٠٦ بالألف في ليبيا وبذلك يكون المعدل الوسطي لتزايد السكان في دولة الاتحاد بكاملها حوالي ٢٧ بالألف أي أن كل الف نسمة من هؤلاء السكان يزدادون ٢٧ نسمة زيادة صافية خلال عام واحد .

وبتوزع هؤلاء السكان في دولة الاتحاد بنسبة ٤٠٠٥ بالمائة من سكان حضريين و ٥٩٠٥ بالمائة سكان ريفيين . وتختلف هذه النسبة من قطر الى آخر فبينما تبلغ في مصر ٤١٠١ بالمائة حضريين و ٥٨٠٩ بالمائة ريفيين فهي في سورية ٤٠٠٠ بالمائة حضريين و ٦٠ بالمائة ريفيين أما في ليبيا فلا تتجاوز نسبة السكان الحضريين ٢٧٠١

بالمائة بينما تبلغ نسبة السكان الريفيين ٧٢،٩ بالمائة وهكذا نجد ان عدد السكان الريفيين في هذه الدولة موزع على الشكل التالي :

عدد السكان الريفيين

جمهورية مصر العربية	٢٠،٧٥٢	مليون نسمة
الجمهورية العربية السورية	٤،٢٠٠	مليون نسمة
الجمهورية العربية الليبية	١،٥٣١	مليون نسمة
المجموع	٢٦،٤٨٤	

وعلى مستوى الارض :

تبلغ مساحة دولة اتحاد الجمهوريات العربية ٢٩٤٦١٧ ألف هكتار كان منها في عام ١٩٦٨ ١٧٧٦٠ ألف هكتار أراضي زراعية ومراعي و ٩٤٣ ألف هكتار أراضي غابات و ٢٧٥٩٢٣ ألف هكتار أراضي غير مزروعة وصحاري وهي موزعة على الشكل التالي :

	المساحة العامة ألف هكتار	الأراضي المزروعة بالمحاصيل	المراعي الدائمة	الغابات	أراضي اخرى	الأراضي المروية من الأراضي المزروعة
الجمهورية العربية الليبية	١٧٥٩٥٤	٢٥١١	١١٣٠	٥٠١	١٧١٨١٢	١٦٥
جمهورية مصر العربية	١٠٠١٤٥	٢٨١٠	—	٢	٩٧٣٤٢	٢٨١٠
الجمهورية العربية السورية	١٨٥١٨	٥٨٦١	٥٤٤٨	٤٤٠	٦٧٦٩	٤٧٦
المجموع	٢٩٤٦١٧	١١١٨٢	٦٥٨٧	٩٤٣	٢٧٥٩٢٣	٣٤٥١

يتبين لنا من هذا الجدول أن مساحة ليبيا تساوي ٦٠ بالمائة من مساحة دولة اتحاد الجمهوريات العربية بشكلها الحالي أما مصر فتعادل ٣٤٪ من مساحة دولة الاتحاد وسورية ٦ بالمائة من هذه المساحة .

وإذا نظرنا الى الأراضي من حيث استعمالها نجد أن الأراضي المزروعة بالمحاصيل وأراضي المراعي الدائمة تكون فقط ٦٪ من مساحة دولة الاتحاد يقع أكثر من نصفها في سورية ولكن لا تتجاوز المساحة المروية من الأرض المزروعة عشرها .

أما الأراضي غير المزروعة والصحاري فتشكل حوالي ٩٣٪ من مجموع مساحة دولة الاتحاد مما يجعل ذلك نقطة ضعف كبيرة جداً من ناحية الثروة الزراعية لهذه الدولة ولكن اذا تذكرنا الثروات الدفينة في هذه الصحاري والقيمة الاقتصادية لهذه الثروات وبصورة خاصة البترول نستطيع القول بأن أراضي دولة الاتحاد جيدة نسبياً ان هي تمت مقارنتها بأراضي دول أخرى .

وعلى مستوى المنتجات الزراعية :

اذا عرفنا أن عدد الآلات الزراعية « الجرارات ، الحصادات ، الدراسات ، » يبلغ في جمهورية مصر العربية ١٩٧٠٠ آلة بينما لا يتجاوز هذا الرقم ٨٥٠٠ آلة رغم اتساع رقعة الأراضي المزروعة الى الضعف في سورية ادركنا التباين في توفر هذه الآلات الأمر الذي يجدر الانتباه اليه وأخذه بعين الاعتبار عند رسم السياسة الزراعية لدولة الاتحاد .

وقد تضافرت عوامل الانتاج المذكورة آنفاً وهي السكان والأرض والآلات للحصول على الانتاج من المواد التالية التي تعتبر من المنتجات الرئيسية عالمياً ومحلياً .

تسهم دولة الاتحاد الى حد ما في انتاج المحاصيل الزراعية الرئيسية . ولئن كانت هذه المعلومات معبرة تمام التعبير عن رقعة الأرض المزروعة والمروية منها بصورة خاصة فانها تدعو في نفس الوقت الى أخذها بعين الاعتبار عند وضع السياسة الزراعية . وفي هذه الحالة يكون أمام المخطط المركزي عدد من الحلول ، فإما أن يتخذ القرار بزيادة انتاج دولة الاتحاد عموماً من هذه المواد أو يقارن رقم الانتاج المتحصل عادة مع رقم الاستهلاك في دولة الاتحاد من هذه المواد وإذا وجد أن الانتاج يسد حاجة الاستهلاك يتم توجيه الاستثمارات في هذه الحالة الى الزراعات الأخرى التي يتطلبها هذا الاستهلاك إلاأن الاستعمال الأهم في هذا الوقت لهذه المعلومات هو في مقارنة هذه الأرقام مع أرقام الاستيراد

من هذه المواد التي تقوم به كل دولة، فاذا وجدنا أن دولة من دول الاتحاد تستورد احدى هذه المواد من دولة خارج دول الاتحاد ووجدنا دولة أخرى تصدر هذه السلع إلى بلد خارجي أدركنا امكانية عدم اللجوء الى طرف ثالث أو رابع في عملية التبادل التجاري هذه الأمر الذي يؤخذ بعين الاعتبار عند وضع أي سياسة صناعية تستهلك فيها هذه المواد استهلاكاً وسيطاً.

وعلى مستوى الثروة المعدنية :

تقاس الأمم أيضاً بحسب ما تحتويه أرضها من معادن وثروات دفينة وتعتبر هذه الثروات مع الأراضي الزراعية والثروة الحيوانية أصل كل سلعة يستخدمها الانسان لاشباع رغباته فإذا نظرنا إلى جميع الحاجات والبضائع التي بين أيدينا نستطيع أن نردها الواحدة بعد الأخرى إلى أصلها الزراعي أو الاستخراجي ، فإذا نظرنا مثلاً الى البناء القائم نرى أنه مكون من حجارة واسمنت وحديد وزجاج وجميعها يتم الحصول عليها أصلاً من قطاع الصناعات الاستخراجية أي استخراج المعادن السطحية والباطنية والأحجار وكذلك نرى أن الخشب يدخل في انشائه وهو ذو منشأ نباتي ، وإذا نظرنا إلى قائمة استهلاكنا اليومي من المأكولات نجد أنها ذات منشأ نباتي أو حيواني .

والصعوبة التي تلاقيها الباحث في مجال الثروات الدفينة في دولة اتحاد الجمهوريات العربية هي عدم وجود حصر لهذه الثروات وعدم توفر الاحصاءات والدراسات عنها ، فمن المعروف أن هذه الدولة تمتد على رقعة واسعة من الأرض في كل من قارتي آسيا وافريقيا كما أن تنوع المناطق من حيث تكوينها الجيولوجي يعزز احتمال وجود جميع أنواع المعادن والثروات الدفينة فيها ،ولكن هذه الثروات بحاجة الى سبر واجراء الدراسات التفصيلية الأمر الذي لم يتم على أيدي خبراء عرب الا في جمهورية مصر العربية . وتهتم الحكومة في القطر السوري اهتماماً خاصاً بهذا الموضوع وقد كرست له جهوداً كثيرة ، أما في ليبيا فإن الثورة الوحيدة التي بحث عنها بشكل دقيق تتمثل في البترول ، وعلى أي حال تتوفر عن هـذا الموضوع بعض التقديرات التي تشير الى توفر فلزات الحديد في جمهورية مصر العربية في أسوان والواحات البحرية والبحر الأحمر وتستخرج بمعدل ٢٣٠ ألف طن سنوياً كما تتوفر هذه الفلزات في سورية في منطقة القدموس في محافظة طرطوس والمنطقة الشمالية الغربية وبصورة خاصة منطقة راجو كما دلت تحريات وزارة النفط والكهرباء على وجوده في منطقة الزبداني أيضاً ، أما في ليبيا فتدل التقديرات على وجود كميات

كبيرة جداً منها وبصورة خاصة في وادي شطي بالقرب من الفزان وهنا نلاحظ أن هذه الخامات لم تستخرج الا في جمهورية مصر العربية .

وتعتبر خامات الفوسفات من الثروات الطبيعية الرئيسية المتوفرة في دولة اتحاد الجمهوريات العربية ، وقد وصل انتاج جمهورية مصر العربية من هذه المادةفي عام ١٩٦٩ إلى ٦٦٠ ألف طن وقد عثر خبراء التنقيب عن المعادن المصريون حديثاً على كميات كبيرة من الفوسفات في منطقةأبو طرطور الى الشرق من نجع حمادي . وتقدر الكمية الموجودة في هذه المنطقة بحوالي ٦٠٠ مليون طن فاذا أضفنا الى ذلك المخزون الجيد المتوفر في سورية من هذه الخامات استطعنا القول بأن دولة الاتحاد ستحتل المرتبة الثالثة في العالم من حيث المخزون وذلك بعد المغرب والولايات المتحدة التي تبلغ كميات المخزون فيها على التوالي ٢١ مليون طن و ١٣ مليون طن هذا علماً بأن تصديرات الانتاج السنوي من هذه المادة في الجمهورية العربية السورية ستكون حوالي ١٦٥ ألف طن سنوياً .

والخامات الأخرى المتوفرة بصورة جيدة في دولة الاتحاد هي الكبريت والمنغنيز والباريت « يصدر معدن الباريوم » والاسبتوس بالاضافة إلى كميات لا تنضب من الملح الصخري والجص وخامات الاسمنت .

البترول : أما الثروة المعدنية الأولى فهي البترول حيث تبلغ كميات الاحتياطي فيه حوالي ٥٠٠٠ مليون طن متري والغاز الطبيعي تبلغ كميات الاحتياطي منه حوالي ٨٠٠ ألف مليون متر مكعب موزعة على الشكل التالي :

الاحتياطي من النفط الخام والغاز الطبيعي في دولة اتحاد الجمهوريات العربية :

	احتياطي النفط مليون طن متري	احتياطي الغاز الطبيعي الف مليون متر مكعب
ليبيا	٤٠٥٤	٧٣٦
مصر	٤٣٤	٥٧
سورية	١٧٦	١٤
المجموع	٤٦٦٤	٨٠٧

ولئن كانت كل مادة من مواد الثروة المعدنية وبصورة خاصة البترول بحاجة الى

بحث مستقل ، فاننا نكتفي هنا بالاشارة الى بعض مميزات السياسة النفطية في الجمهوريات التي تشكل دولة اتحاد الجمهوريات العربية .

تقوم السياسة النفطية في ليبيا على أساس الامتياز واذون الاستثمار الممنوحة للمصالح الأجنبية في زمان معين ومساحة معينة ترد الشركة مساحات امتيازاتها تدريجياً في مدة مثلا حقة ومحدودة كما نص قانون النفط الليبي أوجب على هذه الشركات أن تنشيء مصفاة فور اكتشافها للنفط، وقد قامت حكومة الثورة بتأميم استيراد وتوزيع المنتجات في السوق المحلية وكان طبيعياً أن تقرر دولة تقوم بتصدير ١٦٥ مليون طن سنوياً من النفط الخام انشاء مصفاتين لتكرير البترول بالاضافة الى الصناعات البتروكيميائية الاخرى ، كما قامت حكومة الثورة بتنشيط الشركة الوطنية للنفط التي كانت قد تأسست منذ عام ١٩٦٨ لتلعب دوراً أساسياً في مراقبة الشركات الاجنبية وتحاول الحكومة الليبية مع بعض الاقطار العربية الاخرى المنتجة للنفط عن طريق منظمة الاوبيك استعادة حقوقها الكاملة في ثرواتها الطبيعية عن طريق الدخول في رؤوس أموال الشركات لغاية ٥١٪ واقامة مشاريع مشتركة بميادين الصناعة البتروكيميائية والنقل والتأمين .

أما السياسة النفطية في جمهورية مصر العربية فتقوم على أساس عدم تحمل المخاطرة والخسارة في مرحلة التنقيب ثم يبدأ الجانب المصري بالمساهمة المالية في مرحلة تطوير الحقول والشروع بالاستثمار حيث تصبح الدولة شريكاً يحصل على ٥٠ ـ ٦٠ بالمائة من الانتاج عيناً بالاضافة الى ٥٠ بالمائة على الأرباح وميزة هذه المشاركة من قبل الدولة انها تسمح لها باجراء التدقيق على النفقات والأسعار والتمويل في مرحلة الانتاج كما تتيح المجال لليد العاملة الوطنية للعمل الى أقصى حد ممكن في هذا النشاط

وتعتبر تجربة الجمهورية العربية السورية في حقل النفط تجربة رائدة في العالم وتاريخ كفاح هذا الشعب من أجل تحقيق دليل على تصميم شعوب الدول النامية على السير في اتجاه التحرر الاقتصادي وهي جديرة بأن تحذو حذوها جميع الدول النامية ولقد كانت هذه التجربة لا تخلو من الثغرات ومواطن الضعف فهذا أمر طبيعي والنهج الذي تم اتباعه مؤخراً من قبل المسؤولين لاكبر دليل على اغناء هذه التجربة وسد الثغرات التي برزت اثناء تنفيذها. وتعتمد هذه السياسة على أن الثروات المعدنية والنفطية ثروات تملكها الأمة وتقوم الدولة بمباشرة سلطاتها في جميع مراحل انتاجها ونقلها

وتسويقها وهنا تجدر الاشارة الى ان مهمة التنسيق بيد السياسات المتعلقة بالنشاطات النفطية المنيعة في كل جمهورية من جمهوريات دولة الاتحاد من المهام الرئيسية التي سيقوم بها مجلس الشؤون الاقتصادية والاجتماعية الذي تم تشكيله مؤخراً كجهاز رئيسي من أجهزة الاتحاد المركزية .

وعلى مستوى التبادل التجاري :

ان المهمة العاجلة الثانية التي تنتظر المعالجة لتحقيق التكامل الاقتصادي السريع بين جمهوريات الاتحاد والتي تتطلب اتخاذ قرارات قد تكون فورية اذا لم يكن هنالك مانع من اتخاذها وهي التنسيق بين نشاطات التجارة الخارجية لهذه الاقطار ، ففي هذا المجال ميدان لتحقيق التكامل عن طريق تأمين السلع التي يحتاجها قطر من الأقطار في حال توفرها في قطر آخر من هذا القطر وعدم اللجوء الى طرف خارجي وذلك بغية تمتين وضع دولة الاتحاد الحالي في علاقتها مع العالم الخارجي مما يجعلها قادرة على القيام بالمهام التي تهدف اليها على صعيد الوحدة العربية الشاملة .

ويتبين لنا من دراسة الجداول الاحصائية الخاصة بمستوردات جمهورية مصر العربية من السلع بأن استيرادها من المنتجات الزراعية بتناقص مما يدل على زيادة انتاجها من هذه المواد بدليل ارتفاع مستورداتها من زمرة السلع الكيماوية مثل المبيدات والأسمدة والمستلزمات الصناعية وهكذا نستنتج من مقارنة المستوردات من المنتجات الزراعية بالمستوردات من الكيماويات أن تجارتها في اتجاه التوسع الرأسي في قطاع الزراعة عن طريق تأمين المركبات الكيماوية لهذا التوسع كما يدل ايضاً على انخفاض تدريجي في استيراد الآلات الكهربائية الأمر الذي يمكن ان يعزى الى زيادة انتاجها من هذه الآلات والاستعاضة عنها بمثائل منتجة محلياً ، أما مستورداتها من منتجات المناجم فهي في ثبات خلال الفترة المدروسة مما يدل على ان الصناعات التحويلية التي تقام في الوقت الحاضر تعتمد بالدرجة الأولى على الانتاج المحلي من الثروات المعدنية .

ويمكن القول إن جمهورية مصر العربية بحاجة متزايدة الى الكيماويات واقتصادها متقبل لمستلزمات الآلات والمعدات الكهربائية والصناعات التحويلية الأخرى .

أما دراسة ماتستورده ليبيامن السلع فتؤدي الى استنتاج يقول إن هناك مواد رئيسية تشكل عين الاستيراد الأكبر بالنسبة لهذه الجمهورية ولا تنقص دوماً عن ٣٥ ٪ من جملة الإستيراد فهي أكثر من ثلث استيراد تلك الجمهورية ، وان استيراد المنتجات

الزراعية في تزايد مستمر مما يدل على ضعف الإنتاج الزراعي في السنوات المدروسة بالإضافة الى تزايد الاستهلاك من هذه المواد ، كذلك يلاحظ الارتفاع المستمر في مستورداتها من المواد الطبيعة ، وبالنسبة للقطر العربي السوري فان استيراد السلع الرئيسية يشكل نسبة ٣٥ ٪ من جملة المستوردات في عامي ٩٦٨ - ١٩٦٩ و ٤٣ ٪ من جملة المستوردات في عام ١٩٧٠ وإن استيرادها المتزايد من المواد الغذائية يدل على ضرورة الاعتناء بالزراعة وتحويلها من الاعتماد على الأمطار الى زراعة المحاصيل الدائمة والتوسع في زراعة المحاصيل الصناعية مثل الشوندر السكري .أما عن الخشب فنستطيع القول بأن هنالك امكانية الاعتماد على السودان في تلبية حاجات دولة الاتحاد جهد الامكان بالإضافة الى امكانية الانتقال من استعمال هذه المادة الى مواد بديلة تنتج محلياً في احد أقطار الإتحاد .

كما يدل انخفاض مستورداتنا من المحروقات المقطرة خلال الفترة المدروسة على الاستعاضة من المادة المستوردة بالانتاج المحلي وكذلك الأمر بالنسبة للمواسير حيث يدل انخفاض الاستيراد منها وارتفاع الاستيراد من مادة القضبان الحديدية على التحول في الاستيراد من هذه المادة الى مادة اقل تصنيعاً في السنة الأخيرة ١٩٧٠ .

وعلى أي حال تعتبر هذه المعلومات وأمثالها من الأدوات الرئيسية التي يستعملها المخطط ، والاقتصادي عند وضع خطة اقتصادية أو اجراء تحليل اقتصادي على المستوى المركزي لتجيء كل خطوة من خطى تكاملنا الاقتصادي متينة مدعمة بالحقائق وتؤدي الغاية الاولى والنهائية منها ألا وهي زيادة امكانية المجتمع في تحقيق رفاهية الفرد وتدعيم صموده ومساعيه من اجل الوحدة العربية الشاملة ..

أما بالنسبة للنقطة الثالثة فغني عن القول ان التخطيط أصبح ضرورة ملحة في جميع الدول النامية على حد سواء وبصورة خاصة تلك التي تهدف منها الى بعض خطوات التكامل الاقتصادي فيا بينها وباعتبار أن جميع جمهوريات دولة الاتحاد تأخذ بنظام التخطيط الشامل ، فاننا نستطيع القول بأن دولة الاتحاد وقد قطعت أشواطاً كبرى في مضمار التوحيد نظراً لما يسهل هذا النظام من أسباب التنسيق بين اقتصاديات الاقطار المختلفة ويمنع أسباب النمو المتوازي الذي قد تتعرض له اقتصاديات هذه الجمهوريات في حال غياب التخطيط ، هذا وقد رأينا في مقدمة هذا البحث كيف اصبحت نظرية التكامل الاقتصادي تصر بصورة خاصة على الاخذ بمبدأ التخطيط عند رسم خطوات التكامل في الدول النامية ،

وقد جاء الدستور الاتحادي معبراً تمام التعبير عن هذه الحاجة وهذه الضرورة فجاءت المادة ١٤ من دستور الاتحاد محددة اختصاصات الدولة الجديدة في مجال الاقتصاد بالآتي .

آ — وضع خطط التنمية العامة المشتركة على النحو الذي يكفل تحقيق التكامل فيما بين اقتصاديات الجمهوريات الأعضاء .

ب — تنظيم انتقال السلع والخدمات ورؤوس الاموال بين الجمهوريات الاعضاء وتنظيم اقامة واستخدام مواطني احدى الجمهوريات الاعضاء في جمهورية أخرى عضو في الاتحاد .

حـ — العمل على توحيد النظم والسياسة الاقتصادية والمالية في الجمهوريات الاعضاء وتقديم الخدمات الاحصائية والحاسبية التي تهم مجموع هذه الجمهوريات .

د — التنسيق بين اقتصاد الاتحاد واقتصاد الدول العربية الاخرى بما يحقق التكامل الاقتصادي العربي ، وذلك وفقاً لوسائل التنظيم التي يقررها مجلس الرئاسة .

هـ — العمل على توحيد السياسات الاقتصادية للجمهوريات الاعضاء في علاقاتها مع الدول الاخرى . وتنسيق التعاون مع المنظمات الاقتصادية والمالية الدولية .

و — انشاء المرافق ذات النفع المشترك للجمهوريات الاعضاء والمشروعات المشتركة بينها والاشراف عليها .

ز — انشاء المؤسسات الاقتصادية والاتحادية والاشراف عليها .

كما أن المادة (٢٧) من دستور الاتحاد قضت بأن ينشيء مجلس الرئاسة مجالس اتحادية لشؤون التخطيطية والاقتصادية ، ومجلس آخر لشؤون المواصلات . هذا وقد قامت هذه المجالس في العام المنصرم باتخاذ الاجراءات اللازمة للتنسيق بين خطط التنمية في الأقطار الثلاثة بالاضافة الى انشاء المؤسسات المركزية سواء منها المالية التي يتعلق نشاطها بالادخار والتمويل على المستوى المركزي والمؤسسات المتعلقة بالنقل مثل المؤسسة العربية الاتحادية للنقل البحري، بالاضافة الى المؤسسة العربيه الاتحادية للمقاولات وغيرها من النشاطات التي تمت على المستوى الاتحادي المركزي .

هذا وبالختام يجب أن نشير الى حقيقة واحدة الا وهي أن تجربة اتحاد الجمهوريات العربية تعطي مقدماً كل مسببات نجاحها لأنها مفتوحة للدراسة بهدف وضع أساس قوي متين يدوم الى الأبد ويكون كما نص بيان اعلان الاتحاد قاعدة ومنطلقاً للوحدة العربية الشاملة .